
maged1200@yahoo.com

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد السادس

الإسلاميات ـ ٢

يحتوي على

الإسلام دعوة عالمية

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا: كتالبان - بيروت
ص.ب: ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة

١٩٨٦

عباس محمود
العقاد

الإسلام دعوة عالمية

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تقديم

بقلم محمود احمد العقاد

اسهم العقاد في ميدان الإيمان والدين في القرن العشرين بنصيب عظيم ، بما تضمنته كتبه عن العبقريات فأعطت مثلا عاليـة من الأنبياء ورجال الإسلام ، فأظهرت فضلهم ، وأرست أسس اليقين في نفوس الباحثين عن الإيمان ، والضالين في متاهات الحيرة والشك من بناء الجيل الحديث .

وقد كانت فترة « الحرب العالمية الثانية » وما تلاها مصدر هـذه الحيرة والشكوك ، كما كانت مصدر خير كبير لهؤلاء التائهين ، فقد أصدر العقاد فيها — بجانب كتبه عن الإسلام والمسلمين — كتابـه عن « الله » الذي صور نشأة العقيدة الإلهية منذ اتخذ الإنسان ربا إلى أن عرف الله الأحد واهتدى إلى نزاهة التوحيد . وكانت مصدر خير كبير أيضاً بما صدر فيها عن « الفلسفة القرآنية » « والبحث في عقائد المفكرين في القرن العشرين » وإثبات أن الفكر لا يناقض العقيدة ، ولكنه يرسيها ويثبتها في نفس الإنسان فيهديه إلى الحقيقة التي هي بذت البحث . « فالتفكير فريضة إسلامية » كما قرر العقاد ودلل عليه في كتاباته .

وكان العقاد في هذه الفترة يبني بكتبه ومقالاته بناء متكامل الأساس ، ثابت الأركان يوضح فيه « الديمقراطية في الإسلام » ويعلي فيه من شأن « الإسلام في القرن العشرين » ويدافع عن الإسلام ويبين مؤامرات الاستعمار وكيده للمسلمين . ثم يثبت حقائـق الإسلام ويزهق أباطيل خصومه ، ويفرد للمرأة كتاباً هو « المرأة في القرآن الكريم » وللإنسان آخر هو « الإنسان في القرآن الكريم » .

كل هذا بجانب دفاعه عن الثقافة العربية واللغة العربية ، وفلسفة العرب والإسلام والفلاسفة والمصلحين والأدباء وإظهار فضلهم ونبوغهم ومناحي عظمتهم ، في ميادين الحياة المختلفة والحضارة الإنسانية في الماضي والحاضر ، وما يمكن أن يفيده المستقبل منهم .

وبهذا البناء المتكامل هدى العقاد الجيل العربي المعاصر وشفاه من قلقه ، وأعاد إليه ثقته بنفسه وبدينه وبقوميته .

* * *

ولقد أجاب العقاد مرة على سؤال من شبابنا الذين تراودهم الشكوك ، فكان مما قاله إن وجود الله لازم ... والمطلوب من الإنسان أن يؤمن بالله ، فالإيمان صلة نفسية قوية بينه وبين ربه ... وعلى الإنسان أن يطلب المعرفة الإلهية والشعور بالله دائماً ... إن المطلوب الآن هو شجاعة الإيمان

وكان مما أجاب به أيضاً عن أهمية الدين في المجتمع قوله « إن للدين أهمية كبيرة في المجتمع ، ولا يوجد مجتمع بغير دين ... وأهمية الدين مقارنة في الواقع بوجود المجتمع نفسه ... وإيمان بعض أصحاب المذاهب بمذهبهم — وهم يظنون أنهم حاربوا الإيمان — إنما هو من ألوان الشعور الديني ... ولولا حماسة هذا الشعور لما ثبتوا عليه ولما تحملوا الضحايا في سبيل نشره .

لذلك اهتم العقاد في كتاباته بشريعة الإسلام ، وبين موقفها من المذاهب المتباينة والدعوات المختلفة والأقوال المتضاربة ، فبلور محاسن هذه الشريعة وجلاّها للقراء ، وكانت كتاباته في « مجلة الأزهر » في أخريات عمره دليلا واضحاً على حقيقة دوره ، وضرورة قلمه وعلمه ، وحاجة الناس جميعاً إلى هذه الكتابات العميقة الواضحة ، التي جمع بعضها كتابه « ما يقال عن الإسلام » .

* * *

وهذا الكتاب « الإسلام دعوة عالمية » والذي قمنا بجمعه لهو مجموعة طيبة من الفصول تتفق مع ما نشر من كتبه مما سبقت الإشارة إليه في صدر هذا التقديم.

وفي هذه الفصول نجد العقاد — كعهدنا به دائماً — يناقش الشبهات التي أثيرت حول الدين والعقيدة ، ويتعقبها وينقضها ، ويدافع عن الإسلام بالحجة الدامغة .

وهذه المجموعة تبدأ بمقالات عن النبي ﷺ ، وبأخرى عن رمضان المبارك وفريضة الصوم ، وعن العيدين والهجرة .

أما بقية المجموعة فهي عن الإسلام وما يتصل به في القديم والحديث ، وما يقال عنه في الغرب والشرق . ويمكن أن تكون هذه البقية جزءاً مكملا لكتاب العقاد « ما يقال عن الإسلام » الذي صدر في حياته رحمه الله ، والذي تصدى فيه للرد على ما يكتبه الغربيون عن الإسلام جهلا أو قصداً ، عائبين ومهاجمين لتاريخه وأحكامه وتشريعه، وصوب بذلك مفاهيم هؤلاء وغيرهم عن الإسلام.

وهذا الكتاب يضم إلى بناء العقــاد الفكري الشامخ الذي يتناول الدين والعقيدة والإيمان والإسلام ، والذي يملأ القلوب طمأنينة والنفوس ثقة ويقيناً .

ثم نترك القارىء لهذا الكتاب يخلو إليه في روحانية يستجلي معاني الدين والعقيدة ويحيا في صوفية دينية مباركة ، فيزيد إيمانه وقلبه يقيناً ، فيسعد في هذا العالم المضطرب المائج ، ويرضى بإيمانه وعقيدتــه ، فيزداد سعادة كلما ازداد إيمانا .

محمود أحمد العقاد

الفصل الأول

نبيّ الإسلام

محمد العربي الإنسان[1]

شعور القومية بالنسبة إلى الأمم ، نوع من الشعور بالكرامة الشخصية بالنسبة إلى الإنسان الفرد ، وأعرف الناس بالكرامة أشدهم حرصاً على كرامة سواه ، ولا تعز الكرامة في نفس أحد يهون عليه أن يهينها في نفوس الآخرين .

والأمم تصون حقوقها الوطنية على قدر شعورها بحقوق الأوطان ، فليست رعاية الأمة لحقها مبيحة لها أن تبغي على حقوق غيرها . إلا أن يكون مآل الأمر عندها قوة كقوة السبع ، وأثرة كأثرة الطفل المدلل ، لم تبلغ في معارج الإنسانية مبلغ الرشد والإعتدال .

قبل ألف وأربعمائة سنة ، وجد في العالم الأرضي رجل كان اماماً للقومية في مثلها الأعلى ، ورسولاً للانسانيه في قدوتها الحسنى .

ذلك هو محمد بن عبدالله ، النبي العربي ، رسول رب العالمين ، إلى جميع خلقه ، من عرب وعجم ، ومن بيض وسود ، ومن سادة ومستعبدين .

نبي عربي مبين ..

ولكنه رسول رب العالمين إلى جميع بني الإنسان ، وذلك هو مثال القومية الفاضلة ، وقوام الإنسانية ، كما يتمثل فيها جميع بني الإنسان .

كان محمد بن عبد الله — عليه السلام — راضي النفس بعروبته ، يحمد الله لأنه ولد يوم أعز الله العرب ، ونصرهم على دولة الاكاسرة التي طغت على حوزتهم

---

(١) الهلال مارس ١٩٥٩ .

واستباحت ما ملكت من جوارهم ، وكان يحب قومه ولا يحب من يبغضهم فلا يكره العرب إلا منافق ، ولا يخلص في عقيدته من لا يخلص في رعايتهم وعرفان حقهم ، قال لصفيه ومشيره سلمان الفارسي : « يا سلمان ! لا تبغضني فتفارق دينك ». قال سلمان رضي الله عنه : « كيف ابغضك وبك هدانا الله؟ ». قال صلوات الله عليه : « تبغض العرب فتبغضني ! » وفي حديث عثمان ذي النورين : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي » .

يحب قومه ، ويحب أن يحبهم الناس ، وهذا قصارى النفس من القومية في شعورها وعاطفتها ، ولكنه الحب الذي يعمل ولا يقنع بأن يشعر وينطوي على شعوره . فهذا الحب هو الذي جمع شمل العرب ، وألف بين قلوبهم ، وأخرج من أشتات قبائلهم أمة واحدة تهابها الأمم ، وتتلقى عنها رسالة الهداية باسم الله . باسم رب العرب والعجم ، باسم رب العالمين ، باسم رب الأنسان في المشارق والمغارب .

ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لقرشي على حبشي ... الا بالتقوى ، ولا عصبية كعصبيه الجاهلية .

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

ومعجزة المعجزات في هذه الرسالة الإلهية أن يتعلم الناس ضلال العصبية بالنسب والحسب ، وجهالة الفخر بالآباء والأجداد في غير فضل ولا عمل ، من صاحب العصبية التي لا يعلى عليها بين قومه ، ومن رسول القوم الذين بلغوا بالعصبية غايتها ، من الأنفة لها والاعتداد بها والغيرة عليها ، ولو كان هذا النبي محروماً من العصبية في أمته ، أو في عشيرته أو في أسرته ، أو في بيته ، لما كان في انكاره للعصبية من عجب الاعزاء المتكبرين باللغة ، وبالسلف ، وبالمنعة في مكانهم وفي تواريخ أيامهم ولكانت رسالته بالمساواة بين بني آدم وحواء رسالة من معدنها لا تستغرب من صاحبها ولا من قومه ، لكن محمداً عليه السلام كان في الذروة من فخار النسب والعصبية ، وكان نسبه العريق ملتقى الانساب من أقوى الأقوياء واغلب الغلاب .

يجتمع معه في مضر قبائل قيس كلها ، وسائر بني ذبيان وغطفان ، ويجتمع

معه في نزار قبائل بكر وتغلب وعنز من بني وائل ويجتمع معه في معد وعدنان من لم يجتمع من هؤلاء ، وهم في الصفوة من ذوي العصبية الأعزاء ..

فإذا كان في بلده فهو في بلد الكعبة ، وفي أعز قبائل قريش ..

وإذا كان في قريش فهو في بني عبد مناف ، وإذا كان في بني عبد مناف فهو في بني هاشم ، لا ينازعهم فخارهم أحد إلا أسكته غيرهم قبل أن يسكتوه ... ونسابة العرب « نفيل » جد عمر بن الخطاب هو الذي قال .. فيما روى الرواة — يؤنب حرباً حين نافر عبد المطلب « أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، واعظم منك هامة ، واوسم منك وسامة ، واقل منك لامة ، واكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفدا ، وأطول منك مذوداً ؟ »

خلاصة من خلاصة من خلاصة ، يعرفها أهلها ولا يدعي المقترون فيهم شرفاً أجدر بالفخار من شرفه . ثم هو سليل عبد المطلب بعد ذلك سيد بيته ، نبي أمته ، أشرف من يتعصب له من شاء ان يتعصب ، وان ينتسب إليه من اعتز بنسب

ومن هذا النبي تجيء دعوة الأمم إلى المساواة ، والى فضل العمل ، والى كرامة القومية دون مساءة الى قوم ، والى رب العالمين ، رب الخلائق اجمعين .

هذه هي المعجزة الإلهية ، هذه هي الاية لمن لا يهتدي الى الهداية بغير آية ، وهذا هو البرهان على ايمان لا تنهض به طاقة انسان لم تنهض به مشيئة الله ، وآية الايات ان تتقدم هذه الرسالة قبل ألف وأربعمائة سنة . وقبل اربعين سنة ، لا أكثر ، سمعنا من ينادي بسيادة العالم كله فخاراً بعنصره وسلالته ! وقبلهم سمعنا من ينادي برسالة « الرجل الأبيض » ويكاد ان يخرج الأسمر والاسود والأصفر من زمرة الآدمين .

ولا يزال في العالم حتى اليوم من يدين باله يعز قبيلا واحداً ليذل من بعده كل قبيل ، ومن يدين باله يتقبل من اناس ولا يتقبل من آخرين ، ومن يسمع الدعوة الى إله واحد وعالم واحد وحق واحد فيستغربها بطبعه قبل ان يستغربها بعقله ، وينظر الى العالم قد توحد على اختيار منه وعلى غير اختيار . اتصل ما بين مشرقه ومغربه ، وتجاوبت اصداؤه في كل بقعة من بقاعه وبين كل شعبة من شعابه وشعوبه ، وكاد ان يقترب ما بين ارضه وسمائه ، ثم هو يسمع عن رب العالمين كأنه يسمع عن رب جديد ، أو رب طارىء من بعيد !

ولم يكن هذا الرب بعيداً قبل مئات السنين ، ولا هو بجديد عند عربي يؤمن بالقومية ، ويؤمن بالأخوة الإنسانية كما آمن بها الرسول .

وحسب العربي ان يؤمن برسالته قبل ألف وأربعمائة سنة ليعلمها الأمم في هذا العصر ، جديدة كأن لم تسمع بالأمس ، غريبة كأن لم ترددها الأذان على مدى الاسماع في اجواز الفضاء : حسبه ان يعلمها هذه الرسالة وان تعلم منها بعد ذلك كل رسالة .

حسبه ان يكون عربياً يحب قومه ويحب من يحبون قومه ، ولا يحب لهؤلاء القوم ان يتميزوا بغير مزية وان يتفضلوا بغير فضل، وان يتعالوا بغير عمل، وأن يطلبوا القوة بغير تقوى .

حسبه ان يكون عربياً على هذه الشرعة ، عربياً على سنة نبيه ، ليكون « الانسان » نعم الانسان ، وليفخر بنسبه وحسبه ولا يزري على احد بفخره وشرفه ، لانه العربي الانسان .

رأيٌ في نبيّ الإسلام بين الأنبياء[1]

من أشهر المطبوعات المتداولة عند الغربيين سلاسل التراجم والسير التي ينفرد كل كتاب منها بالترجمة لنخبة من قادة الإنسانية في ميادين الدين والحكمة ، أو ميادين العلم والفن ، أو ميادين الحرب والسياسة ، مشتملا على عظماء كل ميدان في المشرق والمغرب وفي الزمنين القديم والحديث .

وهذه التراجم تنتشر وتنفد وتعاد طبعتها من حين إلى حين ، وآخر ما أعيد منهـــا في العام الماضي كتاب القادة الدينيين Religious Leaders لمؤلفيه هنري توماس ودانالي توماس henry Thomas and Danalee Thomas

وفيه تراجم ثلاثة من الأنبياء الكبار وثلاثة من أئمة الديانات الكبرى في الهند والصين والمشرق ، ونحو عشرة من المصلحين الدينيين في المذاهب المسيحية أو البرهمية ، آخرهم « المهاتما غاندي » زعيم الهند السياسي الديني المعروف .

أما كبار الأنبياء فهم موسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم السلام .

وأما أئمة الديانات الشرقية ، فهم زرادشت ، وبوذا ، وكنفشيوس .

وأما المصلحون في مذاهبهم فمنهم بولس ، ولوثر ، وليولا ، زعيم الطائفة اليسوعية .

ويظهر من آراء المؤلفين وتعليقاتهما انهما يكتبان عن الأديان جميعاً المؤرخ الذي يحترم العقيدة الدينية ولا يتبع عقيدة خاصة منها ، لأننا إذا قابلنا بين

---

(١) الأزهر يوليه ١٩٦٠

كتابتها عن محمد وكتابتها عن موسى أو عيسى عليهم السلام ، كدنا نفهم منها انها أقرب إلى الاعجاب بنبي الإسلام وإن كانا قد ولدا وتربيا علــى مطالعة التوراة والانجيل ، ولكنه اعجاب تقدير واستحسان يتساوى فيه الاعجاب بالعظمة حيث كانت في مقامها الرفيع من قيادة بني الإنسان .

تبتديء ترجمة النبي العربي بالأسطر التالية : « في القرن السابع ، حين بدا على الدنيا انها قد اصيبت بالجفاف ، وحين فقدت اليهودية مولدها واختلطت المسيحية بموروثات الأمم الرومانية والبربرية ، نبـع في المشرق – فجأة – ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم ... وإن حكمة الله لعجيبة ذات قوة في قضائها العجيب ، فإن هذا الينبوع الصافي قد انبثق من أجدب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة : صحراء الجزيرة العربية » .

قال المؤلفان : « وتروي الأخبار المأثورة كثيراً من المعجزات والخوارق التي صحبت مولد محمد وطفولته ... ولكن محمداً لم يذكر هــذه المعجزات ولم يذكر قط معجزة تتصل بشخصه أو برسالته ، لأنه لم يأت كما قال بغير معجزة واحدة هي معجزة القرآن الذي تلقاه من وحي الله ... وقد جاء بالدين ليدعو إلى ملة إبراهيم ، وموسى ، والمسيـح ، على هدى جديد » .

وقالا : « وقد كان محمد محباً لإخوته من بني الإنسان ، بسيطاً في معيشته يــأكل خبز الشعير ويخدم نفسه وإن اجتمعت له أسباب الثراء ، ويتورع أن يضرب أحداً أو يسوءه بكلمة تقريـع... ولم يغتفر لنفسه أنه أعرض ذات مرة عن سائل ضرير... وقد حاول أن يقابل كراهة أعدائه بالحب لانه يعلّم الناس أن أحب الخلق إلى الله أحبهم إلى خلق الله ، ولكن عبــاد الأوثان بمكة لم يستمعوا لدعوة الحكمة والمحبة ونظروا اليه فلم يفهموا من قوله ولا عمله إلا أنه ثائر عليهم يسفه أحلامهم ويحطم اصنامهم ، فصادروه وتوعدوه واعتدوا عــلى حريته وأوشكوا أن يعتدوا على حياته » .

ويتأدب المؤلفان في وصف الهجرة الى المدينة ، فيختاران لها اسما باللغــة الانجليزية غير الاسم الذي اصطلح عليه المبشرون والمترجمون للسيرة النبوية في لغات الغرب وهو اسم الفرار أو الهرب Flight ... فقــد سميا الهجرة باسم المفارقــة او الابتعاد Departure وذكرا الـكلمة المصطلح عليها قديماً لاشتهارها ..

ويقول المؤلفان : « ان صاحب الدعوة الإسلامية لم يبدأ المخالفين له بالحرب ، بل هم الذين بدأوه بها واضطروه اليها ، وكان من خلائقه المعروفة أن يرحم الضعيف ، ويأمر بالرحمة ، ويرفق بالحيوان ، وينهى عن التحريش بين البهائم ، ويدعو أتباعه الى ادخال السرور على قلوب المحزونين ، وهو القائل : « أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً او تقضي عنه ديناً او تطعمه خبزاً » . وهو القائل : « فكوا العاني ، وأجيبوا الداعي ، وأطعموا الجائع وعودوا المريض » .

وأشار المؤلفان الى الخبر الذي ورد عن وقوف النبي لجنازة اليهود ، والى الأخبار الكثيرة التي وردت عن أدبه عليه السلام في معاملة الضعفاء والأتباع ، ومعاملة اليتامى والأيامى فقالا : « إن هذا الأدب هو أدب النبوة الإسلامية في لبابها ، وليس أدب القتال عنوانا لها كما حسب بعض الناقدين للإسلام على السماع » .

أما الجهاد ، فهو فريصة يؤمر بها المسلم ويتعلم معها من نبيه ان « أفضل الجهاد ان يجاهد الرجل نفسه وهواه » .

ويشير المؤلفان في هذا السياق الى كلام كارليل عن استخدام السيف لنشر الدين فيعيدان قوله :

« ان شرلمان لم ينشر الدين بين قبائل السكسون بالدعوة والموعظة ، وان العبريين لم ينشروا بهما الدعوة بين قبائل كنعان . وإن من السخف ان يقال عن محمد انه نشر دينه بالسيف ، لأن الذين يقولون ذلك يصورون لنا رجلا واحداً قائماً وحده يحمل السيف ويشهره على أمة كاملة تعاديه وتنكر دعواه ، وهي صورة غير معقولة يرفضها خيال المتخيل قبل ان يرفضها ادراك المتأمل ، ولا بد له من النظر قبل ذلك الى الدعوة المقنعة التي آمن بها عدد من الناس كاف « لحمل السيف والجهاد به للدفاع او الاقناع » . وعبارة كارليل في هذا السياق ان محمداً دافع عن نفسه دفاع الرجل ودفاع العربي ودفاع الرسول المستجيب لدعوة السماء .

ويلتفت الكاتبان التفاتة حسنة الى المثل الأعلى في الحياة الباقية كما وصفها القرآن الكريم ، فيذكران انها هي الحياة التي تصفو فيها القلوب : « وَنَزَعْنَا مَا

في صُدُورِهِمْ من غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ » وانما هي الحياة التي يتساوى فيها الناس « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا هُمْ يَتَسَاءَلُونَ » ومثل هذه القدوة السماوية لا توجد في عقيدة تقوم على البغضاء وسفك الدماء، ولكنها هي الصورة المنشودة لكل حياة يتحراها المسلم في دنياه، ويذكرها كلما ذكر الإله المعبود : باسم الله الرحمن الرحيم .

قالا : « ان من الحق ان يلاحظ ان صدق محمد لا يتجلى في كتاب مقدس فحسب، بل هو متجل « كذلك في حياة مقدسة ، لأنه كان بأصدق معاني الكلمة نعم المثال للمسلم الفاضل الذي أسلم نفسه الى الله اسلام السمع والطاعة ، ولم يدّعِ قط لنفسه صفة من الصفات الإلهية، بل كل ما ادعاه وكرره انه بشر يعلّم الناسَ ما يستطيع كل انسان ان يتعلمه لو ألقى السمع اليه ، ولا يصعب تلخيص تعليمه ببضعة سطور ، فإن المسلم لا يحتاج الى الخوض في النظريات الكهنوتية ولا يجهل ان دينه دين عمل لتحقيق الحياة الصالحة وليس بمجرد نظريات وأقوال يطول فيها الجدل والمحال » .

وبعد تلخيص الفرائض الإسلامية ختما خلاصة الفرائض والعبادات بخلاصة السلوك العملي الذي يوجبه القرآن على المسلم فقالا : « ان القرآن واضح في منهج السلوك الذي يتطلبه من المسلم ... فان واجبه الأول ان يرتفع غاية الارتفاع الذي يعلو به الى الاقتراب من صفات الله ، وقد عمل على ادماج النزاع بين الأفراد والقبائل في اخوة اسلامية وتوسل الى تحقيق هذه الاخوة بتعليم كل رجل، وكل امرأة ، وكل طفل ، منهجه الكامل من السلوك المستقيم ، فجاء بتحريم السكر والقمار ، والخداع والأثرة ، والقسوة على أي وجه من الوجوه ، وألهم المسلمين ان يفرقوا بين حدود العبادة وحدود الأخلاق والنيات ، فليس البر ان يولوا وجوههم قِبل المشرق والمغرب ، وإنما البر في الإيمان والإحسان ... وعلى المسلم ان يدفع عن نفسه ، وأن يقاتل من يقاتله ، ولكنه لا يعتدي لأن الله لا يحب المعتدين » .

وقالا في ختام السيرة المحمدية : « فالاسلام لا يخالف الديانات الأخرى ، بل هو دين يجمع ويؤلف ، ولا يطرد او يستثني ، ومن أدب المسلم ان يحترم عقائد غيره ، وان يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدين لإله واحد : هو رب العالمين » .

هذه هي زبدة الفصل الذي جاء في كتاب القادة الدينيين عن محمد عليه السلام ، ولا إخال ان القاريء المسلم يطلع في كتابات الغربيين المعاصرين على كلام عن نبيه ورسالته هو ادعى الى ارتياحه ، وحسن ظنه من كلام المؤلفين او المؤلف والمؤلفة لهذا الكتاب .

فإن كتاب الغرب على درجات في حسن الفهم وحسن النية ، وعلى درجات في التعصب الديني والشعور الانساني الذي يشعرون به نحو أبناء الديانات الأخرى ، ولا سيما الديانة الاسلامية واتباعها من الأمم العربية .

فنهم من يطمس الحقائق ويأبى ان ينظر الى خبر من أخبار التاريخ يستدعي الثناء على صاحب الرسالة المحمدية ، وينفي عنه زعما من المزاعم التي اشاعها الجهلاء المتعصبون في ظلمات القرون الوسطى .

ومنهم من ينظر الى حقائق التاريخ ويثني حيث يلزمه الثناء كأنه ينصف في الشهادة على كره منه .

ومنهم من يتقبل اخبار السوء بأضعف سند يلقاه بين يديه ، ولا يتقبل اخبار الحمد والخير إلا ان تفحمه بالأدلة والأسناد التي يحار فيها الإنكار والارتياب .

أما القليل النادر جداً بين هؤلاء الكتاب فهو الذي يبحث ويطيل البحث بين المصادر المجهولة ليستخرج منها شواهد الحمد والانصاف ، وهذه مصادر الاحاديث وأخبار السيرة المتفرقة التي عني الكاتبان باستقصائها كما نرى من مواضع الاستشهاد بها في الصفحات الموجزة التي خصصاها لسيرة نبي الاسلام بين قادة الاديان ، وهي لا تزيد على عشرين .

* * *

ان رد التحية بمثلها ، او بأحسن منها أدب من آداب الاسلام التي نوه بها الكاتبان ، ولكنها تحية — مع هذا — تنبئنا عن شيء نحسبه في عداد الاخبار التي لم تتكلف لها مؤونة التزويد ، فان سلسلة هذه التراجم من مطالعات الجمهور القاريء على اوسع نطاق ، ووجود هذا الاستعداد في طائفة متعلمة من ذلك الجمهور علامة لا يغفلها المسلم الذي يعنيه على الدوام ان يقيس موقف الاسلام من العالم ، وموقف العالم من الاسلام .

حكومة النبي وخلفائه (1)

يقول الدكتور طه حسين في كتابه « عثمان » : « إن حكومة الرسول والخلفاء الراشدين من بعده كانت وضعية وليس للدين الاسلامي يد فيها ، ويستنتج من هذا انه لا فرق بين المسيحية والاسلام من هذه الوجهة وأعني نظام الحكم والمجتمع، ويأتي بدليل قوله تعالى : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ » ويقصد الامور الدنيوية بأسرها .

ولكن ألم يقرأ قوله تعالى عز من قائل : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

هل كانت حكومة المسلمين من وضع محمد عليه الصلاة والسلام دون ايحاء من رب السماء ؟ وهل كان أبو بكر وعمر يقومان بأعمالهما من تلقاء نفسيهما وليست هي من جوهر الاسلام في شيء ؟ وهل كان عمر رضي الله عنه يقصد من قوله : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لاخذت فضول اموال الاغنياء فرددتها على الفقراء » ... أقول هل كان يقصد الاموال بأنواعها كما يعتقد الدكتور ، او يقصد الزكاة والصدقات ؟

ارجو ايضاح ذلك على صفحات الرسالة الغراء .. الخ .

الاعظمية — عبد الكريم الوهاب

(1) الرسالة ١٢ مارس ١٩٤٨

جاءنا هذا الكتاب فحذفنا منه بعض العبارات التي لا تدخل في السؤال ، واكتفينا منه بما نشرناه .

والذي نراه أن الاديب صاحب السؤال قد ظلم الفكرة التي نقلها عن كتاب « عثمان » ، لان الدكتور طه حسين لم يقل شيئاً مما فهمه في سؤاله ، وكل ما يفهم من كلام الدكتور طه أن حكومة النبي عليه السلام لم تكن حكومة «ثيوقراطية» اي حكومة تستأثر بها طائفة من الكهان والاحبار ولا تُشرك فيها الامة برأي في اختيار الحاكم وتقرير الاحكام .

وهذا في رأينا صحيح .

فمسألة الحكم في الاسلام حق لجميع المسلمين يتولاه من يصلح له وتتفق جمهرة المسلمين على صلاحه ، وليس العالم بالفقه فيه إلا كالعالم بأصول الحكم في هذه الايام ، يُختار لحاجة المجتمع الى هذه الاصول ، ولا يختار لان علمه يجعل الولاية حكراً له او حقاً محصوراً فيه وفي طائفة من أمثاله .

وليس رأي المسلمين في صلاح الحاكم بمانع ان تكون اصول الشريعة التي يحكم بها من عند الله ، وكل ما يمنعه ان يعتبر « الحق الإلهي » الذي ادعاه بعض ملوك أوربا وسيلة الى انكار حق الرعية في الشورى والرقابة على الحكومة . وقد أبى الاسلام هذه الدعوى فكانت سنته هذه مزية له بين الاديان .

وقد اوضح الدكتور طه حسين هذا المعنى فقال يرد على القائلين بالثيوقراطية في الاسلام إنهم قد يرون : « ان الحكومة التي كانت تحكم المسلمين في هذا العهد انما كانت تستمد سلطانها من الله ، ومن الله وحده ، ولا ترى ان للناس شأناً في هذا السلطان ولا ترى أن من حقهم ان يشاركوا فيه او يعترضوا عليه او ينكروا منه قليلاً او كثيراً » .

فالواقع ان الاسلام لا يعترف للحاكم بحق إلهي يمنع الناس من حسابه والتعقيب على حكمه ، وهذا الذي فهمناه من كتاب « عثمان » حين رجعنا اليه ، فلا غبار في رأينا عليه .

اما كلمة عمر عن الاموال فقد عقبنا عليها في كتابنا عن « عبقرية عمر » فقلنا : « انه لم يرد في كلامه تفصيل لهذه النية ، ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه ، فعمر على حبه للمساواة بين

الناس كان يفرق أبدا بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السنن الاجتماعية . . ولم تكن المساواة في ادب النفس عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك ان يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ، ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبه : « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق ، فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين » ، وكان يوصي الفقراء والاغنياء معاً ان يتعلموا المهنة ، فانه يوشك ان يحتاج احدهم الى مهنة وان كان مـــن الاغنياء ... فيسوغ لنا ان نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغني وتقسيمه بين ذوي الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمهـــا في وجوه البر والإصلاح .

هذا مجمل رأينا في سؤال الأستاذ الوهاب .

وقد تلقينا كتباً أخرى في هذا السياق يسأل كتابها عن مواطن في كتاب « عثمان » لا نرى حاجة إلى تفسيرها ، لأن انعام النظر في الكتاب نفسه يغني عن ذلك التفسير .

على أننا نعتقد ان الذين يستقبلون كتاب « عثمان » بمثل هذا النقد لم يظلموه كما ظلمه المقرظون له بلسان التزلف والدهان ، فإنهم يقولون فيـــه ما لا يقوله الا عاجز عن التقدير الصحيح ، وهو كاف لإعطاء الكتاب حقه من الثناء .

فهؤلاء العجزة عن التقدير الصحيح يزعمون أن الفتنة الكبرى لم تُبحث على قواعد التاريخ أو على قواعد السنن الطبيعية قبل كتاب « عثمان » .

ومن جرأة الجهل ان يصدر مثل هذا الادعاء في هذه السنوات على التخصيص ، لأن هذه السنوات قد ظهر فيها كتاب يسمى « عبقرية الإمام » ، طبعت منـــه طبعات قبل ظهور كتاب « عثمان » ، وترجم إلى اللغات الشرقية ، وانتشر في جميـــع الأقطار الإسلامية ، وقرأه عشرات الألوف من أقصى المشرق الإسلامي في الهند إلى أقصى المغرب الإسلامي في مراكش وافريقيا .

وفي هذا الكتاب كلام عن الفتنة الكبرى التي برزت في أيام عثام ودامت إلى قيام الدولة الإسلامية .

وقد وصف عصر عثمان فقال : « انه هو العصر الذي تكوّن فيـــه المجتمع

الإسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة ، فبرز فيـــه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها » .

وأحصى الكتاب أسباب التذمر سبباً سبباً ، فقال في مسألة الثروة : « كثر المترفون من جانب وكثر المتربون من جانب آخر ، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء » .

وقـــال عن قلق أبناء الولايات : « ان المتذمرين توافدوا من الولايات إلى المدينة بجندين وغير مجندين ، وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة ».

وقال عن التنافس بين العواصم : « ان التنافس كان على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة ، لا يرضى أهل المدينة بما يرضي أهل مكة ، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضي هؤلاء وهؤلاء » .

وقال عن أثرة قريش : « ان قبائـــل البادية كانت تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة وينظرون اليهم نظرتهم إلى القوي المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة » .

وقال عن طبقات المسخرين : « كان العبيد والموالي والاعراب المحرومون حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الانصاف » .

وقال عن جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة ، «وإنهم خلق كثير يعدون بالألوف ، ويتفرقون في الحواضر والبوادي ولا يزالون كأنبياء بني إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين » .

وقال، إن أبا بكر و عمر كانا يمسكان الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ، وان عثمان اهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه ان يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره .

وقال غير ذلك مما لا يخرج عنه سبب واحد من اسباب الفتنة ، ولخصها كلها في مرجع واحد وهو افتراق عهد الخلافة وعهد الملك ، وان الموقف كان في خلافة عثمان « ملتبساً ، متشابكا ، لأنه كان نصف مُلك ونصف خلافة ، أو

كان نصف زعامة دينية ونصف امارة دنيوية . فوجب أولاً أن يتضح الموقف بينهما وأن يزول الالتباس عن فلَق صريح ، ووجب – وقد زال الألتباس وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان – أن يبلغ الخلاف مداه ، ولن يزال قائماً حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين » .

هذا بعض ما جاء في «عبقرية الإمام» عن اسباب الفتنة الكبرى وبعض ماتردد في صفحات الكتاب كله في تفسير تلك العوارض الاجتماعية .

فمن الجرأة التي لا توصف إلا بأنها جرأة الجهل ، أن يحاول غمر من الأغمار ستر هذه الحقيقة عن الأعين ، وهي تعد بعشرات الألوف .

ونحن لا يعنينا الأمر ، لأنه لا يضير كتابنا عن « عبقرية الإمام » ، فإن « عبقرية الإمام » لايحجبه كلام يلغط به غمر من الأغمار .

ولكننا ننبه إليه ، لان سكوتنا عنه يعد عجيباً جداً في هذا الزمن وفيما بعد هذا الزمن ، ولان قحة الجهل خليقة ان تزجر ، ليتعلم الجهلاء كيف يكتبون حين يريدون الثناء على مؤلف من طراز كتاب « عثمان » .

فهذا الكتاب من مؤلفات العصر التي يستطيع الناقد الخبير ان يثني عليها ولا يقول فيها إلا حقاً ، فإذا لجأ إلى الباطل في الثناء عليه فإنما يسيء إلى نفسه ويسيء إلى الكتاب : يسيء إلى نفسه ، لانه يفضح عجزه ، ويسيء إلى الكتاب ، لانه يرى الناس انه محتاج إلى الباطل ليظفر ببعض الثناء .

لَوْعَادَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلام

من الأماثيل التي تعاد ولا تمل أمثولة الكاتب الروسي « ديستيفسكي » عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصة الأخوة كرامزوف .

وخلاصة الأمثولة ان السيد المسيح عاد إلى الارض وأخذ في وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء عـــلى مكانتهم وأوعزوا إلى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح! وقال له: ان هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين إلى تنفيذ القضاء فيك .

أمثولة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضي في حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث المصلحين والمفسدين .

ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، نكنا يكون مبالغاً لو كان ما تخيله بعيداً أو غريباً في بابه ، ولكنه في الواقع أقرب شيء إلى الاحتمال مع هذه البشرية التي تختلط فيها الشيطانية والخنزيرية والحمارية في وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها والعوبة في أيدي العابثين بها،وان كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه وينتحل هدايته .

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون

العقيرة بهداية الإسلام والإسلام بريء منهم ، وكل ما هنالك مـــن خلاف أن المسألة لا تمر بتلك السهولة التي توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى في الإسلام لمثل عمله ، وانه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، ان كانت سيئاته مما يقبل التكفير .

* * *

واسأل نفسي كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبي عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وما هي المسائل التي يرجعون بهـــا إلى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسي فتخطر لي مسائل خمس يرجع فيها كل إلى شخصه الكريم ويغني جوابه فيها الغناء فلا لجاجة ولا اختلاط ولا حاجة إلى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد في هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هي : مسألة الاحاديث النبوية ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعـد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الإسلام عليها وقول نبي الإسلام فيها .

مسألة الأحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور في جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها واسانيدها، وقـــد جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علماً مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون.

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداولة في الكتب وعلى الالسنة .

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعاً إلى نصابها : «لم أقل هذه الاحاديث» وينتهي القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معها بـــلاء أولئك المحدثين الذين يستندون إلى الحديث الكاذب في التضليل وترويج الاباطيل .

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث في أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئاً من أحكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعاً ولا ضرر في ذلك ولا ضرار .

إلا انها لا تحتمل أقل اختلاف مع وجود النبي الذي تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس إلى تلاوته — في عصر التسجيل — فتلك ذخيرة الابد في ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون في مجالس الذكر الحكيم .

الخلافة والملك

وتأتي مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة

تلك المعضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره في الإسلام حين نذكر السنة والشيعة والاماميين والزيديين والإسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين وأقسام المنقسمين .

بم أوصيت يا رسول الله في أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فإذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فإذا هي بيضاء من غير سوء ، وإذا هي بقية من بقايا الماضي تحال إلى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقى بها حيث لا حس ولا خبر .

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جداً في مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فإن المخالفين للاجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهي خلافهم عما قريب

ولكن إذا انتهى بكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون جميعاً فتلك هي النهاية الفاصلة ، وقد تمنع في المستقبل أضراراً لا يقاس عليها ضررها في الوقت

الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائـــة فلا ينشق منهم واحد .

المذاهب الاجتماعية الحديثة

وما قولك يا رسول الله في دعاة المذاهب العصريـــة من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟..

لا حاجة إلى السؤال عن الديمقراطية ، فإن سابقة الإسلام فيها أصلح مـــن كل سابقة .

ولا حاجة إلى السؤال عن الفاشية فإن الإسلام يمقت الجبارين والمتجبرين .

ولا حاجة إلى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فإنها ملعونة في كل دين .

وإنما يسأل النبي عليه السلام في الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » .. ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منـــه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول .

وتأتي على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوي المدعين في الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين .

ويسمع من النبي عليه السلام في أولئك كله جواب يغني عن ألف جواب أو عن كل جواب .

* * *

ونعود إلى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين .

ان كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقناع العقول أو بسلطان البرهان في الاقناع .

ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينيه أناساً أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس في رائعة النهار .

وليس بالمستحيل عندي أن يعـــاندك المعاند ويكابرك المكابر في « اثنين واثنين يساويان أربعة وفي واحد وواحد يساويان اثنين » .

بل ليس بالمستحيل عندي أن يكابرك المكابرون في معنى الواحد ومعنى الاثنين وان هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الارقام .

فإذا عاد النبي عليه السلام وقضى قضاءه في أحكام الإسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشككك في كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج في العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول .

غير انه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون في الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد في الاولين والآخرين ، فما هو إلا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لا يهتدون ، فلا يصدون أحداً عن الدنيا ولا عن الدين .

الفصل الثاني
رمضان والصيام

ألوان من الصيام

يلاحظ الصوم في الأديان الكتابية الثلاثة : الموسوية والمسيحية والإسلام .

وليس في كتب العهد القديم نص على الصيام في وقت معين غير صيام الكفارة يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من شهر تشرين من السنة العبرية .

وقد استعان العلامة المصري – محمود باشا الفلكي – بذلك على تحقيق التاريخ الهجري بالحساب العلمي الدقيق ، فإن الروايات اتفقت على ان النبي عليه السلام دخل المدينة واليهود فيها صائمون صيام عاشوراء ، فظن بعض المتأخرين انه كان اليوم العاشر من المحرم ، ولكنه ظن ينفيه ان الهجرة كانت في شهر ربيع الاول ، وأن دخول المدينة كان يوم اثنين ، فلما رجع محمود باشا الفلكي إلى التاريخ العبري تبين له ان العاشر من شهر تشرين يوافق يوم اثنين ويقابل العشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وانه هو اليوم العاشر من شهر تشرين سنة ٤٣٨٣ عبرية .

أما أيام الصيام الاخرى عند اليهود فقد اضيفت مع الزمن ولوحظ فيها التكفير والاستغفار في أيام المحن والشدائد ، ومنها يوم هدم الهيكل الاول وهدم الهيكل الثاني ، وغير ذلك أيام أخرى من أيام الهزيمة او الحصار .

والصيام عندهم على درجات ثلاث : يوم كامل ونهار كامل ، ونصف نهار .

فيصومون يوم الكفارة ويوم ذكرى الهيكل من الغروب إلى الغروب ، ويصومون أياماً غير هذين اليومين من مشرق الشمس إلى مغربها ، ويصومون

كثيراً من الشروق إلى الظهر ، وهو صوم نصف النهار ، وكل الصيام عندهم إمساك عن الطعام والشراب .

وقد ورد عن السيد المسيح انه صام أربعين يوماً في البرية ، ولم يرد عنه انه أمر بالصوم في وقت معين ، ولكن الكنائس المسيحية تلاحظ الصيام قبل عيد القيامة خاصة ، وينقسم الصيام إلى امساك عن الطعام كله وامساك عن ألوان معينة كلحوم الحيوان، ومن الصيام ما يبدأ عند منتصف الليل ومنه ما يكتفى فيه بوجبة يومية ، ولا حرج من التدخين، ويترك الخيار للصائم التابع للكنائس الغربية في كثير من الاحوال .

اما الصيام الإسلامي كما هو معلوم فهو الصيام من الفجر إلى مغرب الشمس في كل يوم من أيام شهر رمضان .

وهذه الفريضة هي الفريضة المثلى بين ألوان الصيام الدينية ، لانها تجيء فى شهر معلوم فيشمل العالم الإسلامي كله وتصبح هذه العبادة فيه عبادة فردية وعبادة إنسانية عامة في وقت واحد ، وهى تجيء في شهر قمري يختلف موقعه من فصول السنة ، فلا تقتصر الرياضة النفسية على موسم دون موسم ولا تختص بالصيف دون الشتاء ولا بالشتاء دون الصيف ، ومـا دام المعول في فريضة الصيام من أساسها أن تكون قدرة على ضبط النفس فالأوفق أن تتقرر بموعد محدود والا يملك الصائم إرجاءها مع الكسل والتسويف ايثاراً لوقت على وقت او لحالة على حالة ، فمن ثم يبدو ان صيام شهر رمضان فريضة مثالية بين ألوان الصيام التي اوجبتها الاديان .

ولم تأت فريضة الصيام دفعة واحدة ، بل سار الإسلام فيها على سنته من التدرج والانتقال من طور إلى طور . فكان النبي صلوات الله عليه في رواية السيدة عائشة ، يصوم اليوم العاشر من المحرم ويدعو المسلمين إلى صيامه منذ كان بمكة قبل الهجرة ، ثم فرض صيام شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة ، ووردت الإشارة إلى الصيام مرتين بمعنى السياحة حيث جاء في سورة التوبة : « التائبون العابـدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعرف والناهون عن المنكر » وحيث جاء في سورة التحريم : « عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات

سائحات ثيبات وأبكارا » ورجح القول في التفاسير ان المقصود بالسياحة في الآيتين الصيام ، وهو معنى جميل يدل على حقيقة الصيام الجوهرية وانه سياحة من عالم الجسد إلى عالم الروح ، فلا يكون قصاراه الامساك عن شهوات الجسد ساعات من اليوم ، ولا يزال الغالب عليه انه سمو عن تلك الشهوات كأنها رحلة إلى مكان قصي منه ، وانتقال من مجال إلى مجال .

تشتمل الكرة الارضية على اكثر من ثلثمائة مليون مسلم ، إذا حسبنا المكلفين منهم بلغوا نحو ستين مليوناً من سن الصبا إلى سن الشيخوخة التي تطيق الصيام .

لكننا لا نبالغ إذا قلنا إن الكرة الارضية لا تخلو اليوم من خمسة أضعاف ذلك العدد يلتزمون الصيام طوال العام، ولا يقصرونه على شهر رمضان ولا على الصيام الإسلامي فيه .

لا نبالغ إذا قلنا إن العالم الإنساني يشتمل اليوم على ثلثمائة مليون رجل وامرأة وفتى وفتاة يصومون ألواناً من الصيام ويصبرون عليها شهوراً أو يصبرون عليها طوال العام ، على الدوام .

منهم من يصوم عن الدسم والأطعمة النشوية ، ومنهم من يصوم عن السوائل إلا بمقدار، ومنهم من يقرن الصيام بصلوات جسدية لا تقصد بها الصلاة، ولكنها من باب الصلاة في التزام بعض الحركات بميقات.

ومنهم من يقنع بوجبتين ، ومن يقنع بوجبة واحدة ، ومن يقضي شهراً أو أكثر من شهر على فاكهة معلومة كالبرتقال او العنب او الثمرات المنوعة او عصير بعض هذه الثمرات .

يصومون ولا يقصدون العبادة والاستغفار ، ولكنهم يقصدون الجمال حيناً والصحة حيناً والدربة الرياضية حيناً آخر ، وأشدهم عناء بصيامه وقيامه من « يتعبد » في محراب الجمال .

وكنا قديماً نعلم ان النساء يبدأن بفريضة الصيام بعد الأربعين وانهن يحسبن الصيام والشباب موسمين لا يتلاقيان ، وربما تحرجت الحسناء أن تجهر بالصوم لئلا يقال إنها ناهزت الأربعين ، وانها جاوزت السن التي تنقطع فيها للدنيا وأقبلت على السن التي تذكر فيها الدين، وإن لم تنقطع له طوال السنين.

كانت الحسناء تحسب هذه المخالفة من الدلال الذي يسمح به للحسان ، وقد تحسبه دلالا على الخالق الذي متعها بالنضرة والشباب وإن لم يكن من قبيل الدلال الذي تحمده منها مخلوقات الله ، او تحتمله على كل حال ، وإن لم يكن هين الاحتمال

كان هذا أيام زمان !

اما الزمان الحديث فقد عكس الآية وفرض على الحسناء صياماً لا تبالي به في غير زهرة الشباب .

فهذا الصنف من الطعام ممنوع وهذا الصنف من الشراب غير مامون، وهذه الوجبة توزن بمقدار ، وتلك الوجبة لا تقبل بميزان كائناً ما كان .

وهكذا يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، فإذا حانت سن الأربعين فقد يخشى أن يقال انها يئست من اعجاب العيون وتحيات الألسن وقياس الهندام ، فتمضي الكهلة في صيامها كي تلزمها شبهة الشباب ، ولو لقيت في سبيل هذه الشبهة جهد طاقتها من العذاب .

كان رمضانا واحداً بعد الأربعين فأصبح رمضانا كل شهر ، قبل الأربعين وبعد الأربعين ، ومدى السنين .

وقد دان الرجال بهذه الفريضة كما دان بها النساء، فمن كان يستثقل الصبر عن وجبة او وجبتين ، أصبح العام عنده محتملا بغير مئات الوجبات ، من شتى المأكولات ، المطبوخات وغير المطبوخات ، وهان على ضخامة الجاه ما هان على ضخامة اللحم والشحم ، فصبر الضخام على الجوع والظمأ والسفر ، وصبروا على الاستشفاء لغير مرض ، والتجرع بلا دواء ، وظن أضخمهم مكانا وجثماناً انه ظافر رابح بعد هذا الصبر الطويل ، إذا حسبوه من المهازيل وهبطوا به إلى وزن الريشة بعد الوزن الثقيل .

درس في الأدب .

نعم درس في الأدب لهذه القرون الحديثة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين .. وما سيليه ..

درس لهذه القرون التي بدأت بالسخرية ممن يصومون في سبيل الروح والضمير ، أياماً قد تطول الى شهر ولا تزيد عليه ، فإذا بهم يصومون في سبيل

الجسد ، او في سبيل المظهر الذي فوق الجسد ، شهوراً وسنوات ولا يضمنون القبول ولا ييأسون من الرحمة بعد ذلك ، رحمة الهزال والإعتياء ، ورحمة الاستدواء والاستشفاء .

صيام في مستشفى العلاج طلباً للصحة ، وصيام في ملعب الرياضة طلباً للرشاقة ، وصيام في كل مكان وعلى كل مائدة طلباً للنظرة المعجبة والعين المستحسنة ونزولاً على حكم الأزياء وهي تختلف مع الاذواق والآراء ، كل صيف وشتاء ، إن لم نقل كل صباح ومساء .

بعض التواضع أيها القرن العشرون ..

كان كثيراً عليك ان تعترف بصيام واحد ، فها أنت اليوم تعترف بألوان من الصيام وانواع من العذاب ، تارة في سبيل الأجسام ، وتارة في سبيل الثياب .

درس في الأدب وكذلك تكون الدروس والآداب .

رمضان وليلة القدر[1]

شهر قديم الحرمة في الجاهلية .

وكان من عادتهم أن يصوموا أياماً منـــه يبدأونها أحياناً من منتصف شعبان ، تيمناً بالصيف وتقرباً الى اربابهم ان تجعله موسماً من مواسم الخصب والرغد ، وكانوا يسمونه قديماً بالناتق او الناطل ، من الناقة الناتق اي كثيرة الولادة ، او من الناطل وهو كيل السوائل . ولا تزال كلمة النطل تفيد معنى قريباً من هذا المعنى ، سواء باللغة العربية الفصحى او بالعامية التي تجري على ألسنة السواد .

ومما زعمه بعضهم انه اسم من اسماء الله ، وعللوا بذلك انه كلما ذكر قيل شهر رمضان ، ولم يذكروه فرداً بغير اضافة كما يقولون مثلا « شعبان وصفر والمحرم » وسائر الشهور الاخرى . ويروي صاحب لسان العرب عن مجاهد انه كان يكره ان يجمع رمضان إذ يجمع على وزن جمع المؤنث السالم وعلى اوزان جموع التكسير ، فيقـــال رمضانات ورماضين وأرمضة وارمضاء الى آخره ثم روى صاحب اللسان عن مجاهد انه قال : « بلغني انه اسم من اسماء الله عز وجل » .

ويجوز ان اسمه مشتق من الرمض وهو المطر يأتي قبل الخريف فيجد الارض حارة محترقة . لكن الرأي الغالب انه مشتق من الرمضاء ، وانه كان

---

(١) الهلال يونيه ١٩٥٣

يأتي مع الرمضاء في كل سنة ، لان عرب الجاهلية كانوا يحسبون تاريخهم بسنة قمرية شمسية ، فيضيفون تسعة اشهر كل اربع وعشرين سنة ، او يضيفون سبعة اشهر كل تسع عشرة سنة ، او يضيفون شهراً كل ثلاث سنوات حسب مواقع الشهور ، ويغلب ان يكون هذا الحساب متبعاً في مكة دون البادية ومن يسكنها من الاعراب الذين لا يحسنون الحساب ، ولكنهم يتبعون فيه اهل مكة بجوار الكعبة ، لان شريعة الكعبة هي التي كانت تسن لهم تحريم القتال في شهور من السنة واباحته في سائر الشهور .

وقد بحث العلامة محمود الفلكي رحمه الله هذه المسألة في رسالته التي سماها « نتائج الافهام في تقويم العرب قبل الإسلام » فرجح ان أهل مكة كانوا « يستعملون التاريخ القمري في مدة الخمسين سنة التي قبل الهجرة » ... وإنما كان أصحاب الحساب يتصرفون في التقديم والتأخير ان أرادوا الحرب في الأشهر الحرم أو أرادوا منعها في غير هذه الأشهر وفاقاً لأهوائهم ومنافعهم . ومن هنا كان تحريم الإسلام للنسيء ، لأنهم يحلونه أو يحرمونه كما يشاءون ، ولا يستقيم الأمر على هذا الحساب بعد فرض الصيام والحج في أيام معلومات .

ولم يفرض الصيام في شهر رمضان منذ قيام الدعوة الإسلامية ، بل كان النبي عليه السلام يصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، ثم فرض صيام رمضان كله بعد الهجرة إلى المدينة : « شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِن الهُدَى والفُرْقَانِ فمن شهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ... »

ومن المعلوم ان القرآن الكريم تنزل في ثلاث وعشرين سنة ، فالمقصود إذن على القول الراجح بين المفسرين هو ابتداء النزول ، إذ تواتر ان النبي عليه السلام قد تلقى الوحي أول مرة وهو يتعبد بغار حراء .

ولقد كتب الصيام على المسلمين كما كتب على الأمم من قبلهم : « يَأَيُّهَا الذين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وجاءت في العهد القديم اشارات كثيرة إلى صيام الانبياء وصيام غيرهم من أهل الكتاب ، ففي سفر الخروج أن موسى عليه السلام « كان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء » .

وفي سفر الملوك الأول أن النبي ايليا « سار بقوة تلك الأكلة أربعين نهاراً

وأربعين ليلة إلى جبل حوريب ».

وفي انجيل متى من العهد الجديد ان السيد المسيح صام أربعين يوماً في البرية، وراجع الباحثون العصريون أخبـــار الصيام المحققة فاستدلوا بحادث محافظ كورك – تيرنس ماكسويني – على ان الجسم يحتمل البقاء بغير الطعام أربعة وسبعين يوماً إذا لم ينقطع كل الانقطاع عـــن الشراب، لان المحافظ المذكور أمسك عن الطعام في الثاني عشر مـــن أغسطس وبقي ممسكاً عنه إلى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٠، ولم يغب عن وعيه غير أيام قبيل وفاته، ولم يكن مـــن أصحاب القوة البدنية البالغة، بـــل كان وسطاً بـــين القوي والهزيل.

وفي سنة ١٩٤٢ لجأ أحد الدعاة السلميين إلى الصيام احتجاجاً على تجنيده، فلبث ستة وأربعين يوماً ثم قال الطبيب بمعسكر ماريلاند عند فحصه انه كان على حالة حسنة – جسداً وعقلا – وان كان قد تعرض للجفاف والهزال.

وفي سنة ١٩٤٣ صام « بهانسالي » احد أتباع غاندي واحداً وستين يوماً، ولكن الاطباء عمدوا في الايام الاخيرة إلى اطعامه قسرا بالحقن المغذية وهو مصر على رفض كل طعام.

والانباء متواترة عن صيام الانبياء والنساك على هذا النحو أياماً متوالية، ولكن الصيام الوحيد الذي فرضته الشريعة في العهـــد القديم هو صيام يوم الكفارة، وعقوبة من يخالف هذه الفريضة الموت والقطع من الامة.

ولم يرد في دين من الاديان الكتابية أمر بالانقطاع عـــن الطعام أو الشراب أياماً متواليـــة، بل نهى النبي عليه السلام عن الصوم الوصال، واختار بعض الطوائف المسيحية صياماً عن اللحوم وما إليها اقتداء بالنبي حزقيال حيث جاء في كتابه « خذ لنفسك قمحاً وشعيراً وفولاً وعدساً ودخنا وكرسنة وضعها في وعاء واحد، وطعامك الذي تأكله يكون بالوزن « وتشرب الماء بالكيل » أو اقتداء بالنبي دانيال حيث قال: « وفي تلك الايام أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع» أو اقتداء بالنبي داود إذ يقول حسبما جاء في الترجمة السبعينية: « ركبتاي ضعفتا من الصوم ولحمي تغير من أكل الزيت ».

هذه الانواع المختلفة من الصوم جميعاً كانت معهودة في الامم من قبل ، وكان منهم من يصوم عن أصناف من الطعام ، ومن يصوم عن الطعام والشراب ساعات ، ومن يصوم عنهما من مطلع النجم إلى مطلعه في اليوم التالي ، ومن يصوم عن الكلام إلا أن يكون تسبيحاً اودعاء إلى الله .

أما هذا العصر الذي نحن فيه فانه بدعة العصور قاطبة في أمر الصيام ، لانه أكثر العصور صوماً واقلها صوماً في وقت واحد ، ونوجز فنقول انه اكثر العصور صوماً في طلب الرياضة البدنية وما يشبهها ، وانه أقل العصور صوماً في طلب الرياضة الروحية وما يشبهها ، وانه من أجل ذلك بدعة بين جميع العصور !

ففي العصر الحاضر عرفنا البطل الرياضي الذي يحرم على نفسه طيبات الطعام والشراب ليضمن السبق على اقرانه في مضماره وميدانه .

وفي العصر الحاضر عرفنا الرجل الذي يجود بشحمه ولحمه على مذبح الرشاقة والاناقة ، ولعله لا يجود برطل من لحم الحيوان على مذبح الكرم والإحسان .

وفي العصر الحاضر عرفنا الغانية الحسناء التي تصوم الدهر عن الدسم او الشراب المباح حرصاً على القوام المعتدل والقد النحيف ، ولعلها لا تصوم لحظة واحدة عن اللغو والمحال .

وفي العصر الحاضر عرفنا الذين يصومون احتجاجاً على هذه السياسة او ذلك التدبير ، وعرفنا الذين يصومون عن هذا الصنف او ذاك من اللحوم يومين او ثلاثة أيام كل اسبوع ، خوفاً على الصنف من النفاد السريع .

وفي العصر الحاضر عرفنا الذين يقضون الايام والاسابيع على عصير الفاكهة او ماء الخضر او ما شابه هذا وذاك من الغذاء القليل ، لانهم عرفوا دواء الجوع وما لا يغني من جوع .

عرفنا أنواع الصيام جميعاً في العصر الحاضر إيماناً بالجسد ، وقلما عرفنا نوعاً من الصيام إيماناً بالروح .

بل عرفنا أناساً يصومون شهر رمضان ليجمعوا بين الصوم والنوم، ويحسبوا الليل كله سحوراً من مطلع النجم إلى مطلع النهار .

وعرفنا من يسهرون ليله ليرصدوا ليلة القدر ، ولا يفهمون من ليلة القدر إلا انها — باصطلاح هذا العصر — موعد العرائض والطلبات التي تجاب !

وان ليلة القدر لخير من الف شهر كما جاء في القرآن الكريم ، ولكنها لم تكن خيراً من الف شهر لانها « فرصة » او أكازيون ، كما نقول ايضاً باصطلاح هذه الايام ! وإنما كانت خيراً من الف شهر لانها فاتحة عهد جديد في تاريخ الضمير ، هدى للناس وبينات .

ومنهم من لا يرقب موعداً من العمر كما يرقب موعدها : فلعلها في السابع والعشرين من رمضان ولعلها في لياليه السبع الاخريات ، ولعلها خفيت لكي يحيي من يريدها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها ، ولعلها مما نشير اليه ولا نحصيه .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله : « سميت ليلة القدر اما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه ، أو بمعنى العظمة والشرف من قولهم فلان له قدر أي له شرف وعظمة ، لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة . ثم قال انها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يتخبطون في ظلمات الضلال ، فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى ... »

وقد أصاب الاستاذ الإمام رحمه الله ،فما من ليلة تساوي ألف شهر في تقويم السماء لأننا نجمع فيها ما لم نجمعه في ثمانين سنة من أرباح المطامع وعروض الحطام ، ولكنها تزيد على ألف شهر لأنها هداية العمر كله ، وقلما يزيد العمر على تلك الشهور .

أما في تقويم عصرنا هذا فخير الزمان ما اجتمع فيه الهيل والهيلمان ، وكل صيام مأثور فهو رياضة أبدان ، وكتب الله السلامة لشهر رمضان !

ولعلها آية من آيات العصر يدركها الذاكرون فيما يلي من العصور .

ولعلها آية لهذا العصر أن يصل إلى الروح من طريق الجسد ، وان يبلغ النهاية من هنا ليدرك النهاية من هناك .

لقد علمنا من عصر الذرة ان الاجسام كلها نور .

وقد نعلم من عصر الذرة ان رياضة الجسد سبيل إلى رياضة الضمير ، وان العصر الذي عرف من ضروب الصيام أشكالاً وألواناً ، سيعرف بعد حين خير ما في هذه الاشكال والالوان .

ليلة القدر

ليلة القدر خير من ألف شهر .

والمتفق عليه بين جلة المفسرين أن ليلة القدر شرفت بهذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم — كعادتهم في تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والاخبار القرآنية — يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة . إذ يجوز ان يكون المقصود به ابتداء النزول ، كما يجوز ان يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة ، ويشير القرطبي وابن كثير إلى قول القائلين ان ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالي التي تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين او أكثر من عشرين ليلة على هـذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ بـه الكثيرون وان اخذوا بتعدد الليالي التي تنزلت فيها آيات الكتاب .

والمفسرون الذين يحققون ان ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرجحون انها احدى لياليه العشر الاخيرات ، وانها على الارجح ليلة السابع والعشرين منه لأسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى ان نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله في ليلة القدر ، يعززون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهاراً ، ولم يكن في ليلة من الليالي . لانه من المتواتر ان النبي عليه السلام خوطب بأول آية

(١) الهلال مارس ١٩٦١

كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له : « إقرأ » فقال : ما انا بقاريء ، إلى آخر ما ورد في الحديث المشهور ، ولكن الامر الذي لا خلاف فيه ان سورة العلق التي افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الإشارة إلى الامور التي حدثت كما قال الاستاذ الإمام « بعد شيوع خبر البعثة وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لايذائه عليه السلام » .

فلا خلاف على وجه من الوجوه في تشريف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة او جملة واحدة، وان حكمتها الكبرى انها هي ليلة الفرقان كما جاء في سورة الدخان : « انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم » .

فهي ليلة القدر لانها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والامر بالدعوة والتكليف،وهو أشرف ما يشرف به الإنسان لانه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات ، ومن اجل هذا فضل على الملائكة لانها لا تتعرض لما يتعرض له الإنسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول إلى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحي المكلف المسئول ، وقد افتتحت دعوة محمد عليه السلام بالامر بالقراءة ، واقترن تميز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء في وصف الخليقة من الكتاب المبين : « هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ، وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ ، فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » .

وقد جاء وصف الإنسان بهذه المزية بعد الامر بالقراءة في اول آية خوطب بها عليه السلام : « إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وهكذا ينبغي أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذي خص به الإنسان ، ومعنى الامر الحكيم الذي يفرق في ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم .

فالشرف الذي فضلت به ليلة القدر ، إنما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان ، وشرف التكليف الذي رفع به الإنسان إلى منزلة أشرف المخلوقات ، وحق عليه أن يذكره لانه محاسب عليه ، فيذكر في كل يوم وليلة انه مسئول عما يفعل ، وانه مشرف بين الخلائق جميعاً لانه مناط السؤال والحساب .

وعلى هذا المعنى وحده ينبغي ان نفهم التقدير الذي يرتبط بنزول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذي يفرق به كل أمر حكيم .

ومن حقائق البداهة التي يدين بها المؤمن بالله انه سبحانه وتعالى يقدر الاقدار ويقسم الارزاق ، ويحيي ويميت ، ويجري قضاءه في صروف الحوادث وأطوار الحياة والاحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالي الزمن أمر لا يقول به المؤمن بالإله الواحد السرمد الذي لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم وإنما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا الاديان التي كانت تعدد الارباب وتخص كل رب منها بوقته وسمائه ، او تشبهه بما يشبه الإنسان من أعمال اصحاب التصريف والسلطان من بني نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس أياماً تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الافلاك، ويستنزلها العارفون بأسرار النجوم عندهم توسلا اليها بشفاعة القرابين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير في احدى ليالي السنة، وسرت إلى بني إسرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والارباب الارضية أو الفلكية في أرض بابل فأخذت سبيلها مع سائر الخرافات والإسرائيليات إلى عامة المسلمين،فظهرت في تلك الاساطير التي احاطت بأخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذي يتصل به شرف الإنسان وشرف التمييز والتكليف إلى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الإسلام في جملته ، لانه يرتهن السعادة والشقاء والمثوبة والجزاء بغير الاعمال والمقاصد ويعود بها إلى أرصاد الليالي والايام ورموز الشفاعات والقرابين .

كان قدماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويبتهلون إلى أربابهم في مطلعها ان يغدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثراء ، لاعتقادهم ان ارباب النجوم تقضي في الليلة الاولى من مطلع السنة كل ما يقضى من أمور الخصب والجدب والرزق والحرمان والحياة والموت ، وكان من عقائدهم ان للأعمار شجرة تخضر أوراقها او تذبل مع اخضرار الشجر على الارض وذبوله ، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضي عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا ان اخضرار الورقة وذبولها مرتهنان بمراسم الصلاة وطلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من أجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات .

وقد نقل الإسرائيليون كل ذلك إلى عيد من اعيادهم التي اختلطت فيها عبادة الإله بعبادة الارباب الوثنية ثم تسربت منهم إلى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب ان القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا إلى ليلة القدر اكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند البابليين ومراسم التكفير عند كهان إسرائيل .

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر إلى منتصف شهر شعبان، مع وضوح نسبتها إلى شهر الصيام في القرآن الكريم ، إنما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية ، إذ كان شهر شعبان إنما سمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في روايات الجاهلية ، فهو أشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من « انشعاب » الاعمار بين الاخضرار والذبول .

لكنه في الواقع « انشعاب » آخر بين العقائد الإسلامية في صميمها وبين العقائد التي تخلفت عن عبادة الاوثان والارباب من دون الله .

فالعقيدة الإسلامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التكليف والتمييز ، وفي المخلوق العاقل المسئول الذي يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء او الغفران من عمل غيره ، وهنا تنشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين أشباه هذه الليالي في كل شريعة يناط فيها قدر الإنسان بغير الاعمال والنيات.

وان المسلم ليعود إلى إسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر انها ليلة فرقان وحساب ، وانه يدعو الله فيها ليشرف بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير .

شهر الصيام

شهر الصوم قديم في تاريخ الإسلام ، والصوم نفسه أقدم من الإسلام وأقدم من الأديان الكتابية الثلاثة ، وقد يقصد في التقدير من يقول انه سبق الديانة الموسوية بيومين ، وان اليوم بمقدار ألف سنة مما تعدون .

وننوي بحمد الله ان نصاحب الشهور في أحاديث الجمعة بما يجريه في الخاطر او يرده إلى الذاكرة من غرائب الماضي ومستحدثات الحاضر ، واولها اقتراح على الماكينات والآلات بالصيام !

منذ خمسة وعشرين قرناً ذهب يونس عليه السلام نذيراً إلى أهل نينوى العظيمة لله .

ولم تكن عظيمة لله لأنها تطيع الله وتعمل بأوامره ووصاياه ، إذ كانت في الحقيقة أطغى المدن القديمة كما وصفها أنبياؤها ، وكان غناها سبباً لطغيانها ، وطغيانها سبباً لغناها ، فإنما اجتمعت لها الثروة التي لا مثيل لها من أسلاب المقهورين والمسخرين ، وكانت كل لبنة في قصر من قصورها تقوّم بحياة عبد مظلوم او بحياة جملة من العبيد المظلومين .

ولكنها سميت بالعظيمة لله على حد التعبير المعروف في اللغة العبرانية ، حيث يراد الارتفاع بالوصف إلى أقصى مداه ، ومنه جبال الله وأرز الله كما جاء في المزامير .

وقد كانوا يقدرون طول المدينة وعرضها بمسيرة الأميال لا بالخطوات والغلوات ، وقيل في طولها مع ضواحيها انه مسيرة ثلاثة أيام .

فلما توسط يونس عليه السلام تلك المدينة العظيمة بعد مسيرة يوم ، تجمع إليه الخلق واستمعوا إلى نذيره ، وقد أنذرهم ان تنقض المدينة على من فيها إذا هي أصمت مسامعها عن النذر الإلهية ، وأولها نذيره المرهوب ، وكفى به نذيراً أوقع الهلع في قلوب الرعية والرعاة ، وترددت انباؤه بعد قليل في جنبات القصور ، فارتاع له الملك والعظماء .

وجاء في سفر يونان – او يونس – من العهد القديم . ان اهل نينوى آمنوا بالله وتنادوا إلى الصوم ولبسوا المسوح الغلاظ ، وقيل في المدينة « عن امر الملك وعظمائه » : « لا تذق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً، لا ترع ولا تشرب ماء ، وليتغط الناس والبهائم بالمسوح ... ويرجعوا عن الظلم » .

وفسر المفسرون امر الملك والعظماء ان تصوم البهائم وتتغطى بالمسوح قائلين : « ان المدينة إذا انقلبت فإنما تنقلب على البهائم كما تنقلب على الناس ، وإن الله لا يعجل بعقاب المدينة التي تحتوي فيمن تحتوي مائة وعشرين الفاً لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم لأنهم اطفال صغار ، ومعهم مئات الألوف لا يعرفون أيمانهم من شمائلهم كذلك ، لانهم عجماوات » .

وصيام العجماوات هو بيت القصيد .

فلماذا لا تصوم الماكينات والآلات في العصر الحديث ؟ غالى بعض المجددين في الشعر فوضعوا قطار الحديد ازاء قطار الابل ، وشهدوا للاقدمين بالفضل لأنهم وصفوا الناقة بألف قصيدة ولم نصف نحن القطار ولا الطيارة ببعض ما وصفوه .

لكننا لا نغالي إذا وضعنا الماكينات والآلات ازاء الخيل والجمال والبغال فيما تصنعه للانسان وما يسخرها له من خيره وشره ، فهي إذا صامت عن بعض ما تصنع في العصر الحديث فقد يجدي صيامها بعض الجدوى وقد ينجو الإنسان في المغرب والمشرق من شر كثير ، وقد يكون صيامها نفسه هو توبة الندم التي يتبعها الغفران،وكم في الأرض من نينوى، يسكنها الألوف وألوف الألوف ممن لا يفرقون بين اليمين والشمال ، لا لانهم عجماوات ولا لأنهم اطفال ، ولكن لأنهم في حال شر من حال العجماوات والأطفال ؟

لتصم ماكينات القذائف والنفاثات ، ولتصم ماكينات الفضول والنوافل ،

ولتصم كل ماكينة تزيد حاجة الإنسان ولا تغنيه عن حاجة إلا فتحت له ابواب حاجات .

لتصم هذه الماكينات ولا تأكل ناراً ولا دخانا بضعة ايام ولينظر الناس كيف يصبحون على سبيل التجربة إذا صامت الماكينات !

قيل ان الماكينات تضاعف صناعة الغذاء وتضاعف صناعة الكساء ، وقيل انها تضاعف صناعة السلاح وتضاعف صناعة البناء ، وصح ما قالوا في كثير ، وصح كذلك ان جياع اليوم أكثر من جياع الأمس ، وان خوف العدوان في عصر السلاح المضاعف والبناء المسلح أكبر من خوفه يوم لم يكن سلاح كسلاح العصر الحديث ، ولم يكن بناء مسند بالحجر والحديد .

فلماذا لا تصوم الماكينات ؟ ولماذا لا نجرب صيامها ولو في بعض الأوقات ؟

شهر في السنة على سبيل التجربة فإن طال الشهر على عبيد الماكينات فليكن الصيام الأول أسبوعاً واحداً لا تدور فيه ماكينة ولا يعمل فيه بخار ولا كهرباء ، ثم ننتظر ما يكون ، ولن يكون أسوأ مما هو كائن ومما يخشى غداً ان يكون .

يقول حكيم من حكماء العصر : اننا لو أصبحنا ذات يوم وقد صغر الكون كله إلى مقدار البندقة لما أدرك الناس فرقاً بين ما كانوا فيه وما صاروا اليه ، لأن مقاييسهم تصغر كما صغروا ومسافاتهم تصغر كما تصغر المقاييس ، ومن كان يتعب حين يمشي ميلين فإنه سيتعب غداً حين يمشي مقدار شعرتين . ومن كان يقيس نينوى بمسيرة ثلاثة أيام ، سيقيسها كذلك بمسيرة ثلاثة أيام لا تنقص ساعة واحدة ، لأن الشمس وكواكبها صغرت معنا كما صغرنا معها ، فلم تتغير الأيام والساعات ولم تختلف الأفلاك والمدارات .

كذلك يكون الامر إذا أصبح الكون كله في حجم البندقة . فهل يكون غير ذلك إذا ضربنا « النوبة » ونفخنا في البوق وأومأنا للأتون في قلب الباخرة ان يصبح شراعاً وللماكينة الطاحنة ان تصبح رحى ، وللمصنع الدوار ان يصطنع الاناة في المدار بالليل والنهار ؟

مستحيل !.. حسن ان كان لابد من استحسان ، فتمتعوا ما شئتم إذن

بالممكنات وبالماكينات ، ولعلها سائرة بنا جميعاً إلى حالة لا تستحيل ، لانهـــا آخر الحالات .

على انه بالتجربة المحسوسة لم يكن بالمستحيل كما يزعمون ، فقد صام أناس وصامت ماكينات فصنعوا العجائب وصنعت المعجزات ، ولا يزال خبرها في الآذان وأثرها في مشاهدات العيان .

صام غاندي وصوّم معه الماكينة الجهنمية التي تأكل النار وتنفث الدخان .

وكانت معجزة الماكينـــة الصائمة أعجب من معجزة القديس الصائم ، فاعتصمت الهند بالمغزل ، واعتصمت بريطانيا العظمى بتلك الماكينات لله كما تقول البلاغـــة العبرية ، وما كانت لله ولا للقديسين ، إلا ان يكون القديس جورج الراكب على صفحة الدينار .

* * *

صام غاندي واعتصم بالمغزل ،فلم يكن صيامه ولا صيام ماكيناته بالمستحيل ، وإنمـــا كان هو المعجزة التي صنعت المستحيل ، وارتفعت صورة المغزل شعاراً لراية لم ترتفع قط منذ ثلاثة قرون .

فإذا كان صيام الماكينات جملة واحدة عسيراً كل العسر او بعض العسر ، فليكن صيامها أقساطاً منجّمة على حسب الحوادث ، ولننظر بعد ذلك كيف يتيسر العسير ويتحول المستحيل .

لقد كانت في بهائم نينوى حكمة . وعزيز على حكمة الناس أن تحكيها اليوم ، لأنهم ماكينات تجري وراء ماكينات ، ويأكلون النار كما يأكلها الحديد الدوار .

فيلسوفٌ وقدّيس

يعظان ذوات الأربع والجناحين !

لما كتبنا عن صيام أهل نينوى واشراكهم أنعامهم معهم في الصيام ولبس المسوح ، كتب الينا سائل يسأل : هل كانت شريعة من الشرائـــع تلزم البهائم التـكاليف والفرائض وتوجب عليها التكفير عن الذنوب ؟ ثم استطرد ، ولعله استطرد مازحاً ، فسأل : أليس من الاكرام للبهيم الأعجم أن يعامل معامـــلة الإنسان ؟..

والمسألة فيا نرى لم تكن مسألة تـكليف او تكفير ، فكل ما هنالك انها مراسم حداد في الزمن القديم اشتركت فيهـــا جميـع الأمم ولا تزال في العصر الحديث تشترك فيها على صورة من الصور .

فقد روت ملاحم اليونان انهم كانوا يحلقون شعر الخيل ويجللونها بشارات الحداد في جنازة ايطاليا ، ورأينـــا ولا نزال نرى في العصر الحديث مراسم الحداد يشترك فيها فرس الجندي المشيـع إلى مرقده الأخير ، وربما صدف الناس عن الطعام وهم محزونون مغمومون فلم يخطر لهم ان يجوعوا ويقدموا العلف بأيديهم إلى مطاياهم وانعامهم ، فيدركها الحزن والصيام على هذه الصورة وهي لا تعقل ما يفعلون ، وقلما يعقل الناس انفسهم ما يفعلون وهم محزونون او مغمومون .

على ان السائل الحريص على اكرام الحيوان الأعجم يستطيـع ان يطمئن ، ولو بعض الاطمئنان إلى حسن رأي الأقدمين من هذه الناحية ، فلم تخل العصور

الأولى من فيلسوف يحسن الظن بالطير والعجماوات فيسوق إليها دروسه وعظاته وهي من أعضل ما تعالجه العقول .

ذلك هو « الحكيم » فيثاغوراس .

ولم تخل العصور الوسطى من قديس جليل الشأن يخاطب الطير ويدعوها إلى الإيمان ويذكرها برحمة الله ونعمائه ، وما أسبغه عليها خاصة من بره وسخائه .

وذلك هو القديس فرنسيس الذي تنتمي إليه طائفة « الفرنسيسكان » .

كان الفيلسوف فيثاغوراس «منطقياً» مع نفسه كما يقولون في تعبيرات الغربيين، لانه كان يعتقد تناسخ الأرواح ويحسب ان النفوس البشرية تركب في اجساد الناس عقابا لها على شرورها وجهالتها — فهي إذن احوج ما تكون إلى العظة والتذكير .

وكان منطقياً مع نفسه لأنه كان يحرم أكل الحيوان ويقول ان أكل الحيوان وأكل الإنسان على هذا الاعتبار يستويان .

وكان من عجائبه انه — مع تحريمه أكل الحيوان — يحرم أكل الفول ويحسبه من اغلظ المحرّمات.

ونعود فنقول : لعله في هذا « منطقي » مع نفسه كذلك ، لأنه يترك للحيوان طعامه غير منازع فيه ، ويدخر له خير ما يأكل من الحبوب ، وعنده غير الفول كثير من طعام النبات .

وقبل ان يخطر لمن يجهل الرجل أن يتهمه بالبلاهة والعته نعجل فنقول : ان فيثاغوراس كان عبقري القرون الأولى في العلوم الرياضية وان العالم لم يعرف بداهة أصدق من بداهته في تعليل الأصول واستكناه أسرار الوجود ، وحسبه على الزمن انه هو القائل ان الموجودات كلها عدد وانه لا شيء من المادة التي نحسها في الأرضين والسماوات إلا وهو عدد في عدد ، ومن استصغر هذه البداهة الملهمة فليذكر انها سبقت عصر الكهارب والذرات بنيف وعشرين قرنا وان الكهارب والذرات هي مصداق ما قال في ذلك الزمن السحيق ، إذ لا محصل للمادة في أصولها عند أحدث المحدثين من علماء الطبيعة إلا أنها عدد من الموجات والهزات تختلف نسبتها فتختلف عناصرها ، ولا يعلم أحد كم منها في الزمن وكم منها في

المكان ، ولا ينحصر لها كيان واحد مرتين على حال .

ومضت قرون وقرون ثم ظهر في العالم رجل يخاطب الحيوان بلسان الإيمان، بعد هذا الرجل الذي خاطبها قديماً بلسان الفلسفة والأخلاق .

ذلك هو جيوفاني الذي اشتهر باسم « فرانسوا الأسيسي » وآثر عيشة النسك وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ويملك من المال ما لم يملكه كثير من أمراء زمانه ، ويعرف عن فنون اللهو ما لم يعرفوه .

ولد قبل نهاية القرن الثاني عشر « ١١٨٢ » ونذر نفسه للعبادة سنة سبع ومائتين ، وحضر الحروب الصليبية فكان له رأي فيها يوائم دعوته إلى السلم والاخاء . وجملة الرأي ان يتخلى عن الحملة رجال السيف ويتركوها لرجال المسبحة والصومعة ، وعمل بما دعا إليه فحضر إلى مصر ولقي السلطان الكامل ، ودار بينهما حوار عجيب كان السلطان اللبيب الأريب يبتسم وهو يصغي إليه ، ثم أباحه من الحرية له ولتلاميذه ومريديه ما لم تدركه الجيوش بجوار السيوف .

قال تلميذه الذي كتب ترجمة حياته : « ولما اقترب من بيفانيا وصل إلى بقعة تزاحم فيها الطير من جميع الانواع ، فهرول إليها حين رآها وحياها كأنها تفهم كما يفهم الناس ، وانتظرته الطير من جانبها تحنو برؤوسها عليه وهي على أغصانها كلما اقترب منها ، وتنظر إليه نظرات لم تعهد من أمثالها ، ثم توسطها وتوسل إليها ان تستمع منه إلى كلمة الله قائلا بحق يا اخواني الطيور ينبغي لكم ان تسبحوا بحمد خالقكم الذي كساكم ريشاً وجعل لكم اجنحة تطيرون بها وبسط لكم الهواء الطهور وشملكم بعنايته ورحمته وانتم لا تفكرون في انفسكم .

قال صاحب السيرة : « وبينما كان يخاطبهم بهذه الكلمات ونظائرها كانت تلك الخلائق الصغار تسلك حوله مسالك عجباً فتمد إليه اعناقها وتنشر اجنحتها وتفتح مناقيرها وتطيل التأمل فيه ، وكان هو في نشوة الروح يقبل بينها ويدبر ويمسحها بثيابه فلا تبرح مكانها حتى باركها وأذن لها فانصرفت جميعاً ووقف اصحابه ينظرون إلى هذه الاشياء وينتظرون ، وجاءهم الرجل الطيب المقدس وهو يلوم نفسه لانه غفل عن وعظ الطير قبل ذاك .

ويظهر ان سنة الطير في حب السماع والإصغاء الى المواعظ والوصايا كسنة أبناء آدم . فليست كلها تحسن ان تسمع وان تستغني عن التنبيه الى السكوت.

وحفظ النظام ، فقد وصل القديس الى القرية الاخرى – قرية الفيانو – واقبل علـــى جماهير المرحبين به يتحدث اليهم فلم يستطع ان يسمعهم ولم يستطيعوا ان يسمعوه ، وراحت العصافير تزقزق من حولهم وتصيح ولا تهدأ لمحة عين عن الزقزقة والصياح ، فناداها على مسمع من الحاضرين جميعاً وأهاب بها قائلا : «اخواني العصافير : لقد حان لي ان أتـكلم انا أيضاً كما تـكلمت انت واستوفيت حظك من الكلام ، فاستمعي الى كلمة الله والزمي الصمت حتى نفرغ من الدعاء» .. وكأنما رزقت ساعتها الفهم والعلم فلاذت على الاثر بالصمت واستقرت في اماكنها لا تتحرك حتى فرغ الدعاء .

وانتقل السر مـــن القديس الى تلاميذه ومريديـــه فتكررت الكرامة في مدينة بارما على لسان معلم يقلقه عصفور لا يني حوله يزقزق ويطير ، فالتفت المعلم الى جمع من رفاقه وقال لهم : « لعل هذا العصفور واحد من ذلك السّرب الذي ازعج رجل الله وهو يلقي عظاته على سامعيه حتى امره بالسكوت ، ثم أومأ الى ذلك العصفور وناداه في ثقة وايمان ، باسم فرنسيس خادم الله آمرك ان تأتي هنا وتكف عن الزقزقة » .. فما سمع العصفور اسم فرنسيس حتى صمت كأنه يتلقى الإلهام من رجل الله ، وتقدم إلى يد المعلم كأنه يتقدم الى عش امين .

كذلك كانت الطيور والعجماوات في رأي الفيلسوف الحكيم وفي رأي القديس الطيب الكريم ، فماذا يرى السائل الحريص على كرامة الطير والحيوان ؟ هل يكلفها تكليف الإنسان او يحاسبها حساب الصالحين والخاطئين ؟

لو كانت الطيور كلها على تلك الصفة التي وصفها تلميذ القديس لو جبت عليها التكاليف وحق عليها الحساب ولحقت بها كرامة بني آدم ، ولحقت هي بتلك الكرامة .. !

فهل كل الطيور كتلك الطير ؟

وما لنا وللطيور نسأل عنها وعن تكاليفها وكراماتها ؟ هل كل بني آدم مكلفون ، وهل كلهم على تكليفهم امناء مخلصون ؟

من الكرامة للطير والحيوان ان تلتزم تكاليف الإنسان ، ولكنها مظلومة حين تؤخذ بواجب الإنسان ولا تستمتع بحق الإنسان ، فمن نهض بتكليف الراشدين فعليه فرائضهم وله حقوقهم وعنده مقدرتهم لم يكن كذلك

فهو مظلوم حين يشقى بما عليه ولا ينعم بما له في حوزه يديه ! ولا ندري ماذا تؤثر الطيور والعجماوات لنفسها اذا استشارها المشيرون في امرها ؟

ان عقلت كانت كبني آدم ، وان لم تعقل كانت كما هي في جهلها وعجمتها وعجزها عن التكاليف والحقوق ، وتلك هي الحيرة في امر هذه الخلائق التي لا يفهمها كل الناس كما فهمها ذلك الفيلسوف وكما فهمت هي ذلك القديس .

والمخرج من هذه الحيرة على ما نرى ان نتأنى ونتريث بين امسنا ويومنا ، فلا نعطي جديداً قبل ان نعرف حساب القديم ، ولا نطلب من خزائن القدر تكليفاً للطير والعجماوات قبل ان نؤدي للقدر حساب التكاليف التي وزعت في آلاف السنين على بني الإنسان !

ماذا صنع الآدميون في امانتهم؟

صه .. ولا حاجة هنا الى معجزة القديسين . ليسكت من يأبى السكوت عن السؤال والجواب ، فلو اننا راجعنا حساب الامانة الإنسانية لكان الخوف الاكبر ان نسقط عن الإنسان تكاليفه ونسلبه حقوقه وسلطانه على المخلوقات ، ولم تكن الحيرة الكبرى ان نشرك الطير والحيوان في أمانة ذلك الإنسان .

والله يصلح من شأن فيثاغوراس وفرنسيس ، ماذا صنعنا بعظات «العقلاء» حتى يتسع الرجاء لهما بعدها في عظات من لا يعقلون ؟

الجُمُعَةُ السَّعِيدَة

نعم ، وقد سمعت الدليل على ذلك من أفواه العامة قبل أن أقرأه في كتب الأدب أو كتب البلاغة ، وأحسب المثل الذي يسوقه العامة للدلالة على السعد الذي يجلبه اللفظ مثلا نادراً يطلبه البلغاء فلا يظفرون بما هو أبلغ منه في هذه الدلالة .

قالوا إن ملكاً من ملوك الزمن القديم — أولئك الملوك الذين يجزون على الكلمة بخزائن المال او بقطع الرقاب — رأى مناماً أقلقه فأرسل في طلب المنجمين يعرضه عليهم ويطلب منهم تفسيره ، فإذا بأحدهم يفسره للملك تفسيراً يرسله إلى السجان وقيل إلى السياف ، وإذا بالآخر يفسره له تفسيراً يغدق عليه بالأموال والهدايا ويقف عليه وظيفة التنجيم وتأويل الأحلام مدى الحياة .

والتفسيران معنى واحد لا يختلف بينهما غير « اللفظ » او النطق ، وهو سعد عند إنسان ، ونحس عند إنسان ، حتى في زمرة المنجمين الذين يعملون في صناعة السعود والنحوس .

قال أحد المنجمين وقد وجم واضطرب وغارت عيناه وارتجفت شفتاه : يلهمك الله الصبر أيها الملك العظيم !

قال الملك : ماذا ؟ هل من شر تراه في المنام ؟

قال المنجم : شرّ عظيم يا مولاي يموت أهلك وصحبك جميعاً . وتموت انت في أثرهم ، ولا مرد لقضاء الله .

وقال المنجم الآخر وقد تهلل وجهه ولمعت عيناه وافترت شفتاه : بشرى يا مولاي الملك المعظم !

قال الملك : ماذا ؟ هل من خير تراه في المنام ؟

قال المنجم : كل الخير يا مولاي انك أطول أهلك وصحبك عمراً ، والله يطيل بقاءك وبقاء ذويك الاعزاء .

ماذا قال المنجم الأول ، وماذا قال المنجم الثاني ؟

إنهما قالا شيئاً واحداً بعبارتين مختلفتين ، فكانت عبارة الأول شؤماً يستحق عليه النقمة والحرمان : وكانت عبارة الثاني بشارة يستحق عليها الرضى والثواب .

واللفظ سعد كما قيل ، والسعد والنحس قدران مقدوران .

ولم تكن المناسبة التالية مناماً يفسره المنجمون ، ولكنها كانت توديعا لشهر رمضان يختلف فيه اللفظ اختلاف النقيضين ، وهما شيء واحد حين ننظر من ورائهما إلى اللباب .

يودع المصلون شهر رمضان في لياليه الأخيرة بترتيل حزين يبكي بعض العيون ، ولا سيما عيون الأطفال من ذوي الحس المرهف والخيال السريع .

ويهتف الهاتفون بعد كل ترتيل : لا أوحش الله منك يا شهر الحسنات ، لا أوحش الله منك يا شهر الخيرات لا أوحش الله منك يا شهر الرضوان ..؟

ولا أعلم في العواصم الكبرى كيف يستمع الصغار إلى الترتيل الحزين ، ولكني رأيت في الريف كثيراً منهم يبكون حين يستمعون اليه ، وفي مناسبة من هذه المناسبات سمعت دليلا آخر على سعد اللفظ ونحسه ، او على اختلاف التعبير حسب اختلاف الضمير .

كان قريب لنا يصحب طفله الصغير والطفل دامع العينين ، فرأيناهما في جمع من الأقارب والأصحاب وقال أحدنا ملاطفاً للطفل الصغير : ماذا يبكيك يا عماه ؟ !

قال أبوه مبتسما : انه يبكي حزناً على رمضان ؟ !

قال صاحبنا ملاطفاً مواسياً : يا شيخ .. رمضان فراقه عيد .. فما الذي يبكيك يا فتاي ! ؟

قال أحد السامعين : بل قل ختامه عيد .. ولا تقل فراقه عيد فذلك أكرم للضيف الراحل ، وكلاهما بعد سواء .

نعم .. ان الذي يقال فيه ان فراقه عيد ، كالذي يقال فيه ان ختامه عيد ، ولكن العبارتين على اتفاقهما في النتيجة تعبران عن شعورين متناقضين : احدهما يضيق ذرعاً برمضان ، والآخر يشكره ويفرح به وبختامه كما يفرح الإنسان بتمام الخير الى غايته ومنتهاه .

فراقه عيد فهو والعيد لا يجتمعان .

ختامه عيد فهو الطريق الى العيد ، ولا وصول الى العيد من غير هذا الطريق .

واللفظ سعد كما قيل ، او هو من الأسرار ، يستطيع من شاء ان يسوق به السعد او يسوق به النحس ، وهو السعيد بما يقتدر عليه .

وهذه الجمعة التي نصبح صباحها اليوم ، ما بالهم يسمونها الجمعة اليتيمة ولا يسمونها الجمعة السعيدة ، او الجمعة المباركة ، او جمعة الفأل والبشارة ؟

انها يتيمة بالنظر الى ما قبلها لأنها تلحق بالجمع ولا تلحق بها جمعة في شهر رمضان .

ولكن ما بالهم لا ينظرون الى ما بعدها ، ولا يتطلعون الى العيد من ورائها؟

ان النظر الى ما قبلها يخرج بها جمعة يتيمة ، وان النظر الى ما بعدها يخرج بها جمعة سعيدة ، فليس بعدها غير العيد ..

وهكذا تختلف النظرة كما يختلف اللفظ ، فيختلف الاسم بين اليتم والسعادة ، وهما بعيد من بعيد .

احسب ان هذه التسمية مصرية بدأت في بلادنا وسرت الينا من جمعة الآلام التي يحتفل بها اخواننا المسيحيون ، فأصبحت الجمعة اليتيمة مرادفة لجمعة الآلام من حيث لا مشابهة ولا مقاربة ، وإنما تتفق جمعة الآلام في ختام الصيام وتتفق الجمعة اليتيمة كذلك في ختام الصيام ، وتمضي التسمية مع الزمن عفو اللسان ، بغير التفات الى معنى الجمعتين ، وليس بينهما مشابهة ولا مقاربة في الغرض المقصود بالإحياء والاحتفال .

فجمعة الآلام تحيي ذكرى الآلام التي لقيها المسيح صلوات الله عليه ، وليس

في شهر رمضان ذكرى كتلك الذكرى ، بل هو شهر التمام في الإسلام ، او هو الشهر الذي انزل فيه القرآن الكريم .

فراقه عيد ، او ختامه عيد .

وهي جمعة يتيمة ، او هي جمعة سعيدة .

قل ان شئت هذا ، وقل ان شئت ذاك ، ولكنهما غرضان مختلفان ، يذهب بهما اللفظ والتعبير من طرف الى طرف ، ومن تقدير الى تقدير .

منذ سمعنا الموعظة الأولى من مواعظ رمضان قيل لنا عن حكمة الصيام انه يعلم الأغنياء كيف يعطفون على الفقراء حين يجربون الجوع والحرمان .

ومنذ سمعنا تلك الموعظة سمعنا معها سؤالا يتكرر على نحو واحد ، فقد قال أحد التلاميذ : ولماذا يصوم الفقراء إذن وهم يجربون الجوع والحرمان في رمضان وفي غير رمضان ؟ وما قاله ذلك التلميذ في درسنا الأول يقال ويعاد في جميع الدروس .

أرى ان وعاظ رمضان خلقاء ان يترقبوا هذا السؤال فلا يحصروا حكمة الصيام في تلك الحكمة ، لأنها في الواقع لن تكون حكمة الصيام كلها ، ولن تكون إلا سبباً من أسباب .

ان الحكمة الكبرى في الصيام هي القدرة على النفس ، فهي الحكمة التي يحتاج اليها الغني والفقير ، ويستفيد منها المجدود والمحروم .

فالقدرة على النفس هي كل شيء في مقاييس الاخلاق والفضائل ، بل هي مناط الاخلاق والفضائل جميعاً في كل حالة وكل معيشة ، أيا كان حظها من الغنى والفقر ، ومن السعادة والشقاء .

وليس في وسعنا ان نتخيل فضيلة تخلو من قدرة الإنسان على نفسه ، بل ليس في وسعنا ان نتخيل تكليفاً يقوم به الإنسان من غير تطويع نفسه ، ولا فرق في التكليف بين فرائض الدين وفرائض الدنيا ، او بين العبادات ونظام الاجتماع ونظام الحياة الفردية الذي يفرضه الإنسان على نفسه لاداء عمل من الاعمال .

هذه القدرة على النفس هي حكمة الصيام الكبرى ، وهي جزاء واف لصيام الصائم ، يساوي بل يزيد على ما فاته من حظ الطعام والشراب .

لمن شاء إذن ان يقول عن شهر رمضان « إن فراقه عيد » ولمن شاء ان يقول « بل ختامه عيد » ..

واختلاف الحكمة هو الحكم الفاصل بين اللفظين .

من كان يحسب الصيام عذاباً يعلم صاحبه كيف يرثي للمعذبين ، وحرمانا يهديه الى الرأفة بالمحرومين ، فله ان يقول ان فراق العذاب عيد وان الخلاص من الحرمان حظ سعيد .

ومن كان يحسب الصيام رياضة تدله على قدرته وترضيه عن عزيمته ، فله ان يقول انه ينتهي من تلك الرياضة الى الغبطة بنفسه والطمأنينة الى ضميره ، وانه قد بلغ بها ختامها في عامها فهو سعيد بذلك الختام .

كذلك تكون الجمعة يتيمة او سعيدة على حسب اللفظ واللافظ ، وعلى حسب الحكم والمواعظ ، حكمة الصيام وموعظة رمضان ، بين الرياضة والحرمان .

فلتكن سعيدة بما قبلها وبما بعدها ، ان شاء الله .

الفصل الثالث
الأعيادُ الدينيّة وحكمتُها الخالدة

عِيدٌ سَعِيد

– كل عام وأنتم بخير .

– وأنتم بالصحة والسلامة .

في تحية العيد وجوابها قد جمعت بديهة الجماهير كل ما تتحقق به السعادة العامة بين الجماهير . فمن كان في خير ، وفي صحة ، وفي سلامة ، فهو في عيد سعيد .

قد توجد السلامة ولا صحة ، فلا سعادة .

وقد توجد الصحة ولا سلامة ، فلا سعادة .

وقد توجد الصحة والسلامة معاً ولا خير ، فلا سعادة .

وإنما السعادة في اجتماعها كلها معاً وعلى رأسها الخير حسبما يفهمه كل طالب من طلابه ، فما هو خير لهذا الإنسان قد يمتنع به خير إنسان آخر ، ولكنه مع ذلك مطلوب لبعض الناس .

لكن ما هي السعادة ؟ !

هنا يهبط الصواب على بديهة الجماهير بمجمل الكلام لان البديهة تجمع ولا تفرق ، والسؤال عن كنه الامور يستطرد بالسائل الى التفريق والتحليل والتمييز ، وليس هذا من عمل البداهة ولا من عمل الجماهير .

هل السعادة شيء « سلبي » يتحقق بامتناع الشقاء وانقطاع المكاره والادواء ؟

هل السعادة شيء « ايجابي » يتحقق بتحصيل هذا المطلب وترويض هـذه العقبة والافضاء الى هذه الغاية ؟

هل السعادة هي التوازن بين قوى النفس الداخلية ثم التوازن بين هذه القوى وبين قوى العالم الخارجية حتى لا يتبين في واحدة منها طغيان ، ولا يرتفع في اصواتها وأصدائها نشاز ؟

هل السعادة على نقيض ذلك اضطراب بين قوى النفس واندفاع في واحدة منها حتى تستغرق سائرها وتطويها في ذيولها كما ينطوي المجنون في حماسة الجنون ، والدراويش في حماسة « الدروشة » ، والمفتتنون في حماسة الفتنة ، والمغرم في حماسة الغرام ؟

في كل أولئك سعادة من السعادات ... أما الـ « سعادة » بالالف واللام فليست في شيء مفرد من هذه الاشياء ، ولعلها من أجل ذلك لا تكون ، لانها عامة غير متفرقة في هذه النعمة ولا في تلك .. وليس للانسان كمال .

سئل بعض الكتاب الانجليز في الايام الاخيرة هذا السؤال :

— ما هي السعادة ؟

فأجابوا مختلفين ... ، واستشهد كل كاتب بحكمة من الحكم المأثورة ، وهذه أمثلة من الاجابات كما يتسع لها التلخيص في هذا المجال :

استشهد بريستلي بقول ارسطو : « ان أحداً لا يمدح السعادة كما يمدح العدل مثلا أرفع وأقدس من هذه الاشياء التي تمدحها » .

ثم قال الكاتب ما فحواه : ان السعادة شيء بين الرضى والنشوة او ما يسميه المتصوفون حالة الوجد والتجلي .

فالرضى هو بلوغ الارب واستيفاء مطالب الطبيعة ، وشعور « الوجد » او التجلي هو شعور النفس فجأة بالامتداد والتدفق ، وهو نادر لان النفس قليلا ما تمتد هذا الامتداد الفجائي الشبيه بالوصول عند الصوفيين .

فهناك حالة الرضى وهي حالة الامتلاء في حدود النفس ..

وهناك حالة النشوة وهي حالة الامتداد وراء تلك الحدود ..

والسعادة هي شعور متراوح بين الشعورين ، وانتقال يرجح بين الحدين ،

والسعيد على هذا النحو ينظر الى الزهرة الجميلة فيراها زهرة جميلة ، ولكنه يرى لها فوق ذلك معنى آخر ، هو معنى الرمز والإشارة إلى ما وراءها من عالم الجمال والكمال .

واستشهد « مارش ارمسترنج » بقول توماس بروننج : « ان السكينة خير من الطرب » .

ثم قال : ان الناس يخلطون بين السعادة والمسرة او اللذة ، وهما مختلفتان ، والحقيقة ان الناس يطلبون اللذة او المسرة حين يفقدون السعادة ، وان السعادة هي الطمأنينة ، أما اللذة والمسرة فهما وليدتان للقلق والاضطراب .

وعند الكاتب ان المسرات هي هرب من النفس وشجونها، وان السعادة هي استيفاء النفس ، فهما نقيضان ، أو كالنقيضين .

وخلاصة رأيه ان السعادة « نعمة داخلية » لا ينعم بها الإنسان ما لم يتهيأ لها من جانب السريرة لا من جانب الحياة الخارجية ، وان كان شرطاً من شروطها الا يقع التناقض بينها وبين طوارىء الدنيا وأحوالها .

واستشهد برتشيت بقول تولستوي : « ان سعادة الإنسان في حياته وئام حياته في العمل » .

ثم قال : ان هناك شعوراً بأنالسعادة استقرار وبلادة،وان الكاتب الفرنسي فلوبير قد حيا السعادة تحية باليد اليسرى حين زار أسرة من المستورين ورأى ما هم فيه من غبطة وقناعة .. فوصفهم بأنهم « سعداء » .

وقال : ان الذين يكتبون قصصالحياة يهملون السعادة لأنها على جلالة شأنها لم تكن في جميع الأحوال تلك القوةالمسيطرة والشهوة الغالبة على أعمال الناس، وان كثيراً من النابهين بلغوا العظمة لأنهم فقدوا السعادة وان من الكتاب العبقريين من لا يكتب إلا وهو في أزمة فشل وحرمان .

ثم قال : انهم يزعمون اننا نتحدث اليوم عن السعادة كثيراً لأننا أشقياء ، واننا أشقياء لأننا قد ضيعنا الإيمان والعقيدة بالخير ، فليذكروا ان العقائد السيئة قد تقنع أصحابها وترضيهم وتحفزهم كما يجدون الحافز والرضى والقناعة في العقيدة الحسنة ، وإنما السعادة حق السعادة هي استيعاب الحياة وخلوها من التنافر بينها وبين ضرورات البيئة والوجود .

واستشهد برتراند رسل بقول سدني سميث : « إذا كان من حظي أن أزحف فاني زاحف وقانع ، وإذا كان من حظي ان أطير فاني لطائر ومسرور ، ولكن لن أكون شقياً ما استطعت ان اجتنب هذا وذاك » .

ثم قال: ان السعادة تعتمد على توفيق بين أسباب داخلية وأسباب خارجية ، وان القديسين والمجانين والعباقرة لا يقاس عليهم في هذا الأمر لأنهم قد يشعرون بالسعادة والعالم من حولهم موجب للشقاء .

أما سواد الناس فسعادتهم ميسورة لهم ببعض التدبير فيما يتعلق بالغذاء والمأوى وسلامة البنية .

إلا أن السعادة التي لها غور ولها ثبات ودوام لابد لها من حياة قائمة حول غرض مرسوم يدعو إلى المثابرة ويتقدم في طريق النجاح .

نعم .. ان بعض الناس يشبهون القطط التي يقنعها النوم في الشمس فإذا هي سعيدة ، ولكنهم قليلون أو حكمهم في الحياة حكم الشذوذ ، أما الغالب على العالم فهو امتناع السعادة « السلبية » كلما نما العقل واتسع أفق التفكير .

وعند الفيلسوف الكبير ان أحق الناس بالسعادة في عصرنا الحاضر هم رجال العلوم ، لأن عملهم شائق وشاق ، ولكنه غير مفرط في المشقة ، ولأنهم يشعرون بجلالة شأنه ويوافقهم العالم على هذا الشعور ، ولأنهم على الرغم من تسخير مخترعاتهم في الحروب مؤمنون بأن العاقبة من هذه المخترعات للنفع والصلاح على مدى الزمان ..

واستشهد السير هيوج والبول بقول صامويل جونسون : « ان السعادة لا شيء إذا هي لم تعرف ، وهي شيء صغير جداً إذا هي لم تحسد » .

ثم قال : ان من يبغي السعادة لا غنى له من العمل ، وأن يكون عمله فيما يحب ويختار . وهو يقرن الصحة الجسدية بالعمل ، ولكنه يعود فيقول : انه ليس في هذا على يقين ، لأن كثيراً من أسعد من عرف بين الناس كانوا ذوي أدواء وذوي عاهات !

واستشهد جون هيلتون بقول جون ميلتون : « ان العقل مكانه العقل ، وفي وسعه ثمة ان يخلق نعيما من الجحيم وجحيما من النعيم » .

ثم قال : ان السعادة هي زوال الألم الذي نشعر به حتى يزول .

وعرض لآراء بعض الحكماء في أسباب السعادة فعقب عليها بردود قصيرة ، قائلا :

« يقولون : احسب خبراتك ، وتقول : صحيح ! ولكنها قلما تضيف شيئاً ..

ويقولون : عش عيشة الحق والقداسة والاعتدال، وتقول : صحيح ! ولكن أناساً ممن عاشوا هذه العيشة قد ماتوا بقلب كسير .

ويقولون : اختبر نفسك وكن كما أنت ، وتقول : صحيح ! ولكن البحث عن النفس قد يطول ويصعب ، ولست من النتيجة على ضمان ، فكثير من الباحثين عن أنفسهم قد ضاعوا في نهاية الطريق .

ويقولون : اعتقد هذا وردد هذا واعمل هذا ، وتقول : صحيح ! ولكن نعرف من يعزون نجاحهم إلى أمثال هذه الوصايا فنعرف انها تعويذة يعالجون بها السأم والخيبة ، وليسوا هم من نجاحهم الراهن على قرار وطيد.

ثم يقولون كما قال جيمس فيرير ،

« بعيشك ألا ما تركنا تفكيرك وشأنه » .

وربما كان في هذا القول بعض الصواب، فلا تفكر أبداً في فكرك وامض على سنتك ولا تتعقب السعادة فهي لا تدرك بالتعقب ، وإذا لم يكن لك مناص من تعقب شيء فاقف أثر الحياة المستوعبة الوافية ، ودع السعادة والشقاء يجيئان حيث يجيئان .. فان صادفك الشقاء فاطرده ،وان صادفتك السعادة فاحمد الله !

واستشهد هافلوك اليس بقول الشاعر الأمريكي والت ويتمان : « هناك عندي .. لا أدري إذ ليس له اسم وإنما هو كلمة لم يقلها قائل .. انها ليست في معجم من المعاجم ولا في منطق من المناطق،ولا في مثل من الأمثال .. انها شيء يحوم ولا كالأرض التي أحوم عليها .. وجميع الخليقة لديها صديق رؤوم يحييني ويوقظني مساسه .. وما هي بفوضى ولا بفناء ، ولكنها نظام ووحدة واتساق وحياة باقية، وسعادة !».

ثم ذكر أن لوقريطس قد تحدث عن سعادة الناجين على الشاطىء إذ يبصرون الغرقى يغوصون في الأغمار ، فقال : ان الذين يسمعون بأهوال المصيبة وبلاء الأشقياء وهم ناجون من بلائهم ليسوا بأقوم من سعداء لوقريطس ولا بأرجح في موازين الإنسان .

وخلاصة رأي أن جيتي شاعر الالمان الاكبر قال بعد حياة طويلة قضاها في

العمل والفكر والمتعة ، انه ربما ظفر في حياته كلها بسعادة أسبوعين !

وهو على هذا النحو يقول : انه ربما رجع إلى ماضي حياته فبدا له منها ما يلوح كأنه سعادة صافية !.. ولكنه على يقين انه لو تريث يومئذ قليلا ليمتحن تلك السعادة لالفاها تذوب وتضمحل من بين يديه .

« وإننا نستمسك بتعريف السعادة ،ولكن اللحظات التي نقاربها فيها — على أقرب المسافات منها — هي اللحظات التي لا نفي فيها بتعريفها » .

هذه زبدة الاقوال التي جمعت زبـــدة التجارب في حياة أناس هم زبدة الكتاب .

فهل زادتك تعريفاً بالسعادة ؟ وهل زادتك تحصيلا لها واقتراباً منها؟ وهل زادتك زهادة فيها واستغناء عنها ؟

أما أنا فالذي أعلمه عن السعادة بعد ما اختبرت وقرأت انها سعادات في شؤون الحياة المألوفة وليست بسعادة واحدة .

فهي أصناف وليست بصنف واحد ، وهناك السعادة النفيسة غير الرخيصة التي أنت في حاجة اليها ، كما تدخل المتجر الكبير فـــلا تغنيك النفيسة عن الرخيصة التي أنت في حاجة اليها ، كما تدخل المتجر الكبير فلا تغنيك أنفس السلع فيه عن سقط المتاع إذا كنت أنت في حاجة يومذاك إلى سقط المتاع .

ولا تنال السعادة غالية كانت أو رخيصة بالتقسيط ! بل لا بد أن تنال جملة واحدة .

فالذي يشرب بحراً من الاكدار لا يقول انه شرب قدحاً واحداً من الماء الصافي ، وان كان في ذلك البحر من الاكدار أقداح وأقداح صافيات .

وكذلك الذي يأخذ السعادة مخلوطة بأوشاب الشقاء لا يسمى سعيداً ولا جزءاً من سعيد لان السعادة شراب لا يقبل المزيج .

هذا عن السعادات في شؤون الحياة المألوفة ، أما الـ « سعادة » بالالف واللام فهي أقصى ما يناله الإنسان .

والسعادة الكبرى فوق مطالب العيش وقوانين الدنيا وشؤون الحياة فهي نسمة يوهبها كما قال برتراند رسل واحد من ثلاثة : قديس ، او عبقري ، أو مجنون ، ولا يوهبها إلا في قليل من اللمحات .

وبعد : فحسبنا من السعادة في هذا اليوم عيد سعيد .

عيد الفطر (١)

من حكمة الأديان ان الأعياد الدينية الكبرى تأتي بعد فترة يمتحن فيها الإنسان في فضيلتين من الزم الفضائل له في حياته الخاصة وحياته العامة ، وهما التضحية وضبط النفس ، ولعلهما ترجعان في مصدرهما إلى أصل واحد ، وهو حرية الإرادة أو حرية الاختيار.

فالأعياد كما نريدها هي مواسم أفراح ، وما من شيء يحق للانسان ان يغتبط به وينطوي من أجله على الفرح ، كما يغتبط بارتفاعه عن المرتبة الآلية وارتقائه عن الغريزة الحيوانية وبلوغه مرتبة الكرامة التي لا تكون لغير الإنسان ، وهي كرامة الحرية والقدرة على مقاومة الطبيعة وتغليب العقيدة على شح الانفس،فهنالك يحق له أن يفرح فرح الإنسان لأنه وجد نفسه الحرة المريدة، وهي أعز موجود ومفقود .

والعيدان الكبيران في الإسلام هما : عيد الأضحى ، وعيد الفطر، وأكبرهما هو الذي يأتي بعد مشقة الحج والتقرب إلى الله بالقربان المفروض ، وثانيهما هو الذي يأتي بعد شهر الصيام ويحتفل به الصائم وقد راض نفسه على مغالبة الجوع والظمأ ومخالفة العادات التي جرى عليها في سائر الشهور . وكلاهما رمز واضح إلى فضيلة التضحية وفضيلة ضبط النفس، أو إلى الفضيلة الإنسانية الجامعة لكل الفضائل ، وهي حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات.

---

(١) الهلال يوليه ١٩٥١

وقديماً قال القائلون : ان الصيام ضرب من انـكار الذات ، ونعتقد أنهم أخطأوا فيما قالوه ، لأن الصيام أقوى الوسائل لتقرير الذات لا لانكارها ، ومن وجد ارادته لا يقال عنـه بمعنى من المعاني الصحيحة انه أنكر ذاته وفقـد نفسه ، وإنما يقال عنه انه اثبت ذاتـه وقرر لها وجودها على أحسن الصور ، وتلك هي الصورة الإنسانية الحرة التي تملك زمام ضميرها وغريزتها ، وتستطيع أن تصبر على الشدة التي تريدها لأنها تستطيع ان تريد .

ان استرسال المرء مع الغرائز الحيوانية والشهوات العمياء هو الضياع الذي يزري بصاحبه ، لانه يجري به مجرى الآلة المندفعة إلى حيث تدفع ، أو لأنه على أحسن مـا يكون يجري مجرى الحيوان الذي لا يعرف له ضميراً يغالب الغريزة والشهوة ، ولكن الفضيلة الإنسانية تولد وتوجد وتثبت وتتقرر حـين توجد القدرة على الامتناع وتوجد المشيئة التي توازن بين ما تحجم عنه وتسترسل فيه ، والصيام رمز محسوس لهذه القدرة على سلطان الطعام والشراب وسلطان العادة المألوفة ، وهما طريقان إلى القدرة على غيرهما ، لأن غيرهما شبيه بهما في مكافحة الغريزة أو مكافحة العادة ، وقلما احتاج الإنسان إلى ضبط النفس وتغليب الإرادة الا ليخضع غريزة من الغرائز ويخرج على عادة من العادات .

ان العيد بعد الصيام عيد له معناه ، ولم يكن مجرد تقليد من التقاليد التي تتكرر بغير معنى ، وربما كنا في عصرنا الحديث كأحوج ما يكون الإنسان إلى الفرح بهذا المعنى الخالد ، فانـه عصر قد كثر فيه الانطلاق واستباحة الممنوعات حتى أوشك ضبط النفس أن يحسب من الرذائل المذمومة ، وحتى خيل إلى بعضهم ان مقياس « العصرية » هو مقياس التحلل من المحظورات والاجتراء على المنكرات ، وقد كانت لهذه الثورة الجامحة أعذارها يوم كان الحجر على الناس استبداداً مطبقاً من فوقهم وظلماً لهم بغير حكمة مفهومة ، أو يوم كان الإنسان يمتنع بحكم غيره ويتحلل بحكم غيره ، أما أن ينطلق انطلاقه الجامح لأنه لا يستطيـع الامتناع ولا يقدر عليه فلن يكون فضيلة عصرية ولا فضيلة رجعية ، بل هو على حقيقته عجز ونكسة وانقلاب بالمثل الاعلى للانسانيـة إلى عصور الهمجية ومن قبلها عصور الوحشية ، وما كانت الاباحة المطلقة بحاجة قط إلى تقدم وارتقاء ، وما كان التمرد المطلق عسيراً قط على الجماد فضلاً عن الحيوان

وفضلا عن الإنسان ، فان الفوضى لا عسر فيها على أحد كائناً ما كان ، وإنما العسير هو أن نملك زمامنا ونحتفظ بارادتنا ، ونقرر للوجود الإنساني صفة تعلو على الآلة وصفة الحيوان .

* * *

سعيد من يتلقى التهنئة بعيد الفطر لانه يتلقى التهنئة بضبط نفسه وتغليب ارادته ، وأسعد ما يكون العالم الإنساني كله إذا نجا بهذه الفضيلة العليا من الشقاء الذي جره إليه نقيضها : وهو العجز عن ضبط النفس والضلال عن معنى الحرية الصحيحة، وانها ليمكن أن تعني كل شيء إلا الفوضى والتمرد والانطلاق بغير وازع من الارادة ولا حسيب من الضمير .

ونحسب أن الالتفات إلى معنى الارادة والتضحية وضبط النفس له أكثر من جانب واحد في هذه المناسبة المحبوبة حيثما نتجه إلى العالم الإسلامي بالتهنئة والتبريك ، فليس للعالم الإسلامي مهمة في مستقبله أهم من استكمال ارادته واستخدامها في وجوهها، وليس هنالك من لبس عليه بين أفضل الطريقين وأقوم الخطتين ، فانما هي خطة واحدة لا ضلال عنها بين مئات الخطط وألوفها ، ان كانت هناك مئات من الخطط أو ألوف ، فحيث تكون التضحية ومكافحة الشهوات والاهواء فهناك النجاة .

وفي وسعنا أن نقول ان نصيب العالم الإسلامي من الحرية يزداد ويتسع ، وان حاجته إلى صدق الارادة تزداد بهذه الزيادة وتتسع مع هذا الإتساع .

في وسعنا أن نقول هذا وفي وسعنا أن نتفاءل به ونتطلع إلى ما هو خير منه وأقرب إلى الرتجاء، بل علينا أن نتفاءل ونتطلع على الدوام إلى غد خير من اليوم وخير من أمس ، وأن نثق من أعياد المستقبل على طوال أيامه وأعوامه ، ما دمنا على ثقة من القدرة على ضبط النفس ومضاء الارادة واحتمال الفداء .

قيل : ليس العيد لمن لبس الجديد ، ونقول : بل العيد لمن لبس الجديد إذا كان الجديد حلة من الحرية لا يلبسها المستضعفون ولا يلبسها العبيد ، ومهما تساورنا الشكوك فيحريتنا فلا شك في رجحان نصيب اليوم على نصيب الامس، ولا في صلاح هذه الحرية للتقدم بنا غداً إلى نصيب أوفى من النصيبين ، وأجدر بالتعويل عليه ونص العزائم إليه من حصة هذين الجيلين المتعاقبين ، ولا بد من

صيام أصعب من صيام رمضان ، ومن قرابين أغلى من قرابين عرفات ويوم عرفات ، ومن جهاد أشق من جهاد الجوع والظمأ ، لان حلة الحرية والكرامة أنفس من حلل الحرير والكتان.

ونحن ننظر إلى الغد البعيد ، بل إلى الغد القريب متفائلين ، ولا يعسر علينا أن نذكر السبب إذا سألنا عنه سائل مستريب ، فهذه أمم الشرق أقرب إلى حريتها وكرامتها مما كانت قبل عشر سنين وقبل عشرين سنة ، وحالتها اليوم أدعى إلى التفاؤل من حالتها قبل سبعين سنة في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة المحمدية ، فلماذا لا تتخذ من ماضيها القريب سبباً للرجاء في مستقبلها القريب ؟ على ان الرجاء غني عن الاسباب كلما سلمت طبيعة الحياة ، فماذا عند الطفل الوليد من أسباب الرجاء أو أسباب التفاؤل وهو عار ضئيل مفتقر إلى الكثير والقليل ؟ عنده طبيعة الحياة وحسبه ما عنده . وعندنا ، ولا نغلو في الادعاء ، قبس من هذه الطبيعة مرجو البقاء ، ويحق لنا بهذا الامل ان نستقبل العيد مهنئين ، وأن نتمنى للعالم الإسلامي ، وللعالم الإنساني كله ، سنة من أسعد السنين .

العيد الكبير

عيد الأضاحي والقرابين(١)

إلى هذا اليوم تذهب القروية الساذجة إلى عرّاف القرية تشكو مرضها أو عقمها أو هجران زوجها او عثرة حظها، فيقول لها : انه « عمل ساحر » ، وانه قادر على احباط ذلك العمل وتحويله عنها إلى ضحية تفتدي بها نفسها

وكثيراً ما تكون تلك الضحية دجاجة سوداء فاحمة السواد ، او زوجاً من الحمام الأسود لا شية فيه من بياض او اختلاف ، وهكذا ينبغي أن يكون لون الضحية السحرية التي يرتضيها الجان ويتقبلها الشيطان !

ويتلو العراف تلاوته ويطلق بخوره فينتقل السحر من المرأة الشاكية الباكية إلى الدجاجة السوداء ، وتبرأ المرأة من الداء والشكوى ، بعد اختفاء الدجاجة حيث قدر لها ان تختفي ، وغالباً ما يكون اختفاؤها في مكان واحد ، هو جوف العراف المظلم الشبيه بها في السواد !

قبل آلاف السنين كانت الضحية من قبيل هذه الضحية ، وكان الغرض الأكبر منها دفع السوء عن انسان من الناس ، على يد ساحر او كاهن عراف .

وكان هناك نوع آخر من الضحايا التي يدفع بها السوء عمن يخافونه ويوجسون شراً منه، وتلك هي الضحايا التي تقدم إلى أرواح الموتى يوم كان الناس يعبدون تلك الأرواح ويبذلون لها الطعام ، ويحسبون أنها تجوع وتظمأ وانها تنكل بهم

---

(١) الهلال سبتمبر ١٩٥٢

إذا رأتهم يأكلون ويشربون وهي تنظر إليهم ولا سبيل لها إلى الطعام والشراب.

فقد كانوا يومئذ يذبحون لها الذبائح ويتقربون إليها بالقرابين دفعاً للسوء واتقاء للحسد والنقمة ، وكذلك كانت قرابين الأرواح على مثال قرابين السحر ، وكان العرافون الأقدمون مزيجاً من السحرة والكهان .

ثم ترقى شعور الناس بالضحية وفهمهم لمعناها مع ارتقائهم في التدين واستعدادهم لطبقة أخرى من الاعتقاد الديني أرقى من تلك الطبقة الهمجية .

فأصبحت الضحية تحمل الخطيئة عن صاحبها ، وكان مجرد فهم الخطيئة تقدماً في الفهم والشعور بالعقيدة الدينية ، لأن ادراك معنى الخطيئة يستدعي ادراك معنى الضمير والمحاسبة على الذنوب ، ومن ثم كان الخلاص من الخطايا أرفع طبقة من دفع السوء الذي يصيب الأبدان ولا يتعداها إلى الضمائر ، وكان كذلك أرفع طبقة من دفع السوء لسبب آخر ، وهو ان دفع السوء إنما كان يطلب من الشياطين والأرواح الشريرة ، أما تكفير الخطايا فإنما يطلب من رب الخير والصلاح الذي ينهى عباده عن مقارفة الذنوب .

وارتقى الناس في فهم التضحية بمقدار ارتقائهم في فهم العقيدة الدينية ، فجاء الزمن الذي كان فيه أنبياء بني إسرائيل كأشعياء وأرمياء يبكتون الشعب لانه يعلق رجاءه في الخلاص والغفران على الذبائح والقرابين ، ثم ارتفع السيد المسيح بعقيدة التضحية فوق هذا المرتفع ، فقدم الرحمة والشكر على فدية الانعام والأموال ، وأوصى ببذل النفس في سبيل الهداية .

أما التضحية في الإسلام فهي شكر وصدقة واحسان : « فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ » ... « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ »

فالضحية الكبرى هي التقوى ، وإنما هذه الضحايا وسيلة من وسائل الشكر والإحسان . وليس من عقائد الإسلام ان الضحية تكفر عن الذنوب ولا انها ترد القضاء ، ولكنها عطية واجبة تؤدي جانباً من جوانب البر ، وترمز إلى الجانب الاكبر منها وهو تضحية الإنسان بنفسه في سبيل الله ، ولهذا قرنت آيات الضحايا بآيات القتال دفعاً للظلم وابقاء للشعائر والأحكام « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً. وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »

لقد ارتفعت التضحية من السحر إلى العبادة ، ومن دفع السوء إلى بـذل الإحسان . ولا تزال ترتفع مع كل مؤمن بها قادر عليها ، ولا يتجرد من الإيمان بها انسان له خلاق وعليه تعويل في شؤون قومه او شؤون نوعه الإنساني في حاضره وعقباه .

***

ويبدو لنا ان الآداب الإنسانية تتلخّص من هذه الناحية في كلمات ثلاث تجمعها كلها ولا تحتاج إلى مزيد عليها من خارجها. وهي كلمات الحق والواجب والتضحية . .

أقلها الحق وأعظمها التضحية ، وبينهما الواجب وسط معتدل بين طرفين .

فمن يطلب حقه يطلب شيئاً قصارى ما يقال فيه انه لا يلام عليه ، ومن يعمل واجباً فانما يفعل ما هو مطلوب منه محاسب على تركه ، واما من يتبرع بالتضحية فهو الذي يرتفع بعمله فوق الحق والواجب ، ويعلو بنفسه فوق مرتبة الجزاء والحساب ، او العمل الذي يحق له والعمل الذي يجب عليه.

وكل تضحية واجبة ، او تضحية مفروضة ، فهي في الواقع رمز إلى التضحية العليا التي هي أرفع من الواجبات والفروض ، لانها لا تطلب ولا تستوجب ، ولا يفرضها على الإنسان غير ضميره وشعوره ، ان شاء قام بها وان لم يشأ لم يعلم أحد انه قصر في فضيلة من الفضائل ، إذ كانت التضحية درجة فوق درجات العمل المطلوب او العمل الذي يشعر به الآخرون .

ونحسب ان « الإنسانية » قد سمعت كثيراً عن حقوقها وواجباتها في هذه العصور التي تسمى بالعصور الحديثة او عصور العلم والحرية .

بل ربما كانت آفة العصر الحديث او آفة العصر الأحدث ، انـه مشغول بالحقوق دون الواجبات والضحايا ، ولهذا تضيع حقوقه وتسقط واجباتـه ويذهب ضحية لا فضل له فيها ، لانها ضحية المضطر غير المختار

***

ويمكن ان يقال ان العصر الذي تشغله حقوقه دون غيرها لا حق له في شيء ، ولا يصل إلى حق وان جهد في طلبه ، إذ كان طلب الحقوق وحده دليلا على ضياع الحقوق بين الجميع، وان الناس قد اسقطوا واجبهم عنهم فأصبح هذا الواجب مطلوباً منهم ، او أصبحوا جميعاً طالبين مطلوبين .

قيل قديماً : « اطلب الموت توهب لك الحياة »

وعلى هذا القياس مع بعض الفارق يقال لطلاب الحقوق : « افعلوا الواجب عليكم تجدوا حقوقكم لديكم بغير طلب ، لان الحقوق لا تضيع حيث تؤدى الواجبات » .

خطوة وراء هذه الخطوة ، او على الاصح أمام هذه الخطوة ، فيصح أن يقال : « ضحوا وضحوا فاذا الواجب مضمون وزيادة، وإذا الحق من باب أولى مضمون وزيادة .. »

والعصر الحديث يسمع هذه الوصية فيسخر منها لانه يدين بشيء واحد : وهو طلب الحقوق ، ولا يفهم، بعد كل ما أصابه أن الاجماع على طلب الحقوق هو الاجماع على ضياع الحقوق !

ولسنا بحمد الله من المؤمنين بالوصايا التي يركع الموصي بها تحت أقدام المستمعين اليها ، ويتوسل اليهم ان يصدقوها ويتقبلوها .

كلا ، لا نؤمن بهذه الوصايا لانها أضيع الوصايا وأولاها ألا تسمع ولا تنفع ، وإنما الوصية التي نؤمن بها هي الوصية التي لا محيد عنها ، ووصية العصر الذي جرب الجنون بالحقوق فضيعها جميعها هي التضحية ثم التضحية ، فماذا يجري في الدنيا ان لم تسمع هذه الوصية؟

يجري شيء « بسيط » لا شك فيه ، فمن لا يضحي باختياره يصبح ضحية للحوادث بغير اختياره،ولا شكران لضحايا الضرورة ولا ثواب لهم من ضمائرهم ولا من التاريخ .

وهنيئاً بعد هذا بالعيد الكبير : عيد الاضحى والقرابين ، فلعله بشير يغني عن التذكير ، والبشرى كالذكرى تنفع المؤمنين .

الضحية في مقارنة الأديان[1]

كلمة التضحية بمعناها الحديث كلمة اسلامية لم تعرف بهذا المعنى ، معنى الفداء ، قبل نزول القرآن الكريم .

وإنما أخذ معناها الأصيل من « الضحى » موعد تقديم ذبيحة العيد بعد صلاته ، وظن بعض المتعجلين من المستشرقين المشتغلين بعلم المقارنة بين الاديان انها من أجل ذلك تشير إلى أصل قديم لعبادة الشمس في عصر الجاهلية ، وهو — كما يرى القارىء العارف بالعربية — ظن عاجل من ظنون القشور الواهية ، لان التضحية كلمة من كلمات كثيرة تفيد معنى الطعام او تقديم الذبائح في مواعيده من اليوم ، بين السحور والغداء والعشاء . على حسب أسمائها القديمة التي شاعت من قبل وتشيع اليوم على كل لسان .

ولكن المقارنة المتئدة بين الأديان تسفر في أمر « التضحية » عن حقيقة مطردة ننتهي اليها من جميع المقارنات في جميع الشعائر والمعتقدات بين الدين الإسلامي وسائر الاديان الكبرى المعروفة في أمم الحضارة .

وتلك الحقيقة المطردة — كما يعرفها كل منصف من المسلمين وغير المسلمين — هي ارتفاع الإسلام شأوا بعيداً فوق أرفع الآفاق التي بلغتها أطوار الدين مع ارتقاء النوع الإنساني وصلاحه شيئاً فشيئاً للتقدم في شئون العبادة وما يقترن

---

(١) منبر الاسلام مايو ١٩٦٣

بها من شئون المعرفة والاخلاق والتربية الاجتماعية .

فالمتعجلون من المقارنين بين الاديان لم يَسْلموا من الخطأ الذريع فيما انساقوا اليه — مع الاشاعة — من تقديم الديانات الكتابية على الديانة الإسلامية في معاني الإيمان وشعائره لانها متقدمة عليها بتاريــخ الدعوة . ولو استقام بهم الرأي لادركوا بغير عناد أن اعتبار التطور هنا أولى من اعتبار الارقام والتقاويم ، لان الزمن لا يسمح بظهور دين وانتشاره بعد دين آخر ما لم تكن فيه فضيلة يجدها المقبلون على الدين الجديد لم يجدوها قبل ذلك فيما تقدم من الاديان .

وهذه الحقيقة المطردة تظهر — كما أسلفنا بغير عناد كبير — من كل مقارنة بين العقائد الإسلامية وما تقدمها من العقائد في أمهات شعائر الدين وأصوله .

وقد تتلخص هذه الاصول في العقيدة الإلهية وعقيدة النبوة وعقيدة الصلاح في النفس الإنسانية بين يدي الله وأنبيائه .

فالله في الإسلام كائن سرمدي منزه عن شوائب المادة يدين المسلم بأنه هو رب العالمين أجمعين وليس برب لهذه القبيلة او تلك تختارهاويختاره لغير سبب بين الامم كافة ، وليس الإله كذلك رباً لطائفة من الناس ، يرتبط خلاصها بحادث من حوادث التاريخ في بقعة من الارض ، بين بقاعها التي تبتعد او تقترب منها فيما سبق او فيما يلحق من الازمنة .

والنبي في الإسلام داع إلى الهدى بحجــــة العقل والضمير ، وليس منجماً لاستطلاع الغيب ولا وسيطاً لدفع الكوارث وجلب المنافع بين الخالق ومخلوقاته .

والنفس البشرية نفس رشيدة مسئولة عن صلاحها وعن خلاصها بما تعمله وتنهض بتبعاته في تجارب دنياها اينما كانت وكان مصيرها ومثواها .

وهذه الاصول الثلاثة في عقائد الإلهية والنبوة والنفس البشرية هي أهم أركان العبادة في كل ديانة قديمة او حديثة ، ولا يمتري المنصف في مكان الفضل والتقدم منها عند المقارنة فيها بين الإسلام وسائر الاديان .

ولكن المقارنة بين هذه الاديان في الفروع تنتهي كذلك إلى تمييز الإسلام بمثل هذا الفضل ، او هذا التقدم ، من وجهة النزاهة في التفكير والاستقامة على هداية الضمير .

ومن هذه الفروع عقيدة « التضحية » او القربان في الدين الإسلامي وفيما تقدمه من الاديان الكتابية وغير الكتابية .

فالذين زعموا ان الإسلام نسخة محرفة ، او مشوهة ، من اليهودية يدركون خطأهم سريعاً إذا قارنوا بين معنى التضحية فياليهودية ومعنى التضحية في الدين الحنيف ، لان القرابين والضحايا كما وردت أحكامها في كتب التوراة والتلمود تحمل في أطوائها كل بقايا التضحية للأرباب ، في الاديان التي قامت على عبادة الظواهر الطبيعية ، ولا سيما ظواهر الفصول ومواسم الزراعة .

فالقربان عندهم يكون تارة من بواكير الزرع وتارة من بواكير الحيوان في مواسم الحصاد او النتاج .

ويكون بالإضافة إلى هذا ، تارة أخرى ، ثمناً للغفران من الله او « رشوة » لتسكين الغضب واستجلاب الرضى والرعاية .

بل يكون القربان الاكبر أحياناً طعاماً مقدماً إلى الله لانه يستسيغه ويشعر بالسرور لاشتمامه، ويكون في كل حال هدية منتقاة من اطايب الذبيحة لكهّان الهيكل وخدامه والمنتسبين اليه .

وفي كتب التكوين والخروج والاخبار تفصيل لانواع هذه القرابين لا حاجة بنا إلى استقصائه ، ولكن الكتاب الذي خصوه بمراسم الهيكل والذبائح وحقوق الاحبار والكهان حافل بالتفصيلات التي تعرض لبيان أغراض القربان وأجزاء الذبيحة التي يرتضيها الرب ومقادير اللحم والشحم التي تفضل على غيرها ولا تحل لاحد غير الكهنة او غير الإله الذي يتوسط الكهنة في تقديمها اليـه . وهذه فقرات من الإصحاح الاول من كتاب اللاويين قد تستجمع ما يأتي بعدها في سائر الإصحاحات في تلك التفاصيل :

جاء في مطلع الإصحاح الاول : « ودعا الرب موسى وكلمه من خيمة الاجتماع قائلا : كلم بني إسرائيل وقل لهم إذا قرّب انسان منكم قربانا للرب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرابينكم . ان كان قربانه محرقة من البقر فذكرا صحيحاً يقربه الى باب خيمة الاجتماع ، يقدمه للرضا عنه أمام الرب ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عليه للتكفير عنه ، ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هرون الدم ويرشون مستديراً على المذبح الذي لدى باب

خيمة الاجتماع ، ويسلخ المحرقة ويقطعها الى قطعهاويجعل بنو هرون الكاهن ناراً على المذبح ويرتبون حطباً على النار، ويرتب بنو هرون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح ، وأما احشاؤه واكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على المذبح رائحة سرور للرب ... الخ الخ »

ومعنى القربان — البداتي — ظاهر من هذه المراسم وهذه الخصائص التي ترتبط بالكهانة وبقايا الوثنية .

فاذا قورنت هذه المراسم بما يقابلها من مراسم التضحية الإسلامية تبين منها كل ما هنالك من الفوارق الشاسعة بين صفة القربان ومعناه في الديانتين .

فليس القربان في الاسلام ثمناً للغفران متعلقاً بوساطة الهيكل وكهانه .

وليس القربان الاسلامي طعاماً للرب ولا طعاماً لاحد من الوسطاء بين العبد وربه باسم الدين .

وليس هذا القربان فرحاً بمنظر الدم واحتفالاً برشه وغمس الايدي فيه مرضاة للعبد او لربه .

وليس فيه معنى من معاني التقريب للظواهر الطبيعية في مواسمها المعروفة للحصاد او النتائج .

وآيات القرآن الكريم صريحة في بيان أغراض التقريب ومراسمه وتنزيه الاله عن النيل منه طعاماً او شماً يرتاح اليه سبحانه وتعالى، وقد جمعتها آيات من سورة الحج في قوله جل وعلا :

.. « والبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ، كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ » .

فالقربان الاسلامي بعيد غاية البعد من مراسم الوثنية وشعائر الكهانة ، وليس على المسلم ان يقربه الى الله ثمناً للغفران ، ولكنه شكر لله واحسان الى الجياع والمحرومين وبرهان على التقوى والصلاح وهما كل ما يطلبه الإله من عبده، تنزه سبحانه وتعالى ان يطلبه سروراً برائحته او فرحاً بمنظر الذبائح في دمائها

واستئثاراً بالطيبات منها لمن يدّعون الوساطة عنده والشفاعة لديه .

وأمام كل صورة من تلك الصور « الجسمية الدموية » صورة تصلحها وتهذبها في شعائر الإسلام تتحقق بها فضيلة التطور في كل رسم من مراسم العبادة فروعها وأصولها ، ويتضح بها ما ذكرناه من عمل هذه السنة الإلهية في تهيئة الإنسان للتقدم من عقيدة إلى عقيدة تفضلها وتعلوها ، ومن نشوء الدين بعد الدين تكملة له وزيادة عليه ، لا نسخاً ولا تشويهاً لجواهره واعراضه ، إذ ليس مما يستقيم به فهم التاريخ ولا فهم العبادات ان يُفسر ظهور الإسلام بعـــد ظهور الأديان التي سبقته بغير هذا التفسير .

خواطر العيد بين ألفاظه ومعانيه

كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة عليه . وقيمة هذه الدلالة تتجاوز الأهمية في اللغة إلى الأهمية في علم الإنسان المعروف بالانثروبولوجي من « انثروبوس » بمعنى الإنسان في اللغة اليونانية .

فالعيد يستلزم « أولاً » أن يعاد في موعد معلوم من كل سنة او كل موسم ، وعودته مع السنين والمواسم تستلزم وجود مجتمع قد استقر ، واستقرت له علاقته بالأرض والسماء او بالمكان والزمان ، فهو يعرف مواقيت الزرع وقد يعرف التقويم الفلكي الذي يجعل للزراعة ميقاتاً ثابتاً يوافق أوان الزرع والحصاد بالشهر واليوم ، او يخالفه قليلا مع تعاقب الأعوام .

وتدل على العيد كلمات كثيرة في اللغات الأخرى ، يدور معناها أحياناً على الموائد والأطعمة ، فإذا قال القائل في تلك اللغات انه « عَيَّدَ » فمعنى ذلك انه شبع من الطعام ونال نهمته من الثمرات والخيرات .

وفي سورة المائدة من القرآن الكريم آيات تلخص هذه المعاني ، وتجمع خصائص العيد بعودته ووفرة مأكوله ومشروبه ، وتجدده بين الأجيال السابقة واللاحقة ، ونعني بها قوله تعالى : « إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

أصل الأعياد

وتكاد الأعياد جميعاً ترجع بأصولها إلى مواسم الزراعة والرزق ، ولكن الأديان ترتقي بها من أصولها المادية إلى المعاني الالهية والروحانية وتضفي عليها صبغة من المقاصد العليا تناسب تقدم الانسان .

فبنو إسرائيل مثلا قد تعودوا أن يحتفلوا بعيد الفصح، وعيد المظال وغيرهما من أعيادالبواكير والمحصولات، وقد كان عيد الفصح يوافق موعدالاعتدال الربيعي من شهر نيسان الذي يتوسط بين شهري مارس وابريل موعد الربيع ، وكان عيد المظال يوافق ليلة البدر من شهر تشري ، أي الشهر العاشر الذي يتوسط بين شهري سبتمبر وأكتوبر موعد الحصاد ، ثم تطور الاحتفال بهذين العيدين فأصبح لهما معنى الخلاص ، ومعنى النعمة الالهية حسب موقعهما من حوادث التاريخ التي تهم بني إسرائيل .

وكانوا يحتفلون بعيد النور في نحو الخامس والعشرين من شهر ديسمبر كل سنة ، لأنه الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار ويعتبرونه آية على انتصار النور واندحار الظلام ، ثم احتفلوا به لأنه وافق تاريخ اقامة الهيكل وتجدد العبادة فيه بعد تعطيله في زمن انطيوخس ابيفانس من سنة ١٦٨ إلى سنة ١٦٥ قبل الميلاد ، ولا يزالون إذا احتفوا به يجعلون من هداياه عناقيد العنب وأوراق الكروم .

ولم يزل هذا العيد مرعياً بين الأمم القديمة من غير بني إسرائيل ، وكان الاحتفال به مصحوباً ببعض العادات التي لا يقرها الدين ، فلما دان الوثنيون بالمسيحية ثبتوا على عاداتهم الأولى في الاحتفال بهذا اليوم كل عام ، وحولهم آباء الكنيسة عنه إلى الاحتفال بذكرى مولد السيد المسيح .

عيد الفطر وعيد الأضحى

والعيدان الاسلاميان – وهما عيد الفطر وعيد الأضحى – كان لهما أصل قديم قبل الاسلام ، فكان العرب يصومون من أسبوع إلى أسبوعين في موعد الانقلاب الصيفي الذي يوافق شهر القيظ او شهر رمضان ، وكانوا يحجون إلى الكعبة ويقدمون القرابين إلى أربابهم عند منصرفهم من الطواف ، وكانوا

يؤدون شعائر الحج عراة إلا من الكساء الذي يخصصه السدنة للحج في جوار مكة ، فلما جاء الاسلام هذب هـذين العيدين وأزال عنهما بقايا الصبغة المادية وحولهما إلى العبادة الالهية ، وساعد على زوال الاثر المادي منهما ان الاسلام حرم النسيء وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة أعوام لاعادة التاريخ القمري إلى الحساب الشمسي الذى تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة ، ولم يحرم الاسلام النسيء لأنه يمنع تنظيم التقويم على الحساب الصحيح ، فإنه بخلاف ذلك يوجب على الانسان أن يعلم عدد السنين والحساب ، ولكنه حرمه لأن المنجمين الذين كانوا يتولونه جعلوه تجارة على حسب الهوى ، وعبثوا بالزيادة والنقص في الأيام لاباحة القتال المحرم في بعض الشهور ، وطفقوا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً كما جاء في القرآن الكريم ، فلما بطل النسيء الذي كان متبعاً في الجاهلية ، أصبح شهر رمضان يأتي في غير أوان الرمضاء ، ويعود في كل فصل من فصول السنة ، ويعالج الصائم فيه طول النهار كما يعالج قصره كلما دار من الصيف إلى الشتاء ، وانفصل ما بينه وبين مواسم الزراعة ومواعيد النتاج ، ومنها قد استمد اسمه القديم ، وربما وصفوه قديماً فقالوا انه هو الشهر الناطل والشهر الناتق ، وكلاهما يدل على كيل السوائل والالبان وعلى وفرة النتاج في الابل ، من قولهم ناقة منتاق او ناتق أي كثيرة الولادة ، حسنة النتاج .

الاعياد في الشرق الأقصى

ويوشك أن يكون تاريخ الاعياد على هذا النحو عاماً في بلاد الشرق الاوسط والبلاد التي استمدت منها العلم بالفلك وحساب التقاويم ، وأهمها أعياد النيروز والكفارة عند الفرس والبابليين .

أما بلاد الشرق الأقصى فلها مواعيدها ومواسمها ، ولها كذلك أعيادها الطبيعية ، تضاف اليها أعياد الأنهار والتطهر وزيارة الهيا كل على حسب الاقاليم ، ويعرف أهل الهند نوعاً من الاعياد غير هذا النوع الذي يرتبط بمواسم الزرع والحصاد ، وتلك هي أعياد السلامة او الشفاء من الآفات والشرور ، ويسمى العيد من هذه الاعياد بالميلاد وتؤدى فيه فرائض الشكر عـلى نجاة الاطفال خاصة من آفات الجدري والحصبة وسائر الامراض التي يخشى منها على

الصغار .. قالت السيدة سنكلر ستيفنسن في كتابها عن شعائر الولادة المزدوجة : « ان عيد السلامة من الجدري أحب الاعياد ان تراقبه كاتبة هذه السطور ، فترى إلى جانب النهر سوقاً منظمة تزدحم هنا وهناك بالمناظر المرحة ، وتتلألأ فيها المرايا والالاعيب وألوان الفاكهة ، وتشاهد على الطريق التي تؤدي إلى المحراب جموع الاسر اللطاف من الامهات والاطفال في أحسن ثيابهم التي تتلاقى فيها الالوان الزرقاء ، والخضراء ، والحمراء . وعند المحراب تتقدم الامهات السعيدات اللائي نجا أبناؤهن من الآفات فيضعن تحت أقدام الربة الحارسة قرابين الفاكهة او الزهر ، أو الحبوب، او الملح ، او الزيت ، او العسل ، او الزبد النقي ، ومنهم من تزيد فتتقرب إلى الربة بتمثال صغير لمظلة جميلة رمز الربوبية والسيادة ، إذ كل رب يحب المظلة . ومنهم من تقدم للربة تمثال عين من الفضة شكراً لنجاة الطفل من الرمد ، وقد ترى هنالك طفلا يوزن بالسكر أو التمر وفاء للنذر في أثناء المرض ، والطريف في الأمر أن سادن المحراب يأخذ شطر القربان ويوزع الشطر الآخر على الاطفال الحاضرين » .

وفي الشرق الأوسط

هذه المواسم لها نظائر في الشرق الاوسط عند توابيت الاولياء الذين يحرسون الاطفال خاصة في اعتقاد أبناء الاقليم ، وقد رأينا بعضهم يؤخر حلاقة شعر الطفل إلى أن يحلق في مقام الولي المقصود ، ويملأ راحتي الطفل الصغير حسب اقتداره سكراً ، أو تمراً ، او حبوباً ، او ما شاكل ذلك من الهدايا والالطاف، وبعضها يكال بهذا الكيل مرتين : مرة لشيخ التابوت ومرة للفقراء والمتسولين .

الأعياد في الهند

ومن الاعياد التي يحتفل بها أهل الهند عيد الاداة أو الآلة التي يستخدمها الصانع في صناعته ، ونحسب ان المهاتما الكبير قد استطاع الاعتماد على هذه العادة القديمة لتقديس المغزل ، فأصبح بفضله علماً من أعلام البلاد .

ولا يظنن أحد ان أعياد السلامة مقصورة على أهل الهند وعلى السلامة من الاوبئة والآفات ، فإننا إذا رجعنا إلى تسمية العيد في الغرب باليوم المقدس

Holiday علمنا ان الـكلمة مأخوذة من يوم السلامة بمناهـــا الحرفي الاصيل ، فإن كلمة « هولي » مشتقـــة من الصحة والتام ، ويقال صححه أي جبر كسره وأعاده سليما كما كان . ومـــا هو معنى السلام نفسه ان لم يكن مرجعه إلى مثل هذا المعنى .

الطبيعة البشرية والأعياد

لقد صدق من قال : ان الإنسان انسان حيث كان وان الطبيعـــة البشرية واحدة في كل مكان وزمان . فإذا حمد الناس السلامة والسلام في بلد بعيد أو قريب ، فكن على ثقة أنهم يحمدونها في كل بلد متصل به او منفصل عنه ، وإذا كانت الاديان قد حولت الخيرات المحتفل بها في الاعياد من خير الجوف والجلد إلى خير النفس والضمير فكذلك قـــد تحول معنى السلامة من تمام الجسد إلى تمام الروح .

وخير تهنئة في العيد ، كيفما كان العيد ، ان تتمنى للناس الخير والسلامـــة بمعناهما معاً : خير الابدان وخير الارواح والاذهان .

وكل عام وانتم بخير وسلام .

خواطر في رأس السنة الهجرية

وضعت التقويمات الفلكية لضبط الزمن وتقييد مواعيده وتطويعه للحساب الذي تجري عليه الشهور والسنون ، ولا بد أن تجري عليه الاحقاب والدهور !

ثم يأبى الزمن إلا ان يلقي عبرته على كل معتبر .

ويأبى الا أن تكون التقويمات نفسها مظهراً لهذه العبرة الخالدة التي لا خلود لعبرة سواها .

وعبرته الدائمة الا دوام !

وكذلك تحدثنا التقويمات التي وضعت « لضبط » الزمن المغير المتغير ، وتقييده بوتد وإلجامه بلجام .

فما من تقويم من تلك التقويمات الفلكية بقي اليوم على الحساب الذي وضع عليه .

ومن شاء تمام العبرة فتمامها العجيب ان التقويم الذي بقي كما كان يوم وضعه هو التقويم الذي يقال انه غير صالح للبقاء ، لانه لا يصلح لحساب أعمال المعيشة ومواسم الزرع والحصاد .

وذلك هو تقويم السنة الهجرية !

فمنذ وضع هذا التقويم لم يتغير له نظام ، وقد تغير بعده نظام كل تقويم قديم .

الشمس بعد القمر

كان مدار التقاويم جميعاً على السنة القمرية ، وكان اسم الشهر في أكثر اللغات مشتقاً من القمر ، وكان تقسيم الاسابيع مأخوذاً من التربيعات القمرية ، ثم جاء تقسيم الايام على حسب أيام الاسبوع ، ثم جاء الأسبوع جامعاً لكواكب السماء الكبرى في تقدير الاقدمين ، فكان منه يوم لزحل ويوم للشمس ويوم للقمر ويوم للمريخ ويوم لعطارد ويوم للمشتري ويوم للزهرة ، وانتظم للأقدمين بذلك حساب السبعات وحساب الأربعات ، وهما المددان المقدسان في الارض والسماء .

ثم كبر النوع الإنساني عن أفق القمر وتطلع من فوقه إلى أفق الشمس الكبرى ، ولكنه حاول ان يفرض عليها المسير كما يريد او كما أرادته العقيدة التي يؤمن بها في ترتيب مواسمه وأعياده وتوقيت عباداته وشعائره فلم يزل مع الشمس في خلاف إلى هذه الساعة ، وقد يبلغ به الغرور ان يترقب منها التحول على هواه ، لولا أنها لا تستطيع ذلك وان صحت عزيمتها عليه لانه هو نفسه لا يتفق على هواه ، فان سمعت الشمس لاصحاب هذا المذهب غضب عليها أصحاب مذهبين او ثلاثة مذاهب تنكره وتحكم عليه بالكفر والجحود ، وسبيلها إذن ان تصطنع الصمم عن نداء الجميع ، وتطلع حيث تطلع او تدور حيث تدور الى يوم يتفقون ، ولعله قريب من يوم يبعثون !

ومنذ ستة عشر قرناً لم يتقدم بنو آدم وحواء خطوة واحدة في طريق الإتفاق .

ففي القرن الثالث للميلاد حاول أحبار الدين ان يوفقوا بين مواعيد الارض والسماء فلم يفلحوا .

وفي هذا القرن العشرين ينتقل السلطان من أحبار الدين إلى مجالس النواب او الى المجالس الدولية ، فيحبط القرار الذي أصدره أقدم المجالس البرلمانية في العالم ، كما حبط القرار الذي أصدرته عصبة الأمم رحمها الله ، وتظل الارض في ناحية والسماء في ناحية كلما وقع الخلاف على مواعيد الاعياد .

خلاف .. وأشكال

وحسناً صنع الدينيون والدنيويون الذين أعرضوا عن القرارات في العصر الحديث كما أعرض اسلافهم عن قرارات العصر القديم ، فانهم لو قبلوها واتبعوها لم يستغنوا بعد سنة او سنتين عن اعادة البحث في تعديلها لاسباب غير الاسباب التي كانت تدعو الفلكيين والاحبار ورجال السياسة الى تعديل التقويمات في العصور الغابرة .

فقد كان الاقدمون يعدلون التقويمات ليجبروا كسر الساعات الناقصة ويمنعوا زحف الفصول مع الأزمنة المتطاولة ، ولكنهم اليوم ينظرون في تعديل السنة الشمسية لخلل في تركيبها وتقسيم أجزائها لا يسهل التغاضي عنه في عصر تحسب فيه جداول الطيران بالدقيقة والثانية ، وتنقسم فيه المواسم على حسب الإحصاءات الشهرية والاسبوعية ، وينشأ من فرق يوم فيه خلل خطير يصعب تداركه على أصحاب الأعمال .

فإذا حسبنا السنة شهرين فعندنا من أشهر الشتاء شهران عـــدة أيامها تسعة وخمسون يوماً في بعض السنوات وستون يوماً في سنوات أخرى وهما يناير وفبراير ، وعندنا من أشهر الصيف شهران عدة أيامها اثنان وستون يوماً في جميـــع السنين هما يوليو وأغسطس .

وإذا حسبنا السنة نصفين ، فنصفها الأول مائة وواحد وثمانون يوماً تارة ، ومائة واثنان وثمانون يوماً تارة أخرى ، ونصفها الآخير مائة وأربعة وثمانون يوماً في جميـع السنين .

ومثل هذا التفاوت لا ينتظم عليـــه الحساب الدقيق في عصر السرعة وعصر الإحصاءات .

تقويم عالمي

ولهذا انشئت منذ أربـع وعشرين سنة جماعة كبرى تسمى جماعة التقويم العالمية تبلغ فروعها بين أقطار الأرض نحو الأربعين ، وتقترح تقويماً يبدأ في كل سنة بيوم الأحد ويمكن تطبيقه في سنة تبدأ على التقويم الجريجوري أيضاً بهذا اليوم ، وأقرب هذه السنوات سنة ١٩٥٦ ، ثم سنة ١٩٦١ وهي عند الجماعة

أصلح للابتداء بها ريثما تستعد المطابع والهيئات المختلفة للعمل بالتعديل الجديد .

وخلاصة التعديل الجديد ان يوضع بعد اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر يوم يسمى اليوم العالمي وان تنتهي كل سنة بيوم سبت وتبدأ كل سنة بيوم أحد ويضاف يوم عالمي آخر بعد آخر شهر يونيو في السنوات الكبيسة ، ثم يأتي تقسيم الشهور بحيث يشتمل كل شهر على ستة وعشرين يوماً ، تضاف اليها أيام الآحاد ، وتصبح السنة على هذا مقسمة إلى أربعة أقسام كل قسم منها واحد وتسعون يوماً بلا اختلاف في مواعيد عودة الأيام .

فإذا شاعت فكرة هذا التقويم من الآن إلى سنة ١٩٦١، فلا نظن ان ابتداء السنوات بيوم الأحد يحول دون قبول التعديل عند الأمم التي لا تدين بالمسيحية، فان يوم الأحد لم يكن يوم المسيحية من قديم الزمن ، وإنما كان يوم الشمس في التقويم البابلي قبل موسى ومولد المسيح عليهما السلام .

السنة الهجرية في أمان

وبين هذه المقترحات والمشاورات تدرج السنة الهجرية خطواتها الاولى في سلام وأمان وتقضي عبرة الزمن — أبي العبر — أن يحيئها السلام والامان من حيث خيف عليها الزوال لانها لا تسلك مع الناس مسلكهم في مواعيد الزراع وجباة الاموال .

فالسنة الهجرية تأمن اليوم التعديل والتبديل لانها سنة روحانية لا ترتبط بمواسم المعيشة وأوقات الدواوين .

فالناس لا يرتقبون اليوم ربيعا الاول وربيعا الثاني ، لانهما موسم الربيع ، ولا يرتقبون جمادى الاولى وجمادى الثانية لانهما موسم القر الذي يجمد فيه الماء ، ولا يرتقبون رمضان لانه يجيء بالرمضاء او شوالا لانه شهر تشيل فيه الإبل او تشال فيه الخيام .

كلا . بل هم يرتقبون شهرها التاسع لانه شهر الصيام ويرتقبون شهرها العاشر لانهم يحجون فيه ويعيدون فيه عيدهم الكبير .

عبرة وتذكرة

وما دام في الدنيا أناس يصومون ويحجون ففيها سنة هجرية لا تبالي شيئاً بنظام التقاويم ، ولا تحتاج إلى اختراع قمر تدور عليه لان هذا القمر القديم ستبقى له مطالعه ومغاربه، وتبقى له علاقاته بالمد والجزر، ورحلات البر والبحر والهواء، ولن يستغني عن أسماء شهور تدور معه حيث يدور .

وقد اعتصمت التقاويم بضرورات المعاش فلم تعصمها من التعديل والتبديل بين جيل وجيل .

فاذا بقيت السنة الهجرية بغير تعديل ولا تبديل فلعلها تذكر الناس من جيل إلى جيل ان الفلك الروحاني أثبت من أفلاك الاجساد والاموال .

شعبان ونصف شعبان[1]

كان شعبان يسمى في الجاهلية « عاذلا » من العذل أي. الحرارة ، لأنه كان يأتي على الدوام بعد الربيع وفي أوائل الصيف، ومادة « عذل » كمادة « لذع » تفيد معنى الحرارة في اللغة العربية .

ثم غلب عليه اسم شعبان قبل الإسلام بنحو مائتي سنة، وقيل في سبب هذه التسمية ان القبائل تتشعب فيه طلباً للماء والغارة ، لان شهر رجب الذي قبله شهر حرام يمتنع فيه القتال والحركة ، فاذا انتهى خفت القبائل إلى حيث تجد الماء والغنيمة .

وقيل انه سمي شعبان لان أعواد النبات تتشعب فيه ، فهو موسم المرعى والارتياد ، ولهذا زعم الزاعمون ان شجرة الحياة تتجدد في وسطه ، فيسقط منها الورق الذابل وينمو الورق الاخضر ويزدهر ، وتنقضي أعمار وتبتديء أعمار .

وقد كان شعبان يعود في موعده من فصول السنة كل عام ، لان عرب الجاهلية كانوا يضيفون تسعة شهور إلى كل أربع وعشرين سنة . فتبقى الشهور في مواعيدها من الفصول ، وتصبح السنة قمرية شمسية بهذا التقويم .

وكانوا يعتمدون أول الأمر على أحبار اليهود في حساب أيام الكبيس ، ثم

---

(١) الهلال مايو ١٩٥٣

تولى هذه الحسبة بنو مالك بن كنانة ، وجعلوا يتصرفون على هواهم في التأخير والتقديم لينسأوا الاشهر الحرم إلى ما بعدها ، أي ليؤجلوا الاشهر التي يحرم فيها القتال ويستبيحوا الحرب متى طابت لهم ، وفي هذا يقول عمرو بن قيس :

ألسنا الناسئين إلى معد شهور الحل نجعلها حراما

وهذا خطأ من الشاعر ، لانهم كانوا يؤجلون شهور الحل كثيراً لتطول أيام القتال وتقصر أيام السلام ، وقد يرجئون القتال في موسم التجارة ثم يعودون اليه كرتين .

ولهذا حرم الإسلام النسيء منعاً لتصرف الاهواء في مواقيت الشهور ، ومنها مواقيت الحج والصيـــام .

الا اننا ينبغي ان نذكر في تاريخ شهر شعبان حقيقتين لازمتين لتفسير بعض ما قيل عن خصائصه وكراماته ، وهاتان الحقيقتان هما :

أولاً — انه كان شهر النمو والايراق .

ثانياً — ان اليهود كانوا يتولون أمر النسيء قديماً في الجاهلية ، فكانوا يخلطون بين خصائص الشهور في السنة العربية والسنة العبرية ، عامدين او غير عامدين .

* * *

كنت القارىء المفضل لدعاء نصف شعبان قبل العاشرة من عمري ، وكان العرف الشائع ان دعاء الصبي أقرب إلى القبول ، لانه بريء القلب لم تتمرس طبيعته بشرور الطمع ورذائل الشهوات .

وكانت معرفة القراءة نادرة فيمن لم يبلغوا العاشرة ، فكان طلاب الدعاء يتسابقون إلى دعوتي لتلاوته عليهم وقيادتهم في ترديده ، فحفظته لانني كنت أتلوه واعيد تلاوته مرات .

وقد كان عجبي يزداد كلما سمعت القوم يتحدثون عن بركات نصف شعبان ، وكنت مع العجب الذي يزداد سنة بعد سنة اشتاق ان اعرف الحقيقة القاطعة في هذه الاقاويل الشائعة ، فراعني ان اسمع من استاذنا الجداوي — عالم اسوان وفقيهها في ذلك العصر — ان كل ما يقال بدعة مكروهة ! وظهر تفسير جزء

« م » للاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فقرأت فيه تأييداً لذلك ووجدتــه يقول : « وأما ما يقوله الكثير من الناس من ان الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شعبان وان الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار .. فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم ﷺ ، ومثل ذلك لم يرد لاضطراب الروايات وضعف أغلبها وكذب الكثير منها » .

وفتوى الأستاذ الإمام هي القول الراجح بين الفقهاء ، فمن المتفق عليه ان الآحاديث التي أشار اليها ضعيفة او مكذوبة ، وان أصحاب مالك وأبي حنيفة كرهوا تلك البدعة التى أحاطت بأخبار ليلة نصف شعبان وأعرضوا عنها ، ولم يقبل عليها أحد من أصحاب الائمة الآخرين .

وغني عن القول ان الدعاء إلى الله في كل وقت او كل ليلة أمر لا بدعة فيه ولا غبار عليه ، وإنما يكره الفقهاء ما يقال عن شجرة الحياة وكتابة الأرزاق والأعمار وتعلق ذلك بموعد محدود وشعائر مرسومة ، لم يؤثر منها شيء عن النبي عليه السلام ولا عن أصحابه والتابعين .

أما الاحتفال « الرسمي » بالليلة فقد شاع واشتهر في أيام الدولة الفاطمية ، وهي كما يعلم القراء عظيمة العناية بالمواسم والأعياد، وان لم يكن للدعاء المحفوظ شأن معدود في ذلك الاحتفال .

وكان من عادتهم إذا اقترب النصف من شهر شعبان أن تحمل إلى دار القاضي ستون شمعة من حواصل الخليفة ، زنة كل شمعة منها سدس قنطار ، ليركب بها في موكبه إلى منظرة الخليفة ، ويخرج بين صفين من الخاصة في كل صف منهما ثلاثون شمعة ، وفي ركابه المؤذنون يعلنون الذكر والدعاء ، ومن حاشيته كبار رجال الدولة وأمامهم الشموع والشارات ، حتى ينتهوا إلى الباب المعروف بباب الزمردة من أبواب قصر الخلافة ، فتفتح فيه طاقة يرى منها وجه الخليفة ويده وهو يومىء بالسلام ، ويتقدم للخطبة امام الجامع الأنور « بباب البحر » ثم يختم خطبته بالدعاء للخليفة ، ويعقبه خطباء من الجامع الأزهر وجامع الحاكم ، ثم يعود القاضي في موكبه إلى دار الوزير ، وتضاء المصابيح ويوقد التنور وفيه ألف وخمسمائة براقة ، وبأسفله نحو مائة قنديل .

وكانوا يصنعون مثل ذلك في أول رجب ونصفه وأول شعبان ، وكله من المواكب التي يركب فيها القاضي ولا يحضرها الخليفة بموكبه ، بل يجلس فيهـــا للتحية كما تقدم .

* * *

ما أقرب التاريخ وما ابعده !

قلما يخطر على البال ان قصة الشجرة التي اضافها الرواة إلى اخبار نصف شعبان قد مضى عليها اكثر من ثلاثين قرنا قبل ان تصل الينا وتشيع بيننا .

وقلما يخطر على البال ان تلك الشجيرة نبتت في ظلال الأقدمين من اهل بابل قبل ان يسمع بها اليهود ، وقبل ان ينقلها رواة « الإسرائيليات » إلى العامة من اهل البلاد الإسلامية .

فما اقرب التاريخ وما ابعده ، وما اصدق القائلين انه يعيد نفسه ، واننا نعيده في اعياد وغير اعياد !

كان البابليون يحتفلون برأس السنة الزراعية ، وكانوا يتخيلون للحياة شجرة تذبل وتزدهر كل عام على السنة المعهودة في الأشجار ، وكانوا يحسبون ان الأعمار قرعة تصيب من يتقرب إلى الأرباب ، وتخطيء من ينسى القربان والوسيلة

ودخل الاحتفال بعيد القرعة في عداد المواسم الاسرائيلية ، وسمي بعيد « الفوريم » اي النصيب ، وقيل في سبب الاحتفال به انه ذكرى لنجاة اليهود من كيد هامان بشفاعة استير ومردخاي .

ومن الثابت ان هذا العيد طاريء على التقاليد الإسرائيلية ، وانه اضيف إلى الأعياد على ايام المكابيين ، وجاء في كتاب « المجلة » التي تشرح التلمود كلام عن التقاليد المرعية في الفصل الرابـع عشر منها فحواه : ان المأثورات كلها قد تمت على ايدي ثمانية واربعين نبياً « منهم الآباء الأولون » وسبع نبيات منهن استير ... وانها لم يزد عليها بعد هؤلاء الأنبياء والنبيات الا تلاوة قصة استير في عيد الفوريم .

ولا تخفى المشابهة بين استير ومردخاي ، وبين الربين عشتار ومردوخ في تاريخ البابليين الاقدمين .

ولقد شاع الكلام على تحديد المقادير والارزاق في جميع الاعياد اليهودية ،

وهي عيد الفصح ، وعيد العنصرة ، وعيد المظال ، وعيد رأس السنة « روش ها الشنه » بعد ان كان ذلك مقصوراً على العيد الاخير .

وإذا رجعنا إلى الاقاويل عن نصف شعبان في بعض كتبها التي لا نحب ان نذكرها وجدناهم يقولون : ومن اسمائها ليلة الحياة كما رواه اسحاق بن راهويه بسنده عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: إذا كانت ليلة النصف من شعبان لم يمت احد بين المغرب والعشاء لاشتغال ملك الموت بقبض الصكاك من ربّ العالمين! ».

وقال غيره : « ومن اسمائها ليلة التكفير » ... وهذا خلط بين هذا اليوم ويوم « الكبوريم » اي التكفير عند الإسرائيليين .

ومثل هـــذا الخلط كثير في الروايات التي ينتهي سندها إلى اصحاب الإسرائيليات ، واجمع الثقات على انه سند ضعيف او مكذوب .

وعند التصفية ترجع بنا طائفة من قصص شعبان إلى فترة الجاهلية ، وترجع بنا طائفة غيرها إلى تراث اسرائيل ، وترجع بنا الطائفة الاخرى مرحلة اسبق واعرق الى تخوم المجاهل البابلية .

والحلال بيّن ، والحرام بيّن .

فأما الحلال الذي لا اعتراض عليه من هذا كله فهو التوجه إلى الله بدعاء خالص لا يشوبه حساب القرعة ولا حساب الصكاك !

في الحرم

ركبنا البحر ونحن لا نعلم على التحقيق أين نلقى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، لان برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان .

فمن الجائز ان يكون في جدة ، لأنها الميناء الذي ينتقل منه جلالته إلى يخت المحروسة ، ولجلالته قصر منيف في ارباضها هو القصر المعروف بقصر خزام .

ومن الجائز ان يكون في مكة المكرمة ، لان اليخت يصل إلى جدة قبل سفر جلالته بيومين .

فإذا كان استقبال البعثة الملكية في جدة فلا عمرة ولا إحرام ، وإذا كان الاستقبال في مكة المكرمة ، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام .

ولكن كيف السبيل إلى الإحرام؟وكيف السبيل إلى خلع المخيط في الشتاء، وإن كان الجو في مكة ادفأ من جو القاهرة بدرجات ؟

إنني ألبس الصوف شتاء وصيفاً منـــذ خمس وعشرين سنة.وإذا صح ان « الصوفي » منسوب إلى الصوف ، فليس على ظهر الارض رجل احق مني بهذه الصفة ، فكيف السبيل الى التحلل من هذه الصفة التي لصقت بالموصوف ، فلا فكاك منها ولا فرار ؟

جاءنا النبأ في عرض البحر بأن صاحب الجلالة عاهل الجزيرة العربيـــة

(١) الهامش ص ٢٢٣

يستقبلنا في قصره العامر بمكة المكرمة ، فنوينا الفدية ،ونوى أصحابنا الإحرام ، ولم يبق معي بملابسه غير الأستاذ عوض البحراوي بك وزير مصر المفوض في المملكة السعودية ، لأن الإحرام لا يلزمه ، وإنما يلزمه أن يطوف بالكعبة عند مغادرة مكة طواف الوداع .

وقد خصصت الحكومة السعودية قصر « الكندرة » بجدة لتبديل الملابس قبل المسير إلى الحرم الشريف .وتولى الإشراف على راحة البعثة ومن معها صاحب المعالي الشيخ يوسف ياسين وزير الدولة ، وصاحب العزة الأستاذ فؤاد شاكر مدير المطبوعات . فلما تهيأ أصحابنا للسفر تحرك الركب بالسيارات ، فكان من نصيبي الركوب في سيارة الوزير المفوض عوض البحراوي بك ، وهو رجل فاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها ، فانعقدت بينه وبينهم صلات المودة والزمالة ، وارتفعت بينهم الكلفة كل الارتفاع فيما عدا المراسم التي تقضي بها المعاملات الدولية ، وقد عبر الطريق مرات فعلمت منه كل ما احتجت إلى علمه من معالمها وأحوالها ، ووصلت إلى مكة بزاد غير قليل من المعرفة العملية بالحجاز .

هذه جبال مكة .

وهذا جبل حراء .

بلغناه بعد ساعة ونصف ساعة من السير المعتدل في السيارة ، ومررنا اليه بمناظر كثيرة نرى أمثالها في بلادنا ، ولا سيما بلدي الذي نشأت فيه ، وأعني به أسوان : جبال وبطاح ومراع يتخللها العشب في الأودية والسفوح ، وبعض الجبال يليح لنا بألوان المعادن التي يحتويها ، وبعض البطاح ينم على مجاري الماء في باطنه القريب .

كل ذلك مألوف نرى أمثاله حيث نشأنا على مقربة من صحراء أسوان ، أما الجديد كل الجدة على النظر وعلى النفس فهو غار حراء .

هو قمة مرتفعة في جبل ، كأنما بنيت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى ، ولكنها عسيرة المرتقى لا يبلغها المُصْعِدُ فيها إلا من شعابه وراء شعاب .

أخبرني من صعدوه انهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقاه وان القليل من الناس يصمد في صعوده إلى نهايته العليا ، حيث كان الرسول عليه السلام يتنسك ويبتهل إلى الله .

والحق ان الرؤية غير السماع .

والحق ان ما يلمحه الناظر في نظرة خاطفة قد يعيا الكاتب بوصفه في الصحف والأسفار .

والحق اننا قرأنا ما قرأنا عن الجبل وعن الغار ، ثم نظرنا اليها ، فعلمنا ان القراءة قد تركت الكثير من فراغ النفس لتملأه هذه النظرة العابرة في الطريق .

مررنا به عابرين كما كان سكان البلاد يمرون به غادين رائحين في غفلة من ذلك الرجل المفرد الذي يأوي اليه ويسكن إلى غاره .

كانوا في غفلة عن ذلك الرجل المتوحد في سبيل التوحيد ، كما كان العالم كله في مثل تلك الغفلة وفي مثل تلك الظلمات .

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور ، فلما انقضت مدتها لم يبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار ، أو جاهل بآثار تلك الساعات التي كان يقضيها فيه بالليل والنهار .

وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتقاه لتحيط بعض الاحاطة بتلك النوازع المرهوبة التي كانت تنهض بالرسول في صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأياماً بعد أيام .

كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة في نفسه الشريفة ، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة ان تدفع بالعالم كله في طريق غير طريقه ، وإلى غاية لم تكن له من قبل في حساب ، فلولا لاعج من الشوق الإلهي ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف .

ان اللواعج التي حملت الرسول إلى مرتقى الغار هي السر الروحاني الذي استجاش العالم كله بعد ذلك في حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الأسوار والحدود .

وكل أولئك كان في نشأته الأولى خاطراً في قلب رجل وحيـــد ينفرد في سبيل التوحيد .

وكل ذلك السيل الجارف انما تجمع قطرات قطرات عند هذه القمة العالية .

كل ذلك كان في هذا المكان .

وعبرنا خاشعين مطرقين ، وسكتنا لأن مهبط الوحي هنالك قد ألهمنا السكوت .

مكان آخر عند الكعبة كان له في قلوبنا مثل هذا الخشوع ومثل هـــذا الرجوع مع الزمن إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد .

ذلك هو موقف الدعـــاء الذي كان الرسول عليه السلام يختار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعا إلى الله .

أنت هنا لا ريب في مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم،ذلك السر السرمدي الذي تتعلق به مقادير التاريخ ومصائر الأمم وضمائر بني الإنسان ، ذلك الإنسان الذي يقترن اسمه في صلوات الالوف بعد الالوف باسم خالق الكون العظيم .

أنت هنـــا تقف حيث وقف وتدعو حيث دعا وتنظر حيث نظر وتحوم بنفسك حيث حام في اليقظة لا في المنام .

قيل لنا : هنا يستجاب الدعاء .

قلنا نعم : هنا أخلق مكان أن يستجاب فيه دعاء ، والهم الله كلا مـــن الواقفين معنا ان يدعو دعاءه وأن يستجمع في الدنيا والآخرة رجاءه ، وساق إلى لساني هذه الدعوة فدعوت : اللهم أولني ما أريد لي وللناس ، واجعل الخير كل الخير فيما أريد لي وللناس ، وما بي من حاجة في الحيـــاة إذا استجيب هذا الدعاء .

منظر ثالث أخذني بجماله في جوار البيت الحرام ، وهو منظر الحمام الآمن الوادع في ذلك المقام .

لا يخشى ولا يفزع ، بل يظل طوال نهاره في طواف على الأرض وطواف على الهواء .

وأعجب ما سمعت ورأيت أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات .

وقد سمعت بهذه الخاصة في حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته في طواف

العمرة وطواف الوداع تحريت ان اتعقبه في كل مذهب من مذاهب مطاره ، فاذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور .

أدبُ الناس في هذا المقام المهيب نعرف سره ونعرف مصدر الوحي منه إلى القلوب الآدمية .

أما أدب الطير في هذا المقام فسره عند الله .

وأمْنُ الحمام يذكرني بأمن السائلين فيجوار الكعبة وجوار المسجد الحرام .

انهم ليتدفعون حول الزائرين ولا يتجملون كما يتجمل الطير فيقطع بعضهم رزق بعض ، ولا يُدَعون لمن يريد ان يعطي سبيل العطاء .

وهم في أمان لا يُهانون ولا يصيبهم الأذى من الشرطة في جوار البيت الذي يأمن فيه الخائفون .

وحسن هذا وايم الله

وحسن أن يأمن المساكين كل سطوة في حرم الأمان ، وأحسن منه ان يحميهم الوازع من القلوب والعقول لا من العصي والسياط .

فان كان في تهافت السائلين على صغائر الدنيا غضاضة فإن في هذا الأمان لقداسة البيت العتيق ، وانه لمن القداسة أن يتعلم الإنسان كيف يجيب من يسألونه ، وهو يدعو الله ويرجو أن يستجاب .

الفصل الرابع

الإسلام والمسلمون

الإسلامُ والعَرَب

كتاب الإسلام والعرب Islam and The Arabs تأليف الأستاذ روم لاندو Rome Landau واحد من هذه الكتب التي تصدر في اللغات الاوربية بالعشرات عن الإسلام والعرب منذ الحرب العالمية الثانية ، ويسلك مؤلفوها في الوصف والتعليق مسلكاً يخالف المسلك الذي درج عليه سماسرة التبشير والمطامع السياسية منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ولن تزال له بقية تتردد من حين إلى حين ، في بعض الكتب « الرسمية » والشبيهة بالرسمية .

فكتب التبشير والسياسة وغيرها تتعمد التشهير والبحث عن المساوىء في روايتها عن أحوال الامم الإسلامية والعربية ، وقراؤها يتطلبون منها هذا التشهير ويستريحون اليه على سنة التقليد التي توارثوها من القرون الوسطى .

وعلى غير هذا النمط يكتب الرحالون والمطلقون من المحدثين الذين نلمح في مصنفاتهم نزوعاً إلى الانصاف وإعراضاً عن التلفيق ، فإنهم يحاسبون أنفسهم ويشعرون بحاسبة قرائهم الذين نشأوا بعد الحرب العالمية متشككين في كل تقليد قديم ، ومنه تقليد الطعن في الامم الاخرى ، وبخاصة أبناء الامم الشرقية والغرباء عن أوربة على التعميم .

ويعزى هذا التحول إلى أسباب منوعة ، كما ذكرنا في مقال سابق : منها نشوء تلك الطبقة الحديثة من القراء المتحررين من سلطان زعمائهم الاقدمين ، والمتشككين في كل عرف موروث يمليه أولئك الزعماء .

ومن أسباب التحول غلبة الاسلوب العلمي وما يلازمه من مناهج التقرير والتحقيق في عقول الكتاب والقراء على السواء . فإن هـــذه المناهج بطبيعتها تفضح من يصطنعها ولا يتحرى الامانة في اتباعها ، وقد يحرص الناشرون كما يحرص الكتاب على سمعة بضاعتهم بين جمهرة القراء العصريين وهم يطلبون غير ما يطلبه قراء التبشير وسماسرة الإستعمار .

ومن اهم أسباب التحول سهولة الإنتقال بين الأقطار والاختلاط بين الامم ، وصعوبة الاصرار على الاكاذيب في عالم تتردد عليه أخبار الإذاعة والصحافة من كل طرف وعلى كل صيغة ، ويوجد فيـــه المروجون والمفندون لكل دعوة يتنازعها الاضداد المخلصون وغير المخلصين، ومثل هذا العالم يفرض على رواته ومؤرخيه أسلوباً لم يكن بالمفروض على الرواة والمؤرخين في العصور الغابرة ، إذ كان الراوية يلقي الخبر وتمضي عليه الشهور والاعوام قبل ان يتبعه من يؤيده او ينفيه ، وربما قيل يومئذ عند تكذيب الخبر ان الامور خليقة ان تتبدل في مدى الشهور والاعوام فلا يشهد المؤرخ في هذه السنة ما كان يشهده سابقوه قبل بضع سنوات .

واهم أسباب التحول في أسلوب الرواة والملقين على أنباء الشرق والإسلام او الامم الشرقية والإسلامية قد اصبحت في عداد القوى العالمية التي يحسب لها حسابها ويتحرج المسئولون واصحاب الآراء من اغضابها والاساءة اليها . وقد يكون الإنصاف تمحيصاً علمياً ومصلحة سياسيـــة في وقت واحد ، فلا يعدم من الناشرين والقراء من يقبلون عليه ، ولا يعدم من الساسة وذوي الآراء من يشبهونه ويميلون اليه .

إلا ان هذا التحول يوشك ان يخدعنا عن الحقيقة كلها ان لم نعرف دلالته بغير مبالغة في قيمته وأثره .

فليس قراء الغرب جميعاً منصفين ، وليس كل المنصفين منهم مشغولين بأمور الشرق والإسلام وقد يكون في عالم النشر والتأليف عندهم من يغضبهم انصاف المسلمين والعرب على التخصيص دون أبنـــاء الامم الشرقية الاخرى ، الذين يدينون بغير الإسلام ويتكلمون بغير العربية ، وقد يمهد هؤلاء المغرضون إلى

الإنكار الصامت إذا انسوا بين القراء نفوراً من الإنكار الصريح والافتراء المكشوف .

وينبغي أن نذكر جيداً ان الصهيونية بالمرصاد ، وأنها في ميادين النشر والاعلان اخطبوط لا تسلم من أيديه الظاهرة والخفية شعبة من شعب الثقافة ، او الدعوة في القارات الاوربية والآسيوية والافريقية ، ولا نخال ان هذا العدو اللئيم يرى خبراً واحداً مرضياً عن العرب والإسلام ثم يتركه للنشر والإذاعة إذا تمكن من طمسه واخفاء معالمه ، وهذا هو الإنكار الصامت الذي نعنيه ونحسبه ميسراً للصهيونية العالمية وأذنابها في دور والإعلان إذ هو ولا ريب أيسر عليها من الحملة الصريحة التي لا تتيسر في جميع الاوقات حيث تقضي السياسة أحياناً بمجاملة العرب وأصدقائهم في المعاملات الدولية .

وبين أيدينا مراجع شتى نلمس فيها أصابع هذا العدو اللئيم بينة واضحة تنم على أصحابها ، ولا يعقل أن تحدث عفواً ولا أن تنسب إلى مصدر غير المصادر الصهيونية . .

فمن المراجع التي ظهرت حديثاً موسوعة شاملة لأصول الأدب والبلاغة في اللغة الفرنسية ، تتوسع في الكلام عن حركات الثقافة ومدارس الشعر بين القرن الخامس للميلاد ومنتصف هذا القرن العشرين ، ولكنها تقتضب القول فجأة كلما انتهى بها البحث إلى فضل الأدب الأندلسي على مدارس الشعر والغناء في أقاليم فرنسا الجنوبية ، فتسكت عن كل اشارة إلى هذا الفضل ولو من قبيل الإلمام بمختلف الأقاويل ، وتذكر كل أثر مظنون او مفهوم إلا ما كان فيه اعتراف بوجود العرب الأندلسيين ، او المشابهة بين منظوماتهم وأغانيهم وبين منظومات الفرنسيين الجنوبيين ، وقد اتفقت الآراء مع هذا على تأثير الأدب العربي في الأوزان والموضوعات ، بل في الأزياء والشارات التي شاعت بين طائفة « التربادور » المشهورين ، ولم تكن لهم شهرة قبل ظهور الآداب الأندلسية ، وشيوع طرائقها في الغزل والتشبيب .

* * *

ويشعر القارىء بمثل هذا الاقتضاب ، كلما وصل البحث إلى أثر الفلسفة او

الفقه او مقتبسات الحضارة وفنونها ، مع اقحام أسماء اليهود لغير مناسبة هنا وهنالك كما تقحم الرقعة المستعارة ، وربما كان منهم تلاميذ معترفون بتلمذتهم لاساتذتهم الاندلسيين المسلمين .

إذا احتاجت هذه العداوة المدسوسة وأمثالها من العداوات الصامتة إلى كشف وتلبيه فلا حاجة بالحملات الصريحة إلى من يكشفها وينبه اليها ، وكل ما يصح ان يقال عنها في هذا الصدد: انها اليوم أقل وأهون من نظائرها قبل الجيل الحاضر ، وانها عرضة للاتهام والريبة بين خيرة القراء .

ولا يخفى أن معرفتنا بالعالم لا تغنينا عن معرفة العالم بنا، واننا كلما أحسسنا بأعبائنا في مشتبك العلاقات العالمية وجب علينا انتثبث من مكاننا بين الأمم، على أساس الفهم والانصاف ، وبخاصة في تلك المسائل التي يرتبط بها كيان الأمة كمسائل العقيدة والثقافة ، ومسائل التراث السلفي والغاية التي ننساق اليها على هدايته في سعينا إلى المصير المنظور .

فإذا نظرنا إلى كتابات الأقوام الغربية عنا فقصارى ما نفهمه من نزعة الانصاف عند بعضهم أن هنالك استعداداً لقبول صورة صحيحة عن الإسلام تؤديها نحن ولا يملك أحد غيرنا أن يحسن أداءها ، وأننا لا نزال مطالبين بالعمل الحثيث لندفع مكائد الصامتين والناطقين من أعدائنا ، وقد صنعوا كثيراً ولم نكد نحن نصنع شيئاً يحبط مكائدهم ، كأنما نلقي العبء كله على أولئك الكتاب الغرباء الذين نزعوا منزع الإنصاف .

* * *

ونعود إلى الكتاب موضوع هذا المقال ، فنوفيه كل حقه من التقريظ من وجهة النظر الإسلامية إذ نقول : انه على مثال الكتب التي يؤلفها الغرباء عن الإسلام وتنوب عن كتابة أهله في ابراز محاسنه وتصفية تاريخه من شوائب المسخ والتشويه ، لو جاز للمسلمين أن يقنعوا بالإنابة دون الاصالة في هذا المقصد على التخصيص ، وهو مما لا يجوز ولا ترتضيه لنفسها أمة تأنف أن تكون عالة على الغرباء في أمر من الامور ، وندع منها أمر الدفاع عن العقيدة والتاريخ .

فالأستاذ « روم لاندو » مثل صالح للمستشرقين الذين يقيمون في البلاد الإسلامية ويذكرون لها عهد الوفاء بحقوق الصحبة والضيافة ، وهو في هذه

الخصلة على نقيض أولئك الطرّاق المسخرين للاستعمار والتبشير الذين يزورون بلادنا ويعيشون فيها كأنهم يطيلون الإقامة فيها ليبحثوا عن شيء واحد : وهو أسباب التشهير والانتقاص وخفايا العيوب والمثالب ، يبالغون فيما يجدونه منها ويختلقون ما لم يجدوه ، ومهما تكن من حسنة لهذه البلاد فهي مستترة عنهم او هم يسترونها بأيديهم ، ولا يذكرونها — ان ذكروها — الا ليجعلوها سبيلا المذمة وحجة مموهة لدعوى الإنصاف والاستقلال .

والأستاذ « لاندو » جوالة رحالة يطوف حول جوانب الأرض ويجعل الله قبلة له في مطافه ، كما قال في كتابه الذي أودعه خلاصة رحلاته وزياراته وسماه « الله وجهة مطافي » God is my Adventure ولم يدع فيه معتقداً من معتقدات الأمم يوصل إلى الله الا اتبعه ومضى معه ليبلغ به غاية مداه .

وهذا الكتاب عن الإسلام والعرب ثمرة السنوات التي قضاها زائراً او مقيما في البلاد الافريقية الإسلامية وأخصها بلاد المغرب الاقصى حيث أطال المقام وكافأه ملكها بوسام العلويين تنويهاً بموقفه من التاريخ الإسلامي والقضايا الإسلامية ، وأوجز ما يقال عن هذا الموقف أنه شمل الماضي والحاضر في عرض القضايا والمشكلات : وانه يعرض منها وجهة النظر الإسلامية على أوفاها فإن لم تكن وجهة نظره بتفصيلاتها فهو يبدي تلك التفصيلات ولا يخفي شيئاً منها .

ولقد ألم في هذا الكتاب بمجالة حسنة عن نشأة الإسلام وسيرة النبي وبلاغة القرآن ووسائل نشر الإسلام ومشكلات العالم الإسلامي السياسية والفكرية ، ومنها مشكلة الفلسفة اليونانية والفرق الدينية وحروب الدول ، ثم حروب الصليبيين وغزوات الاستعمار والصهيونية ، وقد ندل على منهج الكتاب بنقل طائفة من آرائه نكتفي بترجمتها عن التعليق عليها ، لانها تكاد ان تكون ترداداً لآراء المسلمين في مناقشة خصوم الإسلام ، وقل فيها ما يلجيء القاريء المسلم إلى تصحيح او استدراك .

قال عن اخلاص النبي عليه السلام في دعوته : « كان محمد مفطوراً على التدين مستعداً بطبيعته لرسالة الإصلاح التي تلقاها في رؤاه ومشاهداته الخفية ، وكان مع هذه الفطرة الروحانية رجلاً عملياً يفطن ببديهته لما انطوى عليه المزاج العربي من قوة وضعف ، ويدرك أن الاناة واجبة في تلقينهم آداب الاصلاح سواء منهم

أهل المدن والوبر من الحاضرة والبادية ، وقد تأصل في روعه إيمان بالتوحيد لا يتقبل الهوادة ولا المصانعة ، وعزيمة صادقة على استئصال كل أمر للوثنية التي فشت في الامة العربية ، وقد كانت رسالة محمد مهمة هائلة جسيمة لا يقدم عليها إنسان يصدر في أعماله عن بواعث المنفعة والانانية ، ويرجو أن يحققها بمجهوداته او بمساعيه الذاتية ، ولا شك البتة في بطلان تلك الاكاذيب التي تزعم ان الآيات الموحاة اليه وليدة نوبات من الصرع كانت تنتابه بين آونة وأخرى . إذ ليس في وسع المصاب بتلك النوبات ان يتلقى فيها نسقاً من الكلام لهما للقرآن من العمق وانتظام التركيب . وان الاخلاص الذي أدى به رسالته ، واليقين الراسخ في نفوس اتباعه بصدقه ، والامتحان الذي اختبرت بـــه رسالته مدى السنين والاجيال ، لهي من الدلائل على ان محمداً – عليه السلام – براء من شبهة الخداع والادعاء ، فما حدث قط ان خادعاً مدعياً – ولو كان من أصحاب العبقرية – بقيت له رسالة بعد ذهابه ، وهذا هو الاسلام باق بعد ثلاثة عشر قرناً يجذب إليه المؤمنين عاماً بعد عام ، وقد خلا التاريخ من مثل واحد على دعوى من دعاوي الخداع أفلحت في إقامة دولة شامخة وحضارة من أنبل الحضارات الانسانية » .

وقال المؤلف يعلل للقراء الغربيين حيرتهم في فهم بلاغة القرآن وسر ذلك السلطان العجيب الذي يملك به قلوب المسلمين ، فكانت خلاصة تعليله : ان الغربيين يجهلون مناسبات النزول وان ترتيب الآيات على حسب مواقعها سبب من أسباب حيرة القارىء الغربي عند تلاوة القرآن ، وأن السور المطولة تنزلت في أخريات أيام النبي وفيها بيان الاصول الشرعية وقواعد الحكم وتدبير الشئون العامة ، مما يتتبعه القارىء الغريب فلا ينشط لقراءته وانما يدرك هذا القارىء بلاغة الكتاب في قصار السور التي تنزلت بمكة واحتوت من حماسة الروح ما هو جدير بالانتباه والتوقير »

وقال عن الحروب الصليبية : « ان أوربة كانت بحاجة إلى منفس لمـــا أصابها من الفقر والمرض وجاءتها الدفعـــة إلى الهجرة من المغرب إلى المشرق من قبـــل شعوب النورمان والفرنجة ، ويبـــدو أن الوحدة الاوربية إنمـــا كانت حركة من حركات الاستعمار تمضي فيها البواعث الاقتصادية إلى جانب البواعث الدينيـــة ، وإذا قيل : ان الحروب الصليبية كان لهـــا أثرها في

ترويج التجارة بين المشرق والمغرب فالتجارة قد كانت خليقة أن تروج بغير هذه الوسيلة .

ان الصليبيين وجدوا في الشرق حضارة ماديـــة وثقافية أرفع مما كانوا يعهدونه في معيشتهم . وعادوا إلى بلادهم بثمرات شتى من الحضارة الماديـــة كالسكر والحرير والعطور والابازير والاصباغ ، كما أخذوا من الشرق تأسيس نظام العملة الذهبية ، ومعاملات المصارف ، واستفاد الغرب والشرق معاً من تبادل الخطط في المسائل الحربية .

على أن العرب لم يستفيدوا كثيراً من اتصالهم بالصليبيين ، وكل ما عرفوه من معاملتهم انهم جشعون متعصبون متهوسون يجنون القتال والتدمير .

وقال عن فضل المسلمين في إحياء الفلسفة : « ان قصة كشف المسلمين عن الفلسفة اليونانية ونقلها إلى الغرب لهي فصل من أجمل فصول التقدم الانساني من الجهالة إلى المعرفة ، وما كانت المخطوطات اليونانية بالشيء النادر في أرجاء القارة الاوربية قبل ذلك ، ولكن تلك المخطوطات كانت – او معظمها – مدفونة منسية يجللها الغبار في الاديرة ، ويقول لنا روجر باكون : ان حفاظ تلك الودائع بلغ بهم الجهل وقلة الاكتراث الا يلتفتوا إليها ولم تكن لهـــا ترجمات لاتينية ، وقد امتازت القسطنطينية على رومة بوفرة هذه المخطوطات ومنها – ومن بلاد فارس – عرف العرب ما عرفوه عن الاغريق .

وقال عن مسألة العرب واليهود : « ان العرب – وهم ساميون – قد عاشوا في سلام مع اليهود الساميين وعطفوا عليهم لما ابتلوا به من مظالم النازية ، ولكنهم لا يفهمون لماذا يقضى عليهم وهم شعب فقير أن يحملوا وحدهم أعباء الغيرة الانسانية التي يصطنعها الغرب لرعاية اليهود » .

هذه أمثلة من نظرة الكاتب إلى العالم الاسلامي في مسائل متعددة تبتديء من تاريخه منذ صدر الاسلام إلى تاريخه الحاضر عند منتصف القرن العشرين ، ولسنا نوليها قيمة فوق قيمتها حين نقول : انها دليل من أدلة الاستعداد لاستماع القوم عن الاسلام من مصادر غير مصادر التبشير والاستعمار ، وان أحق المصادر ان يستمع إليه العالم شرقاً وغرباً لهو المصدر الاسلامي بكفالة أهله وذويه ، فليس من انصاف المسلمين لانفسهم ان يجيء انصافهم كله عند القوم مجاملة من الغرباء .

فهم الإسلام[1]

اسم هذا الكتاب يدل على المقصود منه وهو فهم الاسلام وإفهامه للغربيين ، وإنهم كما يرى المؤلف لأحوج إلى فهم هذا الدين منهم إلى فهم الاديان الاخرى ، لان الاسباب التاريخية والسياسية معاً قد تضافرت على تحريفه وتشويه صورته فيما نقل اليهم عنه قديماً وحديثاً ، ولانه على خلاف غيره من الديانات الشرقية يشتمل على مزيج من العقائد السماوية والدنيوية لا تمتزج هذا الامتزاج في تلك الديانات .

والكتاب الذي بين أيدينا منقول إلى الانجليزية من اللغة الفرنسية لمؤلفه فريثجوف شيون Frithjof Schuon الذي تخصص لشرح العقائد الشرقية في غير هذا الكتاب . ويقول الحكيم الهندي (اناندا كومر سواي) انه واحد من فئة قليلة بين الأوربيين قادر على نقل العقائد الشرقية إلى الغربيين نقلا صحيحاً غير مشوب بالغرض وسوء الفهم . ويقول الشاعر الانجليزي المعاصر (اليوت) بعد اطلاعه على كتابه الاول انه لم يصادف قبله كتاباً مثله في علم المقارنة بين الديانات الشرقية والغربية .

ونرى من مطالعة هذا الكتاب ان الحكيم الهندي والشاعر الانجليزي على صواب فيما وصفا به المؤلف من القدرة على شرح العقائد الشرقية بغير انحراف

---

(١) الازهر نوفمبر ١٩٦٣

مقصود ، ولكننا لا نخاله يشرحها لعامة القراء ولا لطلاب المعلومات والمادة « المدرسية » من تلك الشروح ، فإنه يكتب باسلوب الفيلسوف المتصوف حين يكتب للفلاسفة المتصوفين ، ولا يهمه احصاء الآراء والأقوال والوقائع كما يهمه النفاذ منها إلى « روح العقيدة » كما يبحث عنهـا طلاب الدراسات فيما وراء الطبيعة ، او طلاب التأمل في المعلوم للترقي منه إلى « المجهول » الذي يستعان عليه بالنظر المجرد ولا يستعان عليه بالمنطق والمعرفة العلمية .

وتظهر طريقته في الشرح من تفرقته المجملة بـين نظرة المسيحية ونظرة الإسلام إلى الإنسان .

فالمسيحية عنده تقدم الإرادة على العقل ، والإسلام عنـده يقدم العقل على الإرادة .

ويأتي كل فارق جوهري بعد ذلك من هـذا الفارق « الأساسي » بين العقيدتين .

فارادة الإنسان تسقطه وتحوجه إلى غفران الخطيئة بالفداء .

وعقل الإنسان يوجب عليه أن يدرك عمله ويدرك التبعة التي تلزمه بين يدي ربه ، ثم يلهمه كيف يلتمس الهداية بالنظر فيما حوله وكيف يلتمسها بمعونة الله .

وعقيدة المسلم والمسيحي في المعجزات تابعة لهذا الاختلاف بين تقديم الإرادة على العقل وتقديم العقل على الإرادة .

فالمعجزة هي الوسيلة الكبرى لتقرير ارادة الله أمام ارادة الإنسان .

ولكن الاعتماد عـلى العقل كان للعلم بارادة الله من طريق غير طريق المعجزات ، وان كان لا يغلق الباب على هذه الطريق .

والمشهور عن المسلم انه « قدري » وإن بالغ أبناء الغرب في الخلط بين ايمان المسلم بالقدر وبين سلب الإرادة وتجريد الإنسان من صفة الحرية .

أما الرأي الأمثل في « القدرية الاسلامية » فهو أن هذه القدرية هي النتيجة « المعقولة » لادراك المسلم انه « غير الاله » ونفوره من فكرة الحلول او المزج بين الوجود الانساني والوجود الالهي ، ومن لم يكن الها فليس هو المقدر لمقاديره ، ولا افتراق عنده بين الايمان بالقدر والايمان بالقدرة الالهية وإحدى لوازمها

القدرة على العلم بما يكون والقدرة على العلم بما سيعمله الانسان قبل أن يعلمه ، وقبل أن يعمله .

ومن لوازم تقديم العقل على الارادة أن تكون معجزة الاسلام هي المعجزة التي تناسب المخلوق الذي يوصف بالحيوان الناطق وهي معجزة الخطاب بالكلم الالهي البليغ ، وهو القرآن .

ولا بد للقاريء، إذا أراد أن يفهم رسالة القرآن أن يذكر أنه كتاب فرائض وكتاب اقناع وكتاب هداية ، وأن الاعجاز فيه لا يرجع إلى فصاحة اللفظ وحدها ولا إلى نسق البيان وحده ، ولكنه يرجع إلى ايحاء اللفظ وإيحاء البيان بما يعجز كل كلام « غير إلهي » عن الايحاء بمثله .

ثم يلخص المؤلف رسالة القرآن من الوجهة الفلسفية بأنها رسالة الإيمان والاسلام والاحسان ، وفيها — مع خطاب العقل بالمعاني الفكرية — مضامين تنطوي في تلك المعاني ولكن المخاطب بها يفهمها كما ينبغي ان يفهم اللمحات والرموز الخفية ، وهو باب مفتوح للاجتهاد في فهم الحقائق الغيبية على نهج المتصوفة وأصحاب الاشارات والتقاليد .

ومن تصحيحات المؤلف لما يفهم الغربيون عن المناقب « الشخصية » التي اتصف بها النبي عليه السلام أن مصدر الخطأ في هذا الفهم تصورهم للرسول الديني على صورة واحدة هي صورة بوذا والسيد المسيح ، وهي صورة تحيط بها هالة من غير هذا العالم الانساني لما فيها من محو الذات ومحو العلاقات الدنيوية .

لكن « محمداً » عليه السلام لم تكن تحتويه هذه الهالة من غير العالم الانساني » ، لانه رسول شريعة وصاحب جهاد في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى ، ومثاله من صور الرسالة الدينية ، إنما هي صورة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، مع تفاوت الأفق والمجال.

وللمؤلف تفسير « فلسفي » لعظمة النبي عليه السلام كما توحي بها العقيدة الاسلامية .

فهو صلوات الله عليه مثال « الانسان الكامل » الذي لا مرتقى بعده لدرجات الكمال في بني الانسان ، إلا أنه ليس بمثال الانسان الكامل وحسب

على هذا الاعتبار ، بل هو كذلك مثال الانسان القديم او الانسان الخالد على صورة الله .

فاذا كان كمال الانسان جامعاً له بين الفضائل السماوية والفضائل الأرضية فالقدم او الخلود مناط الفضائل منذ الأزل قبل أن تنفصل السماء والأرض وقبل أن تعرف الكائنات فكرة سماوية مقابلة للفكرة الأرضية ، أو فكرة أرضية مقابلة للفكرة السماوية .

وبين هاتين الصورتين : صورة الانسان الكامل وصورة الانسان القديم ، يقيم المسلم عظمة نبيه صلوات الله عليه ، ويتخذه مثالا للإنسانية في صميمها على صورة غير الصورة التي يتمثلها الغربيون لبوذا أوَ للسيد المسيح .

يقول المؤلف بعد سطور في مفتتح كلامه عن النبي : « ان الذي يطلع اطلاعاً وافياً على سيرة محمد من مصادرها المأثورة ترتفع أمامه ثلاثة عناصر قد تتلخص في هذه الصفات الثلاث : التقوى والجهاد والمروءة ، ومفهوم تقواه انها حب الله بكل قلبه شعوراً منه بما يعلو على الوجود وبالصدق المحض والاخلاص السليم ، وهي صفة عامة مفروضة في جميع الرسل الإلهيين ، تذكر بصفة خاصة لأنها في الاسلام عنوان مقدم على الجو الروحاني فيه .

« وهنالك غزوات جهاده ، وهي إذا عزلناها عن صورة العنف في الحروب تدل على عظمة روحانية فوق ذرع الانسانية ، ثم العلاقات الزوجية وهي منفذ مقرر إلى الحياة الأرضية الاجتماعية ولا نريد أن نقول الدنيوية العالمية ... ولم تخل هذه العلاقات من ناحيتها السياسية التي نريد بها معناها المقدس عند النظر إلى اقامة مدينة الله على الأرض ، وقد برزت في حياة محمد دلالات كافية عـــلى العفة والنزاهة بخاصة في أيام الشباب حين يشتد جماح الشهوات » .

ثم يقول : « ويصح أن يقال ان روح النبي قد جبلت من النبل والصفاء ، وأولهما يجمع القوة والكرم ، وثانيهما يجمع القناعة والاستقامة ، وقد كان مسلك النبي في طعامه ومنامه مسلك القانع القويم ، ومسلكه مع النساء مسلك الكرم والمروءة » .

والكتاب يدور على فصول أربعة بعد المقدمة ، أولها عن الاسلام ، وثانيها عن القرآن ، وثالثها عن النبي ، ورابعها عن الطريق ، وهو عنوان شامل لكلامه عن التصوف الاسلامي مع المقارنة بينه وبين تصوف الهنود وتصوف المسيحيين.

ونحسب ان القارىء قد لمح معنا ان مؤلف الكتاب ينتهي بالفصل الأخير عن التصوف إلى مجاله الواسع الذي ينطلق فيه قلمه على مدى عنانه ولا نبتعد كثيراً عن فهمه على طريقته في فهم الاسلام إذا قلنا انـــه يتكلم في التصوف كما يتكلم في مذهب يؤيده ويجنح اليه ، وإنه – ان لم يكن مؤيداً له جانحاً اليه – فليس له تأييد لغيره من المذاهب أكبر من هذا التأييد .

فالتصوف الذي يشرحه المؤلف في فصله الاخير هو التصوف الذي يتميز بالنظر إلى الحياة الانسانية نظرة « الإيجاب » والثبوت ولا يطمح بالعابـــد المتصوف إلى غاية نهايتُها الفناء وفقدانُ وعي الوجود .

والله – جل وعلا - هو في هذا التصوف حقيقة الحقائق التي يبطل ما عداها بطلان الوهم الزائل ، ولكن البطلان هنا غير الباطل الزائف الذي ينتمي إلى نقيض الملكوت الالهي في مملكة الشيطان .

فالكائنات الموجودة في عالم المادة تزول وتتولد من معدن الزوال ، ولكنها ليست بدنس ولا زيف ولا هي بالبطلان الممسوخ في أصل التكوين ، لان العابد المتصوف ينبغي أن يرى فيها معرضاً لجمال الله ولقدرة الله ولمشيئة الله ، وينبغي ان تكون عنده صورة لتجلي الخالق حيث لا مطمع للمخلوق إلى ما فوقها من آيات الجلال والجمال ، فانما يطمح وراء هذا المطمح من عرف في كل شيء آية تدل على الواحد الاحد الذي لا تدركه الابصار .

ولا ينسى الكاتب تفرقته بين الإرادة والعقل حين يعرض للفوارق بـــين تصوف المسيحية وتصوف الاسلام ، فان كلماته في هذا الباب هي أجمع ما عرض له في كتابه من وجوه المقارنة بين الديانتين ، مع احترامه لكل منهما احترام السماحة والإنصاف .

وهذه هي عبارته التي ختم بها هذه الخلاصة لبحثه الشائق .

« إذا كان الإنسان إرادة فالله محبة .

« وإذا كان الانسان عقلا فالله حق .

« وحين يكون الأنسان إرادة تسقط بلا قوة ولا ناصر ، تكون محبة الله هي الخلاص .

« وحين يكون الانسان عقلاً يضل ويتخبط في الظلمات ، فالله هو نور

الحق الذي يهديه ، لأنه من شأن المعرفة أن تنهض بالعقل إلى ذروة الحق الذي يفيض عليها الصفاء والحرية .

« إن الحب الإلهي يحقق إنقاذه بأن يتنزل إلينا ليرفعنا .

أما الحق الإلهي فانما يحقق إنقاذه بأن يعيد عقلنا الطبيعي الى مصدره فوق الطبيعة ، وهو عائد من ثم الى صفائه الاول ، والى الافق الذي يدرك فيه أن الحقيقة المطلقة هي كل شيء وأن العوارض دونها ليست بشيء ... »

الإسلام بين أديان الأمم[1]

يقول مؤلف هذا الكتاب[2] في مقدمته انه يود لو استطاع الناس أحياناً أن ينظروا إلى جلائل الأمور ودقائقها بأعين غيرهم . فانهم يصححون بـــذلك آراءهم وآراء غيرهم، ويرون تلك الأمور من جوانبها المتعددة فلا يقفون منها عند جانب واحد .

ويقول في تلك المقدمة ان بعض القراء المحدثين قد تعودوا أن يصطنعوا قلة الاكتراث للديانـــة في أفـكارهم وفي أعمال حياتهم ، فهؤلاء خليقون أن يعطوا الديانة حقها من الاكتراث إذا عرفوا مبلغهـــا من الجد ومبلغ العناية بها والغيرة عليها عند أصحاب الديانات الأخرى .

وعلى هذه الخطة التي تمناها لقرائه جرى في تأليف كتابه هذا عن ديانات العالم الكبرى ، وهي البرهميـــة والبوذية ومذهب كنفشيوس ومذهب الطاوية في الصين ، والإسلام واليهودية والمسيحية .

وقد حاول جهده في الحق أن ينظر إلى الإسلام ، وهو الذي يعنينا في هذا المقال ، نظرة كاتب لا ينحسر في عقيدته ولا يتعصب عليه لمخالفته إياه بتفكيره أو بايمانه ، فسار على منهج المؤلفين العلميين الذين يخجلون أمام قرائهم من تشويه

---

(١) « ديانات الإنسان » ، للدكتور هستون سميت .

(٢) الأزهر مايو ١٩٥٩ .

الحقائق وتبديل الوقائع مجاراة لذوي الجهل في تعصبهم الأعمى ، أو لذوي الطمع في سياستهم التي لا تعمى عن مصالحها ولكنها تفتح عيونها جميعاً لشيء واحد لا ترى سواه ، وهو اقتناص الفريسة واغتنام الأسلاب .

وهذا هو الكتاب الثالث من كتب المؤلفين التي نذكرها في هذا الباب على هذه الخطة من « الحيدة العلمية » في مسائل الأديان ، ويعنينا من هذه الخطة أنها تدل على استعداد في العقول بين قراء اللغات الغربية حقيق بالتفات المسلمين إليه ، لأنهم — دون غيرهم — أقدر على البلاغ والابلاغ في أمر الإسلام ، وعندهم من الدراية به وبمحاسنه ما ليس عند أحد من كتاب الغرب ، قصاراه ان يتجنب في شرحه وتبليغه ان يفتري عليهم التهم والعيوب .

* * *

اسم الكتاب باللغة الانجليزية « ديانات الانسان » The Religions of Man ومؤلفه الدكتور هستون سميت Huston Smith أستاذ الفلسفة بالجامعات الأمريكية ومحرر لأبوابها في المجلات الأدبية ، ولد في الصين وعاش في الشرق ، وعاش في بلاد الأمم التي درس أديانها وكتب عنها في هذا الكتاب .

بدأ كلامه عن الإسلام بتصحيح الآراء عن معنى اسمه كما يفهم المعنيون بالإسلاميات من الدارسين وعامة القراء ، فقال ان اسم « المحمدية » الذي يطلقه الغربيون على الإسلام يغضب المسلمين إذا أريد به نسبة الدين إلى محمد عليه السلام ، فان تسمية « المسيحية » بهذا الاسم معقولة عند أتباعها الذين يدينون بإلاهية المسيح وصدور العقائد من قبله ، ولكن « المحمدية » بمثل هذا المعنى اسم لا يقبله المسلم وهو يؤمن بأن « محمداً » بشر يوحى إليه ، وانه لا يملك مع الله شيئاً في دينه ولا دنياه .

وليس فهم الإسلام بمعنى الاستسلام أو خضوع المقاتل لمن ينتصر عليه صحيحاً في مدلوله ، وإنما أصل الكلمة من السلام والانابة إليه ، ومدلول الإسلام على هذا هو « سلام الروح الشامل بتسليم حياة الإنسان جميعاً إلى الله » .

قال : ان محمداً قد ظهر في زمان تحسب فيه المعجزات بضاعة لازمة لا يعجز عنها أصحاب الولاية فضلاً عن أصحاب النبوة والرسالة .

ولكنه أبى لدعوته أن يجعلها تجارة بهذه البضاعة ، ونادى غير مرة انه

يبشر وينذر ولا يتوسل إلى الهداية بأية معجزة غير آيات الكتاب المبين : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » .

قال : وان أثر دعوته آية من آيات التاريخ لا يعرف لها مثيل فيما وعاه من أطوار الأمم قبل الدعوات الدينية وبعدها ، إذ لم يسبق فيما عرف من هذه الأطوار ان دعوة نقلت الأمم من حال إلى حال كما نقل الإسلام قبائل الجزيرة العربية إلى تلك الحضارة التي ارتقى إليها أتباع الإسلام خلال سنوات معدودات .

وقد حكم النبي قومه في جزيرتهم وقام بالامر زمناً في المدينة « فهو هنا ملك ــ لا على قلوب فئة من المحبين المخلصين وحسب ، بل على حياة مدينة مجتمعة ، هو قاضيها وقائدها ، وهو كذلك معلمها وهاديها ، وإن أعداءه انفسهم ليعترفون باضطلاعه بهذا العمل الجديد في براعة وكفاية ، وقد واجهته خطوب معقدة نادرة فإذا هو يواجهها بقدرة نادرة على التدبير والإدارة ، وقد أصبح قاضيها الأعلى ولكنه ما برح كما كان أيام خفاء أمره بنجوة من الزهو والبذخ ، وكان في وسعه ان يملك الدور والقصور ولكنه ارتضى له ولأهله بيتاً من الطين يحلب فيه معزاته بيديه ويستقبل من شاء من صغار أتباعه ليل نهار ، وكثيراً ما كان يُرى وهو يصلح ثيابه ..

وقد حفظت عنه مأثورات أخباره انه كان في حكمه يجمع بين العدل والرحمة ، يعاقب من جنى ويغفر لمن أساء إليه .. ويرى فيه أهل المدينة ولياً لا يملك من يتولاه إلا ان يدين له بالحب والطاعة » .

يقول الدكتور سميث : « ان الخاصة المميزة للاسلام لا تقوم على الأمثلة العليا التي يرفعها أمام أتباعه بمقدار قيامها على الوسائل العملية التي يرشد بها المسلم إلى ادراك تلك الأمثلة العليا«ولو كان بنو الإنسان قد بلغوا في عهد المسيح درجة من الارتقاء تمكنهم من الفطنة لمزيد من التهذيب لجمل أفكاره كما قال « أمير علي » قائمة على نظم مفصلة ، ولكنه في الحالة التي وجد العالم عليها قد أبقى ذلك ــ على قول « أمير علي » ليتولى تنظيم القوانين الأخلاقية » .

وقد أورد المؤلف هذه العبارات من أقوال الكاتب الهندي في سياق شرحه كأنه يصدر بها فكرة لا يعترض عليها ولا يناقشها ، ولكن يعبر عن رأيه حين

يصف الوسائل العملية التي توسل بها الإسلام لإصلاح الأحوال الاجتماعية ورياضة الامم على قوانين الاخلاق والمروءة ، وينوه المؤلف بالزكاة منبهاً إلى مقدارها بالنسبة المئوية للثروة المملوكة ، فليست هذه النسبة محسوبة بمقدار الربح والمورد المتجدد ، ولكنها في جملتها تصل إلى جزء من أربعين جزءاً من الثروه المملوكة على اختلاف المتاع والحطام ، وهو مقدار كاف لسداد خلة المجتمع في هذا الباب ، ولا يقل عن الزكاة شأناً في سياسة المجتمع ورياضته على الاخلاق الصالحة ان الإسلام يقرن الملكية بالعمل ويحرم الربا الذي كان يؤخذ أيام الجاهلية أضعافاً مضاعفة بغير عمل يعمله صاحب الدين ، وشبيه بهذا الحكم في سياسة المجتمع توصية الاسلام بتداول الثروة وكراهته لحصرها واحتكارها ، وايجابه على المسلم ان يعمل للأمة عملا يستحق به لقمته من الطعام ، فلا يعز عليه أن يجيب إذا سئل وهو يتناول غذاءه : « هل صنع للناس شيئاً يستحق عليه أن يأكل ما بين يديه ؟ » .

ويمضي المؤلف على أسلوب كهذا الأسلوب في شرح معلوماته عن الديانة الإسلامية ، ولكنه يكاد ينتقل من الشرح — على مثل هذه الحيدة — إلى الدفاع الحسن عن قضية المرأة في الإسلام ، فان فيهذه القضية امتحانا عسيراً لإنصاف الكتاب من الغربيين كلما عرضوا للشبهات الشائعة عن الآداب الإسلامية ، فمن كان منهم سيء النية لم يعسر عليه أن يجاري نيته السيئة في كلامه عن هذه القضية دون أن يتورط في الادعاء المختلق والافتراء المكشوف ، وقد يصطنع الإنصاف الظاهر إذا اكتفى بسرد الأحكام ولم يجاوز سردها إلى بيان أسبابها ومسوغاتها ، إذ كانت هذه المسوغات تخفى على كثير من قراء الغرب الذين يجهلون حالة العالم قبل الإسلام في بلاد العرب وفي غيرها من البلاد الشرقية ، وكل ما يعلمونه ان هذا الدين قد أباح تعدد الزوجات وأمر بالحجر على النساء ، وأن شرائع العهد الحديث عندهم تحرم هذا وذاك ، فمن شاء أن يسيء النية ذكر الاحكام ولم يكلف نفسه أن يقابل بينها وبين ما كان من قبل وما يكون الآن حيث لا تسري تلك الأحكام ، وهذا هو الصمت الذي يشبه الاختلاق الصريح مع النية السيئة ، وان لم تظهر فيه دلائل الاختلاق المقصود .

لقد كان للدكتور سميث فضله في اختيار موقف غير هذا الموقف المريب او

الموقف الصامت من قضية المرأة في الإسلام ، فإنه بدأ بتقرير الواقع عن زواج الجاهلية فقال : ان المسألة هنا لا تدور على الكثرة والقلة في عدد الزوجات ، لأن الزواج لم تكن له قداسة ولم يكن في الحقيقة زواجاً مرعي الحقوق ، بل كان ملكاً كملك الرقيق وكان للرجل بعد الزوجة الأولى والثانية ان يتصل بمن شاء من النساء ، وإنما تدور المسألة هنا على مكان المرأة في الاعتبار والكرامة وعلى حقوقها في بيتها وبين أهلها وقومها ، وهذه هي المسألة التي يظهر فيها فضل للإسلام لا يستهان به ولا يقبل الإنكار

قال الدكتور سميث : « ان الإسلام — لمجرد كونه أباح تعدد الزوجات — قد اتهم بتحقير المرأة ، فاذاً نحن نظرنا إلى المسألة بحكمة الزمن الواجبة مقابلين بين منزلة المرأة قبل النبي وبعده فالتهمة باطلة ، إذ كان عقد الزواج أيام الجاهلية من الوهي والوهن بحيث يكاد لا يعترف به ، وكانت الاتفاقات الموثوقة تبرم وتنقض كل يوم ، والنساء محسوبات في حكم الماشية يجوز للآباء والأزواج ان يتصرفوا بأمورهن كما يحبون ، ولم يكن للبنات وراثة ولا حق من الحقوق ، وكثيراً ما كانت البنت الوليدة تدفن في طفولتها ، وعلى هذه الحالة التي كانت ولادة الأنثى فيها نكبة من النكبات البغيضة ، جاء الإصلاح الإجتماعي على يد محمد صلوات الله عليه فرفع من شأن المرأة كثيراً ، وامتنع وأد البنات ، وأعطين حقاً من الميراث لا يساوي حق الأبناء — نعم ولكنهن ازاء ذلك معفيات من تكاليف البيت ، وذلك من قضاء العدل عنده ، عليه السلام ٠

« أما حقوق المرأة المدنية في التعليم والانتخاب والعمل فالقرآن يفتح لها أبواب المساواة التي تنالها كلما تقدمت الأمم الإسلامية في عاداتها ومعاملاتها ، فان كانت المرأة المسلمة لم تنل تلك الحقوق بعد قرن او بضعة قرون كما نالتها المرأة الأوربية فهذه أيضاً لم تنل حقاً منها قبل عصر الصناعة الحديثة ، وإنما نالت هذه الحقوق من الديمقراطية لا من الدين ، فلم يجز — كما يقول المسلم — ان يكون الاسلام مسئولاً عن هذه الحال .

« ويأتي الاسلام في نظام الزواج بأكبر مساهمة له في قضية المرأة ، فانه احاط عقد الزواج بقداسته إذ جعله دون غيره رباطاً للعلاقة المشروعة بين الجنسين في ديانة تعاقب الزاني بالرجم ، ولا يزال الفتى حتى اليوم يراقص فتاته

مواجهة ولا يمس جسدها لأنه ممنوع بغير زواج ، وليس لاتهام الاسلام بين بعض الغربيين بأنه دين سهولة في علاقات الجنس موقع صواب في السمع ولا مراء ، والمساهمة الأخرى في الاسلام في قضية المرأة انه يعطيها حق الموافقة على زواجها ، فلا يستطيع حتى السلطان ، ان يبني بها كرهاً على غير قبول منها ، ثم يأتي الاسلام بميثاق مكين للرابطة الزوجية وان لم يمنع الطلاق منعاً باتاً ، إذ هو حلال بغيض في أدب النبي صلوات الله عليه ، وإنما يُلجأ إليه كما يلجأ إلى آخر الحلول فما من شيء يبغضه الله كما يبغض التفرقة بين الزوجين ، وقد أوجب من التدبير الشرعي ما يصون عقد الزوجية ، إذ أوجب على الأزواج قبل الزواج ان يدخروا حصة كافية باسم المرأة تؤول اليها عند الطلاق ، ويحصل الطلاق بعد الاحتكام إلى الأهل والمصالحة على الوفاق وفترات من المهلة والإنظار ، مما يراد به الاقلال من دواعي الفصل بين المرأة وزوجها جهد المستطاع ، ويحق للمرأة كما يحق للرجل ان تعمد إلى هذه الوسائل للتوفيق .

« وتبقى بعد ذلك مسألة التعدد ، فيسمح للمسلم بعدد من الزوجات تختلف الأقوال في حالات جوازه، وان كان لا خلاف على الحالة الفضلى وهي الاكتفاء بالزوجة الواحدة استناداً إلى نص القرآن على وجوب العدل بين الزوجات وصعوبته مع الحرص عليه ، ولما كان العدل في القرآن لا يقصر المساواة على الأمور المادية بل يشمل المودة والعطف والرعاية فمن الواضح ان القرآن يفضل الاكتفاء بالزوجة الواحدة في عموم الأحوال، كما كان مفهوماً منذ القرن الثالث للهجرة ويزداد الأخذ به مع الزمن ، وقد ينص على ذلك في العقد اجتنابا للخلاف وتعهداً من الزوج ببقائه على شرطه ، أما الآيات الأخر التي تجيز للمسلم ان يجمع بين اثنتين إلى أربع ولا يزيد — والنبي قد عدد زوجاته — فانها إذا اباح بها بعضهم ان يجمع بين عدد من الزوجات في جميع الأحوال لغير ضرورة فالجمهرة المتزايدة من المسلمين ترى فيها مثالا لمرونة الإسلام واحتياطه لمختلف العوارض والضرورات، إذ لا تخلو هذه الدنيا على ما هي عليه من نقص وخلل من حالات شتى يكون فيها تعدد الزوجات خيراً واسلم من الحالات الأخرى ، وقد يحدث ان تصاب الزوجة بمرض يقعدها ويعطلها عن واجباتها البيتية ، كما يحدث في

اعقاب الحروب ان يربي عدد الأناث على عدد الذكور ، وربما اشار المثاليون في امثال هذه الظروف بحل من حلول البطولة العالية يعتصم بها الرجال ، إلا ان البطولة العالية ليست من الشرائع التي تعمم بين الالوف من العامة والخاصة ، وإنما الخيار في المسألة بين زواج متعدد ينهض بتبعاته ويصون حياءه وبين تعدد في العلاقات على غير شرع وبغير تبعة ... »

* * *

واهم من شبهات الغربيين على قضية المراة في الاسلام شبهاتهم على القدرية او الاستسلام « للقسمة » و « المكتوب » و « المقدر » الذي يجعل المسلم في رأيهم كالحجر الملقى او الآلة المسخرة لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يختار لها مصيراً إلى الصلاح او الفساد . وقد راق بعض المتعصبين منهم ان يتهموا الاسلام بهذه « الآلية » العقيمة ، وان يعيبوا عليه مع ذلك انه الدين الذي يدعو اتباعه إلى حمل السيف وبذل الحياة وهما غاية ما يقدم عليه الانسان في حياته من سعي وهمة ، وطاب لهم ان يجعلوا الاسلام مسئولا عن هذين النقيضين لانهم يريدونه مسئولا عنهما على اية حال .

هذه الشبهة على القدرية الاسلامية مما عرض له صاحب هذا الكتاب وجاوز فيه حد « الصمت » والحيدة المريبة ، فقال : ان المسلم يؤمن اشد الايمان بعظمة الله وقدرته وسلطانه في خليقته ، ولكنه يحمل تبعته ويحاسب نفسه على هدايته وضلاله ويعلم من آيات كتابه الكثيرة انه صاحب إرادة يتجه اليها الخطاب من الله « فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » .

إلا ان العثرة الكبرى امام هذا المؤلف وامام غيره من كتاب الغرب ، من يعرف منهم العربية بعض المعرفة ومن يجهلها كل الجهل ، انما هي عثرة الحكم على بلاغة القرآن وبلاغة العربية على عمومها في شعرها ونثرها وفي كلامها المطول وكلمها الوجيز ، ومنه ما يرتفع في البلاغة إلى الذروة التي لا يعلى عليها في كلام معروف بين أبناء الحضارة .

وقد أشرنا إلى هذه « العثرة الكبرى » عند تلخيصنا لكتاب الأندلس الإسلامية ، ونعود إلى الإشارة اليها بصدد التعليق الصريح الذي أورده مؤلف هذا الكتاب بعد رواية بعض الآراء الغربية المتواترة في هذا الموضوع ، ومنها

آراء أناس يحسنون القول في رسالة النبي عليه السلام ، ويودون لو استطاعوا ان ينفذوا إلى اسرار الاعجاز القرآني كما يحسها المسلمون من المطلعين على روائع البلاغة عند الغربيين . ونحن نعتقد ان القوم معذورون في حيرتهم لسبب غير سبب المخالفة في الدين ، او المخالفة في النظر إلى مصدر الكتاب الكريم ، فان القوم – فيما نرى – أشبه بمن يقرأ الكتابة بالصور ولا يخلص منها إلى مدلول تلك الصور من الحروف الأبجدية ، وكأنهم لا يزالون في عصر الصور « الهيروغليفية » بعد أن أصبحت هذه الصور حروفاً تتألف منها المعاني والكلمات ولا تلتفت العين إلى أشكالها وأشباهها إلا وهي عابرة مسرعة إلى الكلمة المركبة من رسوم تلك الأشكال والأشباه .

ان الجيم – مثلا – لا تزال حافظة لشكل الرقبة التي تدل على الجمل ، ولكن القارىء العربي لا يفكر في الجمل وهو يقرأ الجيم ويضم اليها الميم واللام ، وكذلك نفعل نحن قراء العربية حين نعبر التشبيهات بالشموس والأقمار والبحار والأغصان وسائر المجازات التي تحكي لنا معانيها بالإيماء والإيحاء . فنحن نفهمها بمدلولاتها – مباشرة – ولا نتوقف عند أشكالها ورسومها المحسوسة للعيون والأسماع ، او نحن كما تقدم نعبر دور الصور الهيروغليفية إلى دور الحروف والمقاطع والكلمات ، ولا نشعر من أجل هذا بالحيرة أو الربكة العقلية والحسية كلما عرضنا تلك التشبيهات المجازية وهي تتتابع أمامنا واحدة تلو الأخرى بصورها الذهنية مجردة من صورها المحسوسة للأبصار والآذان ، وعلى هذا النحو يسمع الموظف الذي يتلقى الاشارات البرقية شرطات ونقاطاً يتبع بعضها بعضاً على عجل وهو يكتب على الورق حروفاً وكلمات يفهمها على الأثر كأنه يستمع إلى متكلم في المذياع ، ولعل المرانة صانعة في « تبليغ » البلاغة العربية إلى أذهان الغربيين ما يعينهم على تقدير الآيات المعجزة التي يحارون في تعليل اعجابنا بها واستيلائها على شعورنا ، وان كانت المرانة وحدها لا تغني غناء السليقة المطبوعة والنشأة الطويلة والتلقين المسموع والموروث .

* * *

ويختم المؤلف كتابه بنظرة شاملة إلى مستقبل الاسلام بين الأديان ، فيقول : انه في هذا العصر – كما كان في العصور الغابرة – أسرع الاديان إلى كسب الاتباع

المصدقين ، وانه على الرغم من قلة دعاته وكثرة الدعاة إلى المذاهب المسيحية تكاد نسبة الداخلين فيه بين الافريقيين تساوي نسبة عشرة إلى واحد ممن يتحولون عن عقائدهم البدائية إلى الاديان الأخرى . ويهمنا من تقدير المؤلف لانتشار الاسلام في الصين انه ولد هناك واشتغل بشؤون العقائد على أوسع نطاق، فهو احرى ان نستمع اليه وان نتبين من تقديره ان مصادر الاحصاء الرسمية تتعمد المبالغة في الاقلال من عدد المسلمين من أهل الصين ، وقد وضح ذلك كل الوضوح من تقديرهم كلهم بنحو عشرة ملايين كما جاء في بعض الاحصاءات المرتجلة وهم يقاربون مائة مليون أو يزيدون، فإن حسبنا للمبالغة حسابها في الاحصاءين فالتوسط بينهما أقرب إلى التقدير الصحيح وأولى ان ترجحه هذه الملاحظة — ملاحظة الزيادة المطردة في عدد المسلمين — يبديها خبير مختص بالامر شديد العناية بأحوال الديانات والمتدينين .

ان للمسئولين عن مستقبل الاسلام في عصرنا هذا عملا يلحق في جلالته وعظمه بعمل أمثالهم في عصر الدعوة الاولى ، ونحسب اننا نفيد من أقوال شراحه لامم الغرب فائدة تساوي عناء الاطلاع على تلك الأقوال إذا تيقظنا في أوان اليقظة لتلبية الدعوة المقبلة .

ان الاسماع مفتحة من حولنا ، والسامعون يقبلون علينا.فهل من مسمعين ؟

الإسلامُ دَعْوَةٌ عَالَمِيّةٌ[1]

في العدد الاخير[2] من مجلة الازهر عقبنا على المقالين اللذين نشرتهما مجلة « التاريخ اليوم » الانجليزية للأستاذ سوندرس المحاضر الاول بقسم التاريخ في جامعة نيوزيلاندة، وقد جعل عنوان المقالين « الخليفة عمر المستعمر العربي » ، وذهب فيهما إلى ان ابتداء انتشار الأسلام خارج الجزيرة العربية انما كان من عمل هذا الخليفة ولم يكن عملاً داخلاً في برنامج الدعوة المحمدية ... لان محمداً عليه السلام لم يفكر في دعوة أحد غير العرب الى الاسلام .

وكان موضوع التعقيب اننا اخذنا على الكاتب دعواه هذه وقلنا انها ، مع حسن النية ، سوء تطبيق لعلم المقارنة بين الاديان ، التماساً لوجوه الشبه التي لا وجود لها بين الدعوة الى الموسوية والدعوة الى المسيحية والدعوة الى الاسلام ، فان أتباع موسى عليه السلام قد دخلوا أرض الميعاد بعد وفاته ، وأتباع عيسى عليه السلام هم الذين قاموا بتوجيه الدعوة الى العالم بعد حصرها في بني اسرائيل فينبغي على هذا القياس ذهابا مع شهوة المقارنة بين الاديان في غير موضع للمقارنة ان يكون خلفاء النبي هم الذين نشروا الاسلام بين الامم غير العربية ، ولم يكن ذلك من برنامج محمد عليه السلام ولا من أصول رسالته الى قومه .

أما إذا ساءت النيات ، وما أكثر الدواعي الى سوء النية في كتابة تاريخ

---

(١) الازهر أغسطس ١٩٦١ .

(٢) عدد يوليو ١٩٦١ ، انظر المقال السابق.

فلسطين .. فقد يفهم من كلام الكاتب ان دخول الاسلام الى فلسطين انما كان عملا من أعمال الاستعمار العربي ولم يكن هداية دينيـــة خالصة لوجه الله ، ويرد هذا على الخاطر .. قسراً – إذا أطلع القاريء في العدد نفسه على مقال مسهب عن دخول اليهود الى فلسطين ، ليتخذوها مأوى لهم وموطناً موعوداً من عهد الخليل ابراهيم .

وقد وصل الينا عدد شهر يونيو من المجلة الانجليزية فقرأنا فيه تصحيحاً لدعوى الاستاذ النيوزيلاندي بقلم الاستاذ احمد ابراهيم الشريف مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية ، أشار فيه الى الادلة الكثيرة التي تثبت دعوة الاسلام العامة، ثم قال : « اننا اذا تركنا هذه الادلة جانباً واكتفينا بالنظر في القرآن الكريم وحده فهناك أكثر من أربعين آية يُذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين ، وهذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح انه عليه السلام قد أرسل الى الناس كافة ، وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأه على الناس » .

وقد أحالت المجلة هذا الرد الى الاستاذ سوندرس فعاد يقول : ان هناك أدلة تفيد ان محمداً « صلوات الله عليه » قد أراد بدينه ان ينشر على الناس ، كما أن هناك أدلة أخرى تفيد انه لم يفعل ذلك ، فهي اذن مسألة من مسائل الشك لا يُقطع فيها بأي القولين .

قال : « أما أن محمداً قد آمن بأن الله هو إله الجميع فليس محل مناقشة ولكنه ليس بموضع البحث فيما نحن بصدده ، ولنا سند من القرآن نفسه حيث ترد الآيات التي يمكن الاستدلال بها على القولين ، فقوله في اول سورة الفرقان : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ لِيكُونَ لِلْعَالَمِينَ نذيراً » قد يقابله في سورة القصص قوله : « لِتُنْذِر قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » وهو يسير – كما هو واضح – الى العرب ، ومثله قوله في سورة الشورى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ » فانه يدعو الى التساؤل عن القرآن العربي هل يخاطب بـه اناس غير المتكلمين بالعربية .

قال : « ان الاوربيين المتخصصين للإسلاميات ينقسمون انقساماً شديداً في هذه المسألة ، فان موير يرى ان الدعوة من البداية الى النهاية كانت دعوة

للعرب وحدهم ولم يُدع بها احد غيرهم ... ولكن ولدكه وجلدزيهر وارنولد – وكلهم ثقات – يقولون ان محمداً عليه السلام اراد بدينه منذ اوائل الدعوة ان يكون ديناً عالمياً ولم يرد به ان يكون مجرد عقيدة وطنية محلية ، ونقول : انه لو كان قد ثبت انه كتب الى هرقل وملك الفرس وغيرهما من الملوك يدعوهم الى الاسلام لا تنتفي الشك بالواقع ، ولكن آراء الباحثين – مع الاسف – لا تميل الى قبول هذه الاخبار، ومونتغومري وات يقول : ان هذه القصة لا يمكن أن تقبل على حسب هذه الروايات ».

ثم ختم جوابه على تعليق الأستاذ الشريف قائلا : « وعندنا صعوبة كهذه في أمر المسيحية ، فهل كان المسيح عليه السلام ينظر الى نفسه كأنه صاحب ديانة جديدة كما جاء في متى حيث يقول : اذهبوا وعلموا جميع الأمم ؟ أو كان ينظر الى نفسه كأنه مصلح لليهودية ليس إلا وأنه ما جاء إلا لهداية خراف إسرائيل الضالة ؟ وأحسب انني أمام هذا الخلاف قد كنت متحرزاً حيث قلت : ان البرهان القاطع غير موجود » .

والأمر البين بعد قراءة هذا الجواب ان الأستاذ لم يكن متحرزاً كما قال في ختام جوابه ولكنه – كما قدرنا – قبل الاطلاع على هذه المقارنة بين الدعوة المسيحية والدعوة المحمدية في كلامه الأخير كان منساقاً مع اغراء المقارنة في غير موضع المقارنة ، فلم يظهر له الفارق الشاسع بين موقف الخلفاء من الدعوة المحمدية وموقف بولس الرسول واخوانه من الدعوة المسيحية ، فان بولس واخوانه لم يكن في وسعهم أن يبشروا اليونان والرومان بمسيح منتظر في بني إسرائيل لخلاصهم واستعادة ملكهم الذي قضى عليه الرومان أنفسهم ، فلا جرم تتحول الدعوة من إسرائيلية الى عالمية لهذه الضرورة التي لا محيص منها ، وليست هناك مشابهة قط بين الدعوة الخاصة ببني اسرائيل وبين الدعوة الى الناس كافة كما وردت في القرآن الكريم بذلك الوضوح الذي فهمه الكاتب ولم يستطع أن يتجاهله في جوابه على اعتراض الأستاذ الشريف .

فهذه هي الثغرة التي نفذ منها خطأ القياس الى رأي الأستاذ النيوزيلاندي مع تقدير حسن النية فيما قرره من حصر الدعوة الإسلامية بين أبناء الجزيرة العربية .

ولسنا نرى دليلا على التحرز – ولا على الجد – في استناد الكاتب الى نزول القرآن باللغة العربية لتعزيز حجته على تخصيص الإسلام بمن يتكلمون اللغة العربية إذ كيف كان يريد أن تكون الدعوة ان كانت عالمية إنسانية ولم تكن مقصورة على المتكلمين بلغة الرسول ؟ انه يمنع بذلك أن توجد في العالم دعوة عالمية إنسانية على الإطلاق أو يفترض فيمن كان يُرسل بهذه الدعوة أن ينطق بألسنة الناس أجمعين .

ولا نحسب قراء الأستاذ النيوزيلاندي قد استفادوا شيئاً من اليقين أو الترجيح بما استشهد به من أقوال المختلفين على عموم الرسالة المحمدية أو خصوصها بين زملائه المستشرقين ، بل كل ما يستفيده القاريء المطلع من وقوع هذا الخلاف أن أناساً غير قليلين بين « جهابذة المستشرقين » يقرأون الكتاب المبين ولا يستبينون منه أظهر معانيه ، بل أظهر كلماته ، التي لا تحتاج الى مراجعة من أخبار الإسلام أو أخبار التواريخ .

فاذا كانت كلمة الناس كافة تحتمل اللبس في أذهان هؤلاء المستشرقين لسبب من أسباب التأويل في اللغة أو في المنطق فما هو اللبس في وصف العباد الذين تكرر الخطاب بانذارهم ودعوتهم الى الدين ؟

اننا نذكر من وصف هؤلاء العباد في الكتاب العربي مثلا واحداً وهو قوله في خطاب النبي بالعربية :

« قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فيه ولا خِلَالٌ . اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » .

فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سُخر لهم البحر وسخر لهم الأنهار وسخر لهم الليل والنهار لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بني الإنسان في جميع البلدان .

وإذا كان عرب الجاهلية قوماً لم يأتهم نذير من قبل فالدين الذي جاء به صاحب الدعوة المحمدية يعم المتدينين الذين سبقت اليهم الرسل ويقوم النبي العربي

بالدعوة اليه ليظهره على الدين كله : « هُوَ الَّذِي أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودين الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون » .

وأياً كان القول في اللغة التي تكلم بها النبي ، وفي صلاح هذه اللغة للدعوة العالمية ، فإن النوع الإنساني يشمل أم القرى وما حولها ولا تمتنع هداية أهلها عزلا لهم عمن عداهم من الناس ، إذ كان خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصوراً على أم القرى ومن حولها ولكن خطاب أم القرى ومن حولها لا يمنع أن يعم الناس أجمعين .

وبعد ، فكيف يسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمدية خاتم النبيين إذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من قبل نذير ؟!!

ان طائفــــة من المستشرقين تسيغ مالا يسيغه العقل في أمر القرآن وأمر الإسلام ، ولا نحب أن يشيع لأحد من هؤلاء قول مسموع في العصر الحاضر ، لأننا نقرأ لغيرهم من فضلاء الأوربيين المحدثـــين صفوة من الآراء السديدة في الإسلام ونبيه ، ينزهونها عن هوى الإستعمار والتبشير ما استطاعوا ويحسنون بها إلى قرائهم وقراء العربية غاية احسان العالم الامين على علمه ،وليس من هؤلاء — ولا ريب — من يذكر الخليفة الفاروق اليوم فلا يعرف له صفة إلا أنـــه مستعمر قديم .

الإسلام في تاريخ العالم

من موضوعات التأليف التي كادت أن تصبح لها في اللغة الإنجليزية « دورة » كالدورة الصحفية ، موضوع الكتابة عن تاريخ العالم في مجلد واحد ، يختصر أو يطبع في الطبعات الدقيقة التي تسمى عندهم بمكتبة الجيب .

ومن الواضح أن الدورة في هذه المؤلفات تحسب بعشرات السنين : كل عشرين سنة هجرية ، أو كل ثلاثين سنة ، أو كل جيل من الاجيال البشرية المتعاقبة ، إذا حسبنا للجيل ثلث قرن على العرف الشائع ، لان السنين الثلاث والثلاثين يلتقي فيها على الدوام جيل قديم ، وجيل مقبل ، وجيل قائم في إبانه .

وقد ظهر في الجيل الاخير باللغة الإنجليزية ثلاثة تواريخ عالمية من مطبوعات المجلد الواحد ، وهي : تاريخ « ولز » المصلح الإجتماعي والكاتب القصصي ، وتاريخ فان لون الناقد الفني والكاتب الاديب ، ثم هذا التاريخ الذي بين أيدينا لمؤلفه جون باول Bowle المشرف على تأليف الموسوعة الجامعة لتاريخ العالم ، وله من مؤهلات الاحاطة بالتواريخ الإنسانية ، والتواريخ الشرقية على الخصوص ما لم يكن لزميليه السابقين ، وان لم يبلغ مبلغهما من الملكة العقلية واستقلال الرأي أمام التقاليد .

---

(١) الازهر يونيه ١٩٦٣

والخاصة التي تتميز بها التواريخ العالمية في مجلد واحد انها تكتب من وجهة نظر مقدورة في موازين مؤلفيها ، فليست هي بمجموعة من المتفرقات لا تربط بينها رابطة غير الاجتماع على خريطة الكرة الارضية ، وليست هي بمجموعة من الوقائع مجردة من المغزى والدلالة على طريقة المؤرخين المسجلين للحوادث العامة في كتب المطولات ، ولكنها أشبه بقصة متناسقة يعرضها شارح واحد يقدم للنظارة شريطاً من الصور المتحركة ، ويذكر لكل مرحلة منه مناسبة ملحوظة تلحقه بالمراحل التي سبقته وتصل بينه وبين المراحل التي تليه .

ولقد كان « ولز » كفئاً لهذا التنسيق على أساس النظرة الواسعة إلى الوحدة الإنسانية في أطوار التقدم الإجتماعي والانتقال من نظام « معيشي » إلى نظام يخلفه ويحل في أكثر الشعوب محله ، وكذلك نظر إلى دور الصيد ودور المرعى ودور الصناعة ، ثم دور التوسع في العلاقات الاجتماعية والأخلاقية التي تقوم عليها دعائم المجتمعات والهيئات الحاكمة .

وكان فان لون مقتدراً على تنسيق التاريخ العالمي في نطاق الحركة الفكرية والدلالات الفنية ، كأنما ينظر إلى الإنسانية في مراحلها المتتابعة نظرته إلى بعثة ثقافية تشتغل بالتموين إلى جانب اشتغالها بالبحث والتحصيل .

أما المؤلف الأخير – وقد ظهر كتابه في أواخر السنة الماضية – فالمرجع الأكبر أمامه هو مرجع الجغرافي الذي استوفى أسانيد الإحصاء وأنباء الصحف والإذاعة ، وأخذ ينقل الأبعاد الزمانية إلى خريطة مكانية يعرض فيها مواقع الماضي كأنها تحصل في الوقت الحاضر ، ولم يتخذ له في هـذا العرض موقفاً مستقلا غير الموقف « التقليدي » الذي يصطنعه « المسجل المعاصر » حين يدين نفسه بمظاهر « الاستنارة » على حسب اصطلاح العرف الحديث .

فكل تعليقاته على الحوادث التاريخية الكبرى فهي تعليقات مسبوقة من بقايا القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، مضافاً اليها علم الرجل العصري كما يستمده من مراجع الإحصاء والإذاعة وبخاصة في القسم المفرد أو الأقسام الموزعة التي عرض فيها لتاريخ الإسلام .

يبدأ بتقرير الواقع المشهور عن دور الإسلام بين أدوار الديانات العالمية ، ويفصله عن ديانات رومة وأثينا والصين والهند بأنه هو الديانة الثالثة الكبرى

بين الأمم السامية ، أولاها اليهودية ثم المسيحية .

ويقارن بين النبي عليه السلام وبين السيد المسيح صاحب الديانة السامية الاخرى وبين « بوذا » صاحب الآرية المهذبة ، فيقول : انه مثلهما يملك العبقرية الدينية ولكنه يمتاز عنهما بالكياسة السياسية مع القدرة العسكرية .

فإذا تكلم عن العوامل الإجتماعية ، والنفسية ، التي ينسب اليها تمكن الإسلام في وطنه ثم انتشاره في سائر الأوطان على نحو لا نظير له من قبله ولا من بعده ، فهنالك تغلب عليه تلك الفكرة «التقليدية» عن عقيدة السيف والغنيمة ، ويفوته التعليل التاريخي الأول الذي ينبغي أن يسبق كل تعليل : وهو انتشار الإسلام لأنه وافق في العالم كله حاجة عامة ، بعد أن حان أوانها وتمهدت الأسباب للوفاء بها في عالم الفكر والضمير .

فكل ما عدا القدرة السياسية والعسكرية في نبي الإسلام فهو قابل للتفسير بحماسة « التعصب » العنيف وبالرغبة في كسب الغنائم ، وبالطبيعة البدوية التي بنيت على تعذد الرحلات والغارات .

ويتبين قصور هذا المؤلف خاصة عن تعليل الحوادث العظمى كلما ذكرنا انه أعرف من زميليه بتواريخ المشرق في كل من الهند والصين والبلاد الملاوية ، وهي البلاد التي يوجد فيها اليوم قرابة ثلثمائة مليون مسلم دخلوا في الديانة الإسلامية بعد عصر الفتح بعدة قرون ، وبغير عامل من تلك العوامل التي تفسرها غارات البدو أو طمع الفقراء من أبناء البادية في كسب الغنائم واغتصاب الديار .

ويتبين هذا القصور من وجهة النظر العصرية قبل كل شيء ، لأنهم تعودوا في هذا العصر أن يعللوا كل نجاح كبير بمقدار الحاجة له والموافقة بينه وبين أشواق النفوس ومطالب المعيشة وضرورات الحياة فماذا يفعل الطمع في الغنائم لو لم تكن للإسلام مزية إنسانية يتطلبها العالم ويستعد لها قبل أوانها ؟ ولماذا لم يفعل هذا الطمع فعله في تاريخ انتشار الديانة اليهودية وهي ديانة قبائل بادية ومطامعها في الغنائم واغتصاب الديار تحل عندها محل الشريعة المقررة في مواعيد الآلهة ؟

وينتقل المؤلف من هذه النظرة التقليدية إلى نظرة تقليدية أخرى عند الكلام

على الحضارة الإسلامية بعد انتشارها بين الشعوب السامية و لآرية ، فهو يعيد هنا تلك الدعوى المحفوظة عن استعارة الثقافة العربية خاصة والإسلامية عامة من الثقافة الاغريقية ، ولا يكلف نفسه مؤونة المقابلة بين ذخائر التراث العربي الإسلامي في الحكمة والطب والكيمياء والجغرافية والتاريخ والأدب وبين الذخائر التي تخلفت باللغة اليونانية في جميع هذه الموضوعات، بل لا يكلف نفسه مؤونة البحث في المسائل المنقولة و المسائل المبتكرة التي تحتوي فيما احتوته ردوداً على حكماء اليونان وعلمائهم وزيادات مستقلة في دراسات الحكمة والطب لم تؤثر عن مرجع يوناني وصل إلى العرب أو بقي له أثر في القارة الأوربية وقد كان أولى من ذلك كله وأقرب إلى التحقيق العلمي أن يسأل المؤلف نفسه : لماذا حوربت الثقافة الاغريقية عند نقلها إلى الأوربيين ولم تحارب هذه الثقافة – بمثل هذه الشدة – بين شعوب الإسلام على اختلاف الأجناس ؟ وربما كان أولى من ذلك أيضاً أن ينظر المؤلف إلى الفن العربي الإسلامي في البناء ليعلم مبلغ استقلال الذوق العربي عن اليونان في ناحية ثقافية من الصق النواحي بهم وهي ناحية الفنون الجميلة ، ويعلم كذلك أن الذوق العربي قد استقل بفنه بين أمم شرقية كثيرة سبقت أبناء الجزيرة العربية إلى تشييد العمائر وابتكار أساليب البناء .

ولكن المؤلف يشهد للحضارة العربية الإسلامية شهادة تشفع له في هذه الزلة التقليدية ، لأنه يقرر بعد إسهاب الكلام عنها انها لم تستتبع في التاريخ دوراً من أدوار الظلمات كما حدث بعد الحضارة الرومانية اليونانية بين أبناء القارة الأوربية .

ومن النظرات التقليدية التي سيق اليها المؤلف تلك المقارنة بين العقيدة الاسرائيلية والعقيدة الاسلامية كما وردت في كتب الديانتين ، ويذكر من هذه المقارنات أن القرآن يسأل الانسان : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ » وعنده ان هذا السؤال الالهي كسؤال الله للنبي أيوب « أأنت الذي زينت جناحي الطاووس ؟ » وان العقيدة الالهية متقاربة اذن – بين الديانتين !!

وفي هذه المقارنة اكثر من خطأ واحد لأنها مجموعة من الأخطاء لا يتخللها صواب واحد في جهات الموازنة بين الجانبين .

فالخطأ الأول ان سفر ايوب ليس من الأسفار الاسرائيلية ، لانه خلا من كل اشارة إلى الفداء او الى المسيح المنتظر لخلاص بني اسرائيل ، ولم يكتبه نبي من اليهود .

ويماثله في الخطأ ان الاله في سفر أيوب لا يمثل إله الكتب الاسرائيلية « يهوه » الذي يدين عباده بميزان محدود ويدين سائر العباد بميزان آخر غير ذلك الميزان .

ويأتي بعد ذلك خطأ المقارنة بين عبارة عارضة في سفر أيوب وبين العبارات القرآنية التي تنتظم الكتاب كله ، ولا تدع في الارض او السماء صورة من صور الخلق لا يقام بها الدليل على وجود الخالق وعلى رحمته وعدله واستغنائه بدليل العقل عن أدلة الخوارق والمعجزات .

وشفيع المؤلف في هذه الاسطورة التقليدية ان خص الاسلام بالقوة الصالحة لتوثيق الوحدة « الاخوية » بين المؤمنين وانه لم ينظر الى فارق من فوارق الجنس واللون او فوارق الغنى والفقر كأنه فارق حائل دون جامعة الاخاء بين أبناء آدم وحواء ، ولكنه على هذا التقدير منه لدعوة الاخوة الانسانية في الاسلام لم يذكر لهذا الدين حسنته « الانسانية » الاولى في انقاذه لبنات حواء من مذلة العبودية ، ومن مذلة الحرمان من الروح ، ذلك الحرمان الذي أوشك ان يلحقها بالخلائق العجماء .

وقد لازمه خطأ الفهم الى النهاية حين ختم فصله الخاص بانتشار الدين معيداً قوله في الفصل كله : ان الصبغة « الحربية » قد لازمت حضارة الاسلام في كل صفحة من صفحاتها التي مثلتها عواصم دمشق وبغداد والقاهرة والقسطنطينية ، وان سر هذه الصبغة كامن في الدفعة « الديناميكية » الباقية منذ قيامه على « عصبية الصحراء » وينسى في هذا الختام الموجز كل ما قرره عن خاصة « الاخوة الانسانية » التي اختص بها هذا الدين « السمح » الكريم .

مُراجعاتٌ إسلاميّة[1]

هذه سلسلة من الكتب المستقلة تصدر باللغة الانجليزية من مطبعة جامعة « ادنبرة » في موضوعات منوعة من مباحث التاريخ والشريعة ، تشمل فيما تشمله اجزاؤها التي ظهرت حتى الآن والتي ستظهر في المستقبل أبواباً من الدراسة العلمية عن وجهات الاسلام في العصر الحاضر وعن الاسلام في البلاد الافريقية وراء الصحراء الكبرى ، وعن الاسلام في الصين ، وعن صفحات التاريخ الاسلامي في دولة بني عثمان ودولة المسلمين بالاندلس ، مع الاحاطة بأبواب البحث في المذاهب الفكرية التي ذهب اليها علماء الاسلام ودعاته ، بين المتصوفة والمتكلمين والمعتزلة والخوارج والظاهرية وغيرهم من أهل السنة والمعتزلة والمتشيعة ، في العصور المتتابعة .

ولا تخفى عناية القائمين على تأليف هذه السلسلة بالتحقيق العلمي والدقة التاريخية ، ولكنها تدل من جديد على الصلة الوثيقة بين سياسة الدولة في الغرب وبين دراسات العلماء للمباحث الاسلامية ، ولو كانت خلواً من مقاصد التبشير ومآرب الاستعمار الظاهرة ، فلا تزال دراسة الاسلام غرضاً من أغراض الدول الكبرى التي تستطيع الانفاق عليها كلما احتاجت الى كلفة تقصر عنها مقدرة المؤلفين والناشرين طلاب المنفعة التجارية ، ولا يزال الموضوع من موضوعات الدولة في الغرب على مقدار اتصالها بالسياسة العالمية في البلاد الشرقية، ولكنه

---

(١) الازهر أكتوبر ١٩٦٣

قد يختلف بالاسلوب والمنهج مع اختلاف أطوار السياسة من جيل إلى جيل

جاء في مقدمة الكتاب الأول من هذه السلسلة « ان نذر الحرب التي كانت في سنة ١٩٣٩ وشيكة ان تجر اليها شعوباً أسيوية كثيرة قد نبهت المسئولين في بريطانيا العظمى فجأة إلى قلة المتخصصين عندنا لدراسة اللغات الآسيوية وثقافاتها ، ومن هنا كان تأليف لجنة « كاربرو » التي كان لتقريرها أثر في توسيع نطاق الدراسات الشرقية والافريقية بعد الحرب العالمية في بريطانيا العظمى ، وتبين من مجرى الحوادث في العقد الثالث بعد الحرب العالمية ان أفق الاطلاع الذي لا يزال في اتساع مع الزمن يكشف لنا عن ضرورة العلم بنصيب من المعرفة يزيد على تلك المعرفة السطحية بما وراء الثقافة الاوربية ، وفي مقدمة ذلك ما حدث من ازدهار بلاد كثيرة نحو الاستقلال بالقارة الافريقية . وبينها أمم اسلامية او أمم يحكمها رؤساء مسلمون ، تدل مواقفها على ازدياد نصيب العالم الإسلامي من العلاقة بالسياسة الدولية » .

فاهتمام السياسيين بالدراسات الاسلامية باق على عهده منذ نشأت هذه الدراسات في القارة الاوربية قبل بضعة قرون ولكنها تتغير بين جيل وجيل ويجوز لنا ان نعتبر هذا التغير نفسه علامة من علامات الزمن في تطور السياسة العالمية .

فالعناية بتمحيص البحث العلمي تدل على انقضاء عهد الاستشراق لنشر دعايات التبشير او الاستعمار بين شعوب البلاد المحكومة على العموم ، ثم تدل على حاجة الساسة المستعمرين إلى فهم الحقيقة عن المسلمين ، لانهم لا يسيطرون عليهم اليوم بسلطان القوة التي يتساوى فيها حسن الفهم وسوؤه عند من يقبض على زمام القوة الحاكمة بيديه ، وإنما يحاولون النفاذ اليهم عن علم صحيح بما يشعرون به ويفكرون فيه ، ويضيرهم ان يجهلوا الحقيقة على جليتها قبل ان يضير المسلمين ، بما يمس تاريخهم الصحيح او شعائرهم المعتقدة .

والكتاب الاول من هذه السلسلة مقصور على البحث العلمي في الفلسفة الإسلامية وما يسميه الاوربيون بعلم اللاهوت عند المسلمين ومؤلفه هو الاستاذ « مونتغومري وات » مدرس اللغة العربية بجامعة ادنبره ، وله مشاركات كثيرة في بحوث التاريخ الاسلامي والثقافة الاسلامية غير اللغة وآدابها .

ولا يغيب عن الناظر إلى بحوث الكتاب فرط العناية بتمحيص الوقائع من مصادرها المتشعبة ، فقلما يفوت مؤلفه مصدر من المصادر الشرقية او الغربية عن علاقة الفلسفة واللاهوت بمذاهب الفرق من قديمها في صدر الإسلام إلى حديثها في هذا القرن الرابع عشر للهجرة . وقد عرض – بهـــذا الاطلاع الواسع – لمذاهب المتـكلمين والفقهاء والصوفية والمعتزلة والاشاعرة وغيرهم من المجتهدين والمقلدين جهد ما اتسعت له صفحاته المحدودة في كل جزء من أجزاء السلسلة ، وهي في هذا الجزء لا تزيد على مائتين ، واقترنت تحقيقاته للمذاهب والفرق بتحقيقات مثلها لآراء المجتهدين والائمة الفقهاء ، ولا سيما الائمة الذين تبعتهم فرق حديثة كان لها شأن في حكومات البلاد الإسلامية ، كابن تيمية وابن قيم الجوزية، وبعض فقهاء الشيعة والظاهرية .

وقد يدل على منهج الكتاب كله موضوع واحد من موضوعاته عن المعتزلة ، وهم اوفر الفرق الإسلاميه حظاً من دراسته واجتهاده .

فالاهتمام بالجانب السياسي ظاهر من سؤاله عن العلاقة السياسية بين آراء المعتزلة وقيام الدولة العباسية بعد الدولة الاموية ، هل كان للسياسة شأن في تكوين آراء المعتزلة وتحديد موقفهم بين الدولتين ؟ وما مبلغ هذا الشأن من الاثر في أحداث السياسة وفي تدوين التاريخ .

ان خلفاء العباسيين كانوا يختارون لمناصب القضاء أناساً من علماء المعتزلة ، وكان لبعض هؤلاء العلماء علاقة بأبي مسلم الخرساني قبل التنكيل به عـــلى أيدي بني العباس .

ولكن هذه الحظوة على كثرة ظواهرها لا تدل في رأي المؤلف على اصطباغ مبادىء المعتزلة بصبغة الدعاية العباسية ولا بصبغة الدعاية للفرق المتشيعة ، وكل ما يثبت منها ان الدولة الاموية قد جمعت على مقاومتها كل داع إلى التجديد في مسائل الدين والمذاهب الفكرية ، وهذه الجامعة الواسعة هي التي قربت في دولة العباسيين بين دعاة التشيـــع ودعاة الاعتزال ودعاة الاجتهاد في الفقه والشريعة ، ولو كان المجتهدون من أئمة السنة الذين لم يتخذوا لهم منهجاً غير منهج الجماعة .

ويصحح المؤلف اخطاء الاوربيين الذين سبق إلى أوهامهم ان المعتزلة هم

فلاسفة الإسلام ، عنـدما اتصلت بهم جملة اخبارهم في مطلع القرن التاسع عشر .

ويأبى المؤلف ان يطلق على المعتزلة لقب فلاسفة الاسلام على الخصوص بمعناه الذي يقابل عند الاوربيين لقب « احرار الفكر » وهو قريب في مفهومهم من لقب الزندقة .

فالمعتزل لا ينشر مذهبه ليصبـغ الاسلام بصبغة الفلسفة اليونانية او ليداري ميوله الفلسفية بصورة من صور الشعائر الاسلامية ، ولكنه – على نقيض ذلك – يدفع بالعقل حجة الفلسفة المنطقيه ، ويأخذ السبل على منافذ الطعن في قواعد الفكر الاسلامي بحجة من حجج المنطق او الفلسفة ، ولقد يكون المعتزل في تحرجه من التصرف في عقيدته على حسب تفكيره اشد محافظة وأصعب مراساً من السني الذي لم يعتزل الجماعة ، وربما كان خصوم الفلسفة الأجنبية المعتزلة أكثر عدداً وأمضى سلاحاً من خصوم هذه الفلسفة بين المحافظين المتشددين .

وقد كان المعتزلة يحتكمون إلى العقل في الرد عــلى خصومهم المقلدين كما يحتكمون إليه في الرد على أشياع الفلسفة الاجنبيـــة ولكنهم كانوا دينيين في تفكيرهم ولم يكونوا فلسفيين متصرفين ، وأكثر ما يبدو ذلك على طبيعـــة تفكيرهم حين يعرضون لمسألة الصفات ودلالتها على وحدة الذات ، فإنهم عالجوها بالنظرة التقليدية إلى الالفاظ ومعانيها ولم يعالجوها بتفكير الفيلسوف ولا بتصرف الناظر فيما وراء الطبيعة .

ويشك المؤلف في سبب اطلاق اسم المعتزلة على هذه الطائفة من مفكري الإسلام فالمشهور ان الإمام الحسن البصري قال عن واصل بن عطاء : « انه اعتزلنا » فلصقت كلمة « الاعتزال » بواصل منذ ذلك الحين ولكن المؤلف يذكر قصة كهذه رويت عن قتادة وعمرو بن عبيد ، ولا يرى وجهاً لترجيـح احدى القصتين على الاخرى فربما أطلق وصف الاعتزال على العابد الذي يعتزل الصفوف أو على « المحايد » الذي يعتزل القتال وينفرد بين الصفين ، وليس من اللازم ان يكون الاعتزال خروجاً على عقيدة الجماعة او اعتزالا لتقاليد الدين .

ويقسم المؤلف جماعة المعتزلة إلى مدرستين كبيرتين تتفرع عليهما سائر المدارس الصغيرة في البلاد الاسلامية :

احداهما مدرسة بغداد التي تدين بالامامة لبشر بن المعتمر، وأشهر ما اشتهرت به في مسألة القدر والاختيار قولها بتولد الاعمال للعبد المكلف ، ومنه ، على رأي المؤلف ، يقتبس الاشعريون قولهم بالكسب مع التقدير .

والمدرسة الاخرى – مدرسة البصرة - يقودها أبو الهذيل ويبرز فيها اسم تلميذه النظام، ويتوارد في أقوالها بعض مصطلحات الفلسفة اليونانية كالجوهر والعرض وعلاقة الجوهر الفرد بتركيب المادة

وكلتا المدرستين لم يكن لهما أثر فيما يسميه المؤلف باللاهوت الاسلامي، ولم يبق منهما بقية في غير مجال الدراسة « الاكاديمية » وإنما ظهر من المنسوبين اليهم نخبة من كبار الفقهاء كالقاضي عبد الجبار والزمخشري وهو خاتمة الفقهاء الكبار في تاريخ هذه المدرسة التي كان أثرها الاكبر مقصوراً على القدرة العلمية في احتكام المسلم إلى عقله واجتهاده بعلمه ودراسته للخلاص من ربقة التقليد .

وقد توسع مؤلف الكتاب في شرح تاريخ الخلاف على مسألة خلق القرآن ، وربط بينها وبين مسألة الصفات ومسألة الكلام القديم في نسبته إلى الله ، ولم يغفل قول القائلين : ان القرآن معرفة الله وانه قديم أزلي أبدي لان الله لم يكن ولا يكون بغير معرفة، ولم يغفل كذلك تفرقة القائلين بالخلق بين كلام الله في أزليته وكلام الانسان فيما يلفظه بشفتيه ، او يسمعه من المتحدث اليه ، ولم يتخذ له طرفاً من الطرفين يجنح اليه او يميزه برجحان الحجة وصحة التفسير ، ولكنه لزم بين الطرفين خطة الامانة في النقل ولم يزد عليها . فإن كان قد زاد من عنده شيئا فهو سرعة الاصغاء إلى الاقاويل التي لا تستحق الرواية إلا لصرفها بما هي أهل له من الاهمال . ومن ذلك نقله ما كان يشاع عن تحدي ابن المقفع لبلاغة القرآن ، وافتراضه ان القائلين بخلق القرآن قد أرادوا بذلك ان يهونوا أمر الاستقلال بالتشريع عنه ، وأن يجعلوا له منزلة دون منزلة القداسة الابدية التي تقرنه في القدم بالصفة الالهية ، فما من مسلم قال بخلق القرآن وهو يدعو بذلك إلى الشك في كلام الله وانه مستحق للطاعة كما يستحقها كل كلام يأتي من عند الله .

دراسة للإسلام المعاصر(1)

على الساحل الغربي للقارة الإفريقية(*)

دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربي للقارة الافريقية، موضوع كتاب ألفه الاستاذ همفري فيشر ، وخص الكلام فيه بالطائفة الاحمدية ، التي يظهر من ثنايا فصول الكتاب أنه على خبرة وافرة بشئونها حيث يقيم المنتسبون إلى هذه الطائفة في الهند وفي الديار الافريقية .

وقد بدأ الكتاب بفصل عـــن خصائص الاسلام وخصائص الوثنية التي تساكنه على رقعة واحدة من القارة الافريقية، وأدار مباحثه على أربعة أبواب: الباب الاول منها يشرح فيه العقائد الاسلامية عامة ويتناول بالشرح نواحيهـــا الخاصة حيث تتصل بالشعوب الوثنية مؤثرة فيها او متأثرة بها ، على نحو يخالف بعض المخالفة مراسم العبادة وأشكالها في الاقطار الاخرى والباب الثاني يحمل تاريخ الطائفة الاحمدية منذ نشأتها بالهند في أواخر القرن التاسع عشر ، ويتتبـع أدوار نشأتها إلى أن قام بالامر في الطائفة « محمود احمد » ابن صاحب الدعوة غلام احمد القادياني ، فانقسمت الطائفة قسمين احدهما المشهور باسم جماعة لاهور ، وهو يقترب شيئاً فشيئاً من عقائد أهل السنة ويفارق شيئاً فشيئاً بعض الدعوات

---

(١) الازهر ديسمبر ١٩٦٣

A study in contemporary Islam on the west african coast(*)

التي خالفت عقائد اهل السنة عند نشأة الطائفة ، والقسم الآخر هو الذي تولى الدعوة بين الوثنيين من اهل افريقيـــة ، ورسم لتلك الدعوة خطة للتودد إلى القبائل الوثنية ، وسماها بخطة الجهاد السلمي ، محاولا بها أن يجتنب كل غرابة ظاهرة تنفر الوثنيين وتوقع في نفوسهم ان الدين الجديد يعاديهم وينفصل عنهم كما ينفصلون عنه ، بغير أمل في التفاهم والتقارب بين الطرفين ، وذلك في حدود المحافظة عـــلى جوهر العقيدة الإسلامية والترخص بعض الشيء في قشور المظاهر وأشـكالها .

والبابان الثالث والرابع يشتملان على خلاصة تاريخية للأعمال التي قام بها المبشرون بدعوة الطائفة ثم قام بها ولاة الأمر لتوطيد الحـكم الإسلامي وتنظيم الحياة الاجتماعية بين القبائل التي تحولت عن الوثنية .

والمفهوم من جملة هــــذه الأبواب أن الدعوة نجحت في توحيد الشعائر الاجتماعية العامة ، وهي صلوات الجماعة والأعياد وصيام شهر رمضان وأداء فريضة الحج بالتعاون بين القادرين عليها والعاجزين عنها

فالصلوات الجامعة يشترك في أدائها جمهرة المسلمين من الدعاة او المتحولين عن العبادات الوثنية ، وتزدحم المساجد الكبرى بالمصلين أحياناً حتى تمتـــد صفوفهم إلى الطرقات والأسواق حول تلك المساجد الكبرى .

وصلوات الأعياد - خاصة - يذكر لها أثر بليـغ في تهذيب الحـكام واصلاح أداة الحكومة ، لأنها المناسبة التي يقف فيهـــا الحاكم أمام الله وأمام الشعب ، ويجدد عهوده على البر والتقوى وتوثيق عرى المودة بين الرعاة والرعايا .

ويقول المؤلف نقلاً عن مصادر التبشير التابعة للكنيسة الـكاثوليكية ان المبشرين الذين يقدمون إلى البـــلاد وهم لا يعرفون جانب القوة في الدعوة الإسلامية هناك كانوا يسألون زملاءهم : ما هو الجانب الحسن في هذه الدعوة ؟ فيقال لهم : انه الإيمان بالتوحيد ، وإقامة الصلوات العامة ، ورعاية الصيام في موعد من السنة .

ويذكر المؤلف ان رعاية شهر الصيام قد تغلغلت في تقاليد القوم حتى أصبح الوثنيون يتجنبون القتال فيما بينهم خلال شهر رمضان ويعتبرونه شهراً حراماً

لا يجوز فيه حمل السلاح ضد الأعـــداء ، ولو لإدراك الثأر ورد العدوان القديم بمثله .

وفي المسائل التي تيسر التلاقي عليها بين الوثنيين والدعاة إلى الدين الجديد مسألة التراتيل الدينية في الأذكار العامة فان الافريقي معروف بمحبته للغناء وارتياحه إلى المحافل التي يترنم فيها بالألحان والأهازيج ، فاستعان الدعاة بعادات القوم المطبوعة في عباداتهم الموروثة على اجتذابهم إلى محافل الذكر التي يرتلون فيها الأناشيد ويذكرون فيها اسم الله وصلوات الحمد والدعاء بدلا من عبارات السحر والطلاسم التي حفظوها من كهانهم عبدة الأصنام والارواح والشياطين .

وترخص الدعاة مع أبناء القبائل في عادات التضحية والتقدم بالقرابين من الحيوان والثمار إلى معابد الوثنية ، ولكنهم يجتهدون في تحويلها من شعائر الوثنية إلى شعائر التقرب بها إلى الله للإحسان والصدقة او للإشتراك بالطعام في الولائم العامة .

وتعد رحلة الحج من أقدس المراسم وأحبها إلى المسلمين الافريقيين، ينتظرون موعدها ويرحبون بالعائدين من الديار المقدسة بين أهل القرية من أقارب الحجاج او جمهرة الغرباء عنهم ، ويحسبونها فريضة اجتماعية يتعاون المؤمنون على أدائها، فيصطحب القادرون من يستطيعون الإنفاق عليهم لزيارة بيت الله الحرام وأداء الفريضة في موعدها، ويتبرع الاغنياء الذين يحال بينهم وبين السفر لمن يريد السفر من الفقراء ولا يقدر عليه ، ويعتقدون ان ثواب المسافرين كثواب المقيم الذي اخلص النية للحج ولم يقدر عليه لمرض او مانع لا اختيار له فيه .

مما حرص عليه الدعاة المحدثون ان يجتهدوا غاية اجتهادهم في تبديد كل ما علق بأذهان الوثنيين من الوهم عن معنى الجهاد في الإسلام وأن المسلم لا يستبيح قتل الوثني بالسيف في كل حال ، ولا يوجب عداوة الوثني لغير سبب ما لم يقابله بالعداء ويحظر عليه الدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإنما كان ابتداء الجهاد بالسيف في تلك الأقطار بعد عودة أبي بكر بن عمر من المغرب للتوفيق بين أمراء الموحدين وتوحيد كلمتهم في صد العدوان من أمراء الوثنيين الذين أغلقوا أبواب بلادهم في وجه الدعوة الإسلامية ، ولولا ان الامراء الوثنيين حملوا السيف لصد الإسلام عن سبيله لما تصدى لهم أمراء المسلمين في ميادين القتال .

ولكن أصحاب السلطان في البلاد القوا في روع اتباعهم ان الدعوة إلى الإسلام لا تعني شيئاً غير القتال واستباحة دماء المخالفين من المحاربين والمسالمين، وجاء المبشرون بعد القرن السابع عشر فجعلوا همهم كله ان يؤكدوا هذا الوهم وان يبالغوا في اظهار الفرق بين دعوة التبشير ودعوة « الجهاد » كما فهموه وتوارثوا فهمه منذ سنين .

فلما ابتدأ « المجاهدون » المحدثون دعوتهم أعلنوا انهم خرجوا للجهاد « السلمي» ولم يحملوا السيف ولا هم يعلمون بينهم وبين الوثنيين موضعاً للخلاف يصعب التفاهم عليه بالمودة والاقناع، وترخصوا في قبول العادات والتقاليد التي يألفها الوطنيون ولا يسهل تحويلهم عنها دفعة واحدة ، ولا هي مما يبعدهم عن الإسلام في جوهره او يتعذر على العادة الجديدة ان تحل فيه محل العادة الموروثة، لانها قد تصطبغ بصبغة الاسلام مع بعض التعديل ، كما حدث في مسألة القرابين ومسألة الاذكار والتراتيل .

* * *

ويروي المؤلف عن الباحث الحديث في تاريخ الاسلام « ترمنجهام » اهم العقائد التي يشترك فيها جميع المتدينين في افريقية الغربية من المسلمين او الوثنيين الذين لم يصلوا إلى الاسلام ولكنهم ماضون في طريقهم إليه ، ومنها الايمان بالحساب واليوم الآخر ، والايمان بعالم الغيب في حياة أخرى غير الحياة الدنيا ، وربما فصلت عقيدة الحياة الاخرى عروة العلاقة في الأسرة التي جعلت الآباء والاسلاف أرباباً يعبدها الوثني وأرواحاً يتزلف إليها وينتظر المعونة منها ، فإن عقيدة الحياة الاخرى قد تقيم القنطرة التي تيسر للأحياء العبور إلى الاموات وتيسر للاموات العبور إلى الأحياء ، ولكنها لا توحد بين السماء والجحيم ، ولا تسمح بانتظار بعث الميت واللقاء بينه وبين ذريته قبل يوم النشور ، ولكن العقبة قد يتأتى تذليلها من طريقين : احدهما ان الاسلاف لم يكونوا في جميع الأحوال عوناً صالحاً للاخلاف ولا كانوا على أهبة الاجابة والتلبية لدعاء الابناء والاحفاد ، فلا أسف على إقصاء الكثيرين منهم عن المحاريب ، والطريق الآخر ان بعض الوثنيين سبق إلى خواطرهم ان تحويل

الأب عن الوثنية جائز بعد انتهاء أجله ، فقد كان أحد الآباء ينهى ابنه عن دخول الاسلام وظل ينهاه حتى فارق الحياة ، فلما قضى نحبه دان الفتى بالاسلام وظهر له أبوه في المنام فلم يسمع منه زجراً ولا تأنيباً على مخالفة وصاياه ، بل علم منه انه هو نفسه قد اهتدى إلى الإسلام .

وهذه السلوى التي لجأ إليها ضمير الفتى المسلم للتوفيق بين حقوق الاسلاف في عقيدته الأولى وبين عقيـــدة الإسلام في الروح بعد الموت مثل حي من أمثلة البقايا التي تتخلف في ضمير الوثني المهتدي إلى الاسلام من شوائب ديانته السلفية ، ولكنها مرحلة من مراحل الطريق لعلها قريبة الزوال ، ولعلها أهون من رفضه وارتداده وهو على أبواب الحظيرة الاسلامية .

على أننا نتساءل ونتفاءل بعد الالمام بعاقبة الجهود في ذلك الجهاد السلمي : الا يجوز أن تصبح افريقيا الغربية ميداناً لتوحيد الكلمة وتقريب المقاصد بين الدعاة إلى الاسلام على هدى الكتاب والسنة ؟ غاية مـــا يرجى أن تظل تلك البلاد ميداناً للتقريب بين طائفة داعية وبين سائر الطوائف من المقبلين عـــلى الاسلام .

الإسلام والنظام العالمي الجديد[1]

- ١ -

في سنة ١٨٨٩ ، ظهر في بنجاب بالهند ، ميرزا غلام أحمد القادياني صاحب الطريقة القاديانية المشهورة ، وأخذ — وهو في الخمسين من عمره — ينشر الدعوة إلى تلك الطريقة التي تشتمل على عقائد كثيرة لا يقرها الإسلام ، ولا يقبلها دين من الأديان الكتابية ، ومن ذلك انه هو نبي الله المرسل وانه عيسى بن مريم قد بعث إلى الأرض في جسد جديد !

وفي سنة ١٩١٤ تطورت تلك الطريقة إلى حركة إسلامية تنكر نبوة القادياني ، وتنكر الحكم بالكفر على من يؤمن بالقرآن ورسالة محمد عليه السلام كائناً ما كان الخلاف بينه وبين الشيع الدينية الأخرى ، وتحول إلى هذه الحركة كثير من أتباع القادياني وكثير من طلاب التجديد بين السنيين والشيعيين ، وظهرت لهم كتب كثيرة ، باللغة الأردية واللغة الانجليزية في التبشير بالإسلام ، مع ترجمة خاصة للقرآن الكريم ، وتواريخ موجزة للنبي وخلفائه الراشدين .

وليست تفسيرات هذه الجماعة للكتاب والسنة بالتي توافق مذاهب الفقهاء المتفق عليها ، لأنها تصرف معاني القرآن إلى تأييد أقوال لم تخطر للاولين على بال ، وليست من مقتضيات الدين في رأي الأقدمين أو المحدثين .

---

(١) الرسالة ،

ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن هذه الطائفة هي أوفر المسلمين نشاطاً ، وأشدهم دفاعاً عن العقائد الإسلامية ، وأكثرهم اجتهاداً في نشر فضائل الدين وأعرفهم بالأساليب التي توجه بها الدعوة إلى العقول الأوربية ، وإلى جماهير المتعلمين في الشرق والغرب على الإجمال .

وهم يحسنون انتهاز الفرص من الحركات العالمية والدعوات الثقافية حيثما ظهرت في قطر من أقطار المعمورة ، فيدركونها في إبانها بكتاب يثبتون فيه ان الإسلام أصلح من تلك الدعوة لعلاج المشكلة التي تتصدى لعلاجها ، ويقرنون ذلك دائماً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشواهد التاريخية ، وإن فسروها بعض الاحيان تفسيراً لا يقرهم عليه السلفيون أو المتزمتون .

فلما دعا النازيون والشيوعيون إلى « نظام عالمي جديد » لإنقاذ العالم من معضلاته الروحية والسياسية والاقتصادية بادر كاتب من أقدر كتاب هذه الجماعة إلى تفصيل موقف الاسلام من هذه النظم أو من مذاهب الفلسفة التي تعتمد عليها ، فصدر باللغة الاردية مؤلف قيم لهذا الكاتب القدير ، وهو السيد محمد علي مترجم القرآن إلى اللغة الانجليزية ، ثم نقله حديثاً إلى اللغة الانجليزية فوصل الينا عن طريق العراق .

قرر السيد محمد علي في الصفحات الاولى من كتابه أن خلاص النوع الانساني لا يتأتى ولا يعقل أن يكون بغير عقيدة روحية عاطفية صالحة لتوحيد الناس في نظام واحد، يتكفل بحاجات الضمائر والأجساد، وان تقسيم الارزاق بالاسهم والدوانق والسحاتيت قد ينشيء بين الناس — إذا تيسر — شركة من شركات التجارة وتوزيع الارباح ، ولكنه لا يخلق في الانسان تلك العواطف النبيلة التي تسمو به على مطالب الجسد ، وتكبح فيه نوازع الاثرة العمياء وهو مغتبط قرير الفؤاد .

قال : ولم تفلح عقائد الغرب في إحياء هذه العاطفة الروحية ، لان أوربا قد انحرفت بالمسيحية عن سوائها، ولان المسيحية تعنى بخلاص روح الانسان في حياته الاخروية ولا تعرض عليه حلا من الحلول التي تقبل التطبيق في الحياة الدنيا بين وحدة عالمية من جميع العناصر والاقوام ، ولو كانت مسيحية الغرب

علاجاً لمشكلات الانسان في العصر الحاضر لعالجت تلك المادية الماركسية التي طغت على الروسيا الحديثة واقتلعتها من أحضان الدين والايمان بالله .

أما الشيوعية فيقول السيد محمد علي إنها شر من نظام رأس المال، لان شرور هذا النظام تتفاقم كلما قل أصحاب رؤوس الاموال ، ومن خطط الشيوعية أنها تحصر رؤوس الاموال في يد واحدة هي يد الدولة ، وهي نهاية شر على الانسان، من حصر رؤوس الاموال في يد فرد واحد أو جملة أفراد ، لان الدولة تصول بالقوة التي لا تقاوم ولا يملكها الاغنياء بالغاً ما بلغ نصيبهم من الثراء . وقصارى الامر إذا اجتمعت الاموال في أيدي الحكومة أن يصبح الحكام عصبة مستغلة تحل مع الزمن محل الشركات والمصارف الكبرى ، وتصول على الناس بقوة لا تملكها تلك المنشآت .

لكن الاسلام وسط بين نظام رأس المال ونظام الشيوعية ، ينفي المساوىء عن النظامين معاً ، ويأخذ بالمحاسن منهما بالقدر الصالح للجماعات .

فهو يكره للمسلم ان يكنز الذهب والفضة قناطير مقنطرة ، ويحرم عليه الربا الذي يتيح لاصحاب رؤوس الاموال أن يستغلوا جهود العاملين بغير جهد مفيد ، ثم هو يأمر بالزكاة ويسمح بالملك ، ويطلق السبيل للمنافسة المشروعة، فلا يقتل في النفوس دواعي السعي والتحصيل .

وقواعده الخلقية صالحة لانشاء الوحدة العالمية ، لانه يسوي بين الاجناس ، ولا يرى للابيض على الاسود فضلا بغير التقوى ، ويعترف للافراد بالمساواة والحرية ، ويجعل الحاكم « إماما » يقتدى به ولا يجعله رباً متصرفاً بمشيئته في عباد الله .

ومن هنا يتقرر المستقبل في العالم الحديث لمبادىء الاسلام ، لانه يقود العالم كله إلى الخلاص بعد فشل رأس المال ، وفشل الشيوعية ، وقصور العقائد الروحية الاخرى عن تدارك أحوال المعاش وتدبير الحلول للجماعات الانسانية في مشكلات الاجتماع والاقتصاد وما يتفرع عليها من مشكلات الاخلاق والآداب .

والاسلام يحول بين الانسان وبين الاستغراق في شؤون المعاش ومطالب

الاجساد ، لانه يناديه إلى حضرة الله العلي الاعلى خمس مرات في الليل والنهار ، فلا تطغى عليه النزعات المادية وهو يتردد بين عالم الروح وعالم الجسد من الصباح الباكر إلى ان يضمه النوم بين جناحيه .

وقد دبر الاسلام مشكلة البيت ، كما دبر مشكلة السوق والسياسة ، لانه فرض للمرأة حق الاكتساب ولم يجعلها سلعة تباع وتشرى لاشباع الشهوات ، وربما دبرت لها حكومات الغرب صناعات للرزق وأجوراً في حالات البطالة ، ولكنها لا تدبر لها « البيت » الذي هو الزم لها من القوت والكساء .

ومما يؤكده السيد محمد علي ان الاسلام يزكي وحدة الزوجة ويفضل هذا الزواج على كل زواج إلا ان الشرائع لا توضع لحالة واحدة ، والدنيا كما نراها عرضة لطواريء الشذوذ والاختلال ، ومن هذه الطواريء ما ينقص الذكور عدة ملايين ويزيد الاناث بمقدار هذا النقص في عدد الذكور ، فضلا عن الزيادة التي تشاهد في عدد النساء من كل أمة على وجه التقريب في غير أوقات الحروب . وان تعدد الزوجات في أمثال هذه الاحوال لخير من البغاء المكشوف ، فقد قبلت المرأة الاوربية مشاركة الخليلات المعترف بهن وقبلت مشاركتهن في الخفاء ، وأصبحت هذه المشاركة نظاماً اجتماعياً مقرراً لا معنى بعد قبوله وتقريره للاعتراض على تعدد الزوجات الشرعيات ، فهو على الاقل أصون للآداب ، وأكرم للنسل ، وأجمل بمنزلة المرأة من مهانة الابتذال . وأصلح للاعتراف به في علاقات المجتمع وقوانين الاخلاق .

والكتاب لطيف الحجم لا يتجاوز مائة وخمسين صفحة من كتب اللغة الانجليزية الصغيرة ولكنه واف بموضوعه متقن في ادائه واستدلاله ، ولا نعده من كتب التبشير التي تراد بها الدعوة بين الامم الاوربية وكفى ، فقد يحتاج المسلم لقراءته والتأمل في مراميه ، ليعلم ان المذاهب المادية والدعوات السياسية التي تتمخض عنها افكار المبشرين بالاصلاح في أوربا وأمريكا لا تحتوي من أسانيد الاقناع ما هو اقوى واجدر بالتأمل من هذه الاسانيد.

من الدعوة الهندية (1)

أتلقى منذ كتبت بالرسالة مقالي عن الإسلام والنظام العالمي الجديد كتباً ورسائل مطبوعة وغير مطبوعة، يتكلم المطبوع منها عن القادياني والجماعات التي تناصره أو تنفصل عنه، وتفسر الرسائل الأخرى بعض ما يؤخذ على الدعوة القاديانية أو تنحي على هذه الدعوة باللائمة وتحاسبها على التفرقة بين المسلمين وإحداث البدع في عقائد الإسلام.

ومن أعجب هذه الرسائل رسالة مؤيدة للقادياني من زاوية الحصني بدمشق طبعت في أعلاها الشهادتان والبسملة، وأن الدين عند الله الإسلام، ثم هذه العبارة: « نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود، وقال كاتبها: « إن أحمد عليه السلام ادعى النبوة حقاً، وليس في ادعاء النبوة مخالفة للاسلام أو لدين من الاديان كما تقولون، وإن المسيحية تنكر مجيء أحد بعد المسيح عليه السلام سوى رجوعه اليها بالرغم من وجود ذكر النبي بعد المسيح في أول إصحاح من انجيل يوحنا. وأما القرآن المجيد فآياته بينات واضحات في بقاء الوحي وبقاء النبوة غير التشريعية، ولا يوجد غير آية واحدة تخالف حسب تفسير الشيوخ الآيات الكثيرة المفسرة بعضها لبعض وهي قوله تعالى: « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ». ولم يتفق المفسرون على معنى لفظ خاتم النبيين بمعنى آخرهم زمناً، وهم لو اتفقوا لنجم عن اتفاقهم تكذيب للقول بمجيء المسيح عليه السلام. فإن لفظ خاتم النبيين لا يفيد

(1) الرسالة ١٣/٥/١٩٤٦

انقطاع النبوة بل على العكس يفيد ضرورة عرض كل دعوى من دعاوى النبوة على خاتم النبيين أجمعين محمد ﷺ ليختم ويصدق على صحتها سواء أكانت تلك الدعوى قبله أم بعده ... » إلى آخر ما قال في هذا المعنى .

على أن البريد قد حمل الينا رسائل أخرى تنفي عن القادياني أنه أدعى النبوة بمعنى من معانيها المعروفة في الأديان الكتابية ، ومن تلك الرسائل رسالة مطبوعة في لا هور أذاعتها « الجماعة الأحمدية لإشاعة الإسلام » وذكرت في صدر البيان عن هذه الجماعة أن مقاصدها هي خدمة الإسلام وتوحيد المسلمين والدفاع عن الدين ونشر الدعوة اليه،وأن أعمالها لخدمة هذه المقاصد هي تأليف بعوث للتبشير في أنحاء العالم وتدريب المبشرين على هذا العمل ، وترجمة القرآن الكريم إلى لغات مختلفة ، واستخدام الإذاعة في تعميم الآداب الإسلامية . ثم شفعت ذلك بتلخيص عقائدها وهي:

١ ـ إننا نعتقد باختتام النبوءات بمحمد ، كما قال مؤسس الجماعة : إنه لا نبي من الاولين أو الآخرين يعقب نبينا المعظم ، وإن الذي ينكر ختام النبوءات يعتبر خارجاً عن حظيرة الإسلام وليست له عقيدة فيه .

٢ ـ واننا نؤمن بأن القرآن الكريم كتاب الله الكامل والآخر ، وأنه باق لم ينسخ منه جزء إلى آخر الزمان .

٣ ـ إننا نحسب من المسلمين كل من يشهد بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله كائناً ما كان المذهب الإسلامي الذي ينتمي إليه .

٤ ـ واننا نعد حضرة مرزا غلام أحمد القادياني مؤسس الحركة الأحمدية مجدد القرن الرابع عشر ، ونثبت أنه ما ادعى النبوة قط كما قال بكلامه : إنني لا أدعي النبوة ... وكل ما أدعيه أنني محدث ، وأن معنى المحدث هو الذي يسمع كلام الله .. كلا ، ما أنا مدع للنبوة وما مدعي النبوة عندي الا خارج على الدين ، وإنما يكذب علي الذين يحسبونني من أولئك المدعين » .

وأياً كان الصدق فيما يقال غن دعوى النبوة هذه من إثباتها او إنكارها ومن قبولها او رفضها فإن الصدق الذي لا نشك فيه هو أن أتباع القادياني يخسرون بادعاء النبوة له ولا يكسبون ، وأن حركة التجديد في الإسلام يقوم بها الداعون

اليها دون حاجة منهم إلى أمثال هـــذه الدعاوي التي تفض الأنصار وتفرق المتفقين ، ولا تستميل اليها أحداً من المؤمنين بالأديان في المشرق او المغرب ، إن لم تجمعهم كلهم على محاربتها وتكفير المبشرين بعقائدها .

ونعود فنقول إننا قرأنا شيئاً من الكتب التي ألفها المجددون المسلمون في الهند ممن لا يقولون بنبوة القاديانى ولا يقولون بأنه هو المسيح الموعود او مهدي آخر الزمان ، فلم نر في أقوالهم ما يمس عقائد الإسلام وإن كانت لهم تفسيرات وتخريجات لا يقرهـــا جميع الفقهاء ، وشأنهم في التفسير والتخريج شأن الفرق الإسلامية التي تجتهد في الدين ولا تنقض أصلا مـــن اصوله ، فهي في حظيرة الإسلام لا تضيق بها حرية البحث التي كفلتها للباحثين هذه الديانة السمحة في مختلف العصور والأقطار .

ومما تتميز به هذه الجماعات المجددة أمران :

أحدهما فرط النشاط في التبشير بالدعوة المحمدية وترجمة الكتب النافعة في هذا المسعى إلى اللغة الإنجليزية على الخصوص مع المثابرة على نشرها وترويجها في امريكا ، وأوربة والجزر البريطانية ، وإسناد هذا العمل إلى فئة من الشبان المثقفين المستعدين لدفع الاعتراض العقلي او النقلي بالمعقولات التي يفهمها الغربيون ، او بالنصوص التي يتوسع أولئك الشبان في تفسيرها على نحو كفيل بالإصغاء والاقناع . وقد يتصرفون في تفسيراتهم كما قدمنا ولكنهم يقاربون بها من عقول المتعلمين والمتعلمات هناك فلا يعرضون عنهم كما يعرضون عن الجامدين المتحجرين في فهم الكلمات والحروف .

والامر الآخر طرائفهم العجيبة في تطبيق النصوص القرآنية على الاحوال الزمانية ، لانهم يعلمون أن أحوال الزمان لا تخرج على مدلول تلك النصوص إذا اهتدى ذوو البصيرة الى فهمها وحسن تطبيقها ، وما دام القرآن كتاباً باقياً لا يختص به عصر دون عصر ولا قبيل دون قبيل ، فهو يحتوي في مضامينه كل ما يشغل المؤمنين به في العصور الحديثة كما احتوى في مضامينه كل ما شغل المؤمنين به منذ نزوله في عصر النبي عليه السلام .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة من طرائف هذه التطبيقات العصرية التي

ينشرونها باللغة الإنجليزية ، وهو رسالة عنوانها : « تسليم أوربة وامريكا » اي تحويلهم إلى عقيدة الإسلام ، Islamigation of Europe and America لمؤلفها السيد محمد علي مترجم القرآن إلى الانجليزية ومؤلف الرسالة التي لخصناها عن نظام العالم الجديد .

فالسيد محمد علي يستشهد في صدر هذه الرسالة بكلمة للكاتب المشهور برناردشو في «الزواج » يتنبأ فيها بأن الامبراطورية البريطانية كلها ستدين بديانة إسلامية منقحة قبل نهاية القرن العشرين » .

ويقول السيد محمد علي إن هذه النبوة قديمة في القرآن والتوراة ، ولكن الذين يقرأون الكتب السماوية لا يفطنون لمعانيها ولا يفسرونها على وفاق مدلولها فإن ظهور المهدي او المسيحبين المسلمين مقرون بظهور المسيح الدجال ، وسيادة بعض الامم التي سميت بيأجوج ومأجوج !

والقرآن الكريم يقول عن يأجوج ومأجوج إنهم سينطلقون في اليوم الموعود « وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » وأنهم كانوا محبوسين محجوزين « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ » .

قال السيد محمد علي : وقد ذكرتهم التوراة في سفر حزقيال حيث جاء فيه : « يا ابنَ آدمَ اجْعَلْ وَجْهَكَ عَلَى جُوجٍ أرضِ ماجُوجَ رئيسِ رُوشٍ ماشِكَ وتُوبَالَ وتنبأ عليهِ وقلْ : هكذا قالَ السيدُ الربُ . هَا أنذَا عليكَ يَاجُوجُ رئيسُ رُوشٍ ماشِكَ وتُوبَالَ ، وأُرْجِعُكَ وأَضَعُ شَكَائِمَ في فَكَّيْكَ وأُخْرِجُكَ أنتَ وكلَّ جيشِكَ خيلاً وفرساناً كلُّهم لابسينَ أفخرَ لباسٍ ،جماعةٌ عظيمةٌ مع أتراسٍ ومَجَانٍّ كلُّهم مُمْسِكِينَ السيوفَ : فارِسَ وكوشَ وفُوطَ معهم كلُّهم بِمِجَنٍّ وخُوذَةٍ ، وجُومَرَ وكلَّ جيوشهِ وبيتَ تُوجَرْمَةَ من أقَاصي الشَّمالِ مَعَ كلِّ جيشِهِ شُعُوباً كثيرينَ معك » .

او حيث جاء فيه : « ها أنذا عليكَ ياجُوجُ رئيسُ رُوشٍ ماشِكَ وتُوبَالَ ، وأَرُدُّكَ وأَقُودُكَ وأُصْعِدُكَ من اقاصِي الشَّمال .

فهل يدري القارىء من هم يأجوج ومأجوج هؤلاء في رأي السيد محمد علي ورأي القادياني من قبله ؟

إنهم هم الروس والإنجليز ، او السلاف والتيوتون في الشمال ، ومصداق ذلك أن الماشك قريبة من الموسكو ، وان الروش قريبة من الروس ، وان ميشك وتوبال نهران في روسيا تنسب إليهما موسكو وتوبلسك العاصمتان المعروفتان الآن ، وان الروس والإنجليز معاً قد جمعوا شعوب الأرض للتغالب على ملك الدنيا ، وسينقلب بعضهم على بعض ويموج بعضهم في بعض ، قبل أن يجمعهم داعي السماء إلى كلمة الحق والسلام .

وهذا مثل من أمثلة التفسيرات والتطبيقات التي قلنا إنهم يترخصون فيها ويمتدون بها إلى حوادث الزمان الحاضر وما يليه ، ويعتقدون انها وما سيعقبها من الحوادث العالمية مكنونة في آيات الكتب السماوية تنتظر من يفتح الله عليه بفهمها وإدراك مغازيها فيتولى تبصير الأمم بما أنذرتهم به السماء وما ساقته اليهم من البشائر ، وهم لا يفقهون .

اما الفتح او الإلهام فقد جاء في كتاب من تأليف ميرزا احمد القادياني نفسه عنوانه « تعاليم الإسلام » وموضوعه حل المشكلات الدينية من وجهة النظر الاسلامية . وفيه ان العقل والتعليم مصدران من مصادر المعرفة الإلهية ولكنهما في مرتبة دون مرتبة الإلهام. وان الإلهام درجات تبدأ بالحدس الصادق وتنتهي « بعين اليقين » وهو أعلى مراتب الملهمين ، وانه من الخطأ ان نخلط بين الالهام الفني والالهام الديني ، لان الالهام الفني قد يكون في الشر كما يكون في الخير . وقد يقال إن اللص وهو يحاول سرقة المكان سنحت له خاطرة ملهمة لتيسير السرقة ، ثم تيسير الهرب من الحراس ، وليس هذا من الالهام الرباني في شيء ، وإنما يكون إلهام الله في سبيل الحقائق العليا والكشف عن الأسرار الروحية والنفاذ إلى لباب الخلق وبواطن الحكمة الالهية ، وهذه منزلة يرتقي اليها طلاب الوصول إلى الله ومنهم ميرزا أحمد القادياني في رأيه وآراء مريديه .

وبعد فان الأمر الجدير بالعناية من حركة هؤلاء الدعاة انهم يذيعون محاسن الاسلام ويجتهدون في نشره وتفسير الاعتراضات الغربية التي تتجه اليه ، وفي هذه الحركة نفع مشكور ، وإن لم تبلغ مرماها المقصود من « تسليم الأوربيين » والأمريكيين » لانها تزيل الشبهات، وتدحض الأكاذيب، وتقرب بين الشعوب،

وترفع المسلمين في أنظار الأمم التي كانت تظن بهم الظنون .

اما التفسيرات التي ذكرنا آنفاً مثلا من امثلتها فلا ضير فيها ما دامت تصون الايمان ولا تفسد العقل بما يناقض التفكير المستقيم . ونعود فنقول إن الغيورين على الدعوات المجددة على اختلافها يخسرون بالغلو في تعظيم أئمتهم ، ويكسبون لعقائدهم ولأولئك الأئمة كلما وقفوا على حد الاعتدال .

الإسلام والنظام العالمي الجديد[1]

-٢-

هذه هي الدعوة الثانية من الهند في هذا الموضوع ، وهو موضوع الإسلام وأحكامه التي تتكفل للعالم بنظام شامل يحل معضلاته ويوثق الروابط بين أممه ويبسط فيه الطمأنينة والسلام .

وقد كتبت في الرسالة عن الدعوة الأولى لصاحبها المولى محمد علي الكاتب الهندي المشهور ومترجم القرآن إلى اللغة الانجليزية .

وهذه الدعوة الثانية هي خطاب ألقاه ميرزا بشير الدين محمود احمد في الاجتماع السنوي للجماعة الأحمدية بقاديان سنة ١٩٤٢ ، ثم ترجم إلى اللغة الانجليزية وعنيت الجماعة بنشره قبل بضعة شهور .

ويبدو من مطالعة هذا الخطاب ان صاحبه يوجه النظام العالمي إلى حل مشكلة الفقر او مشكلة الثروة وتوزيعها بين امم العالم وافراده ، وانه بغير شك على اطلاع واف محيط بالانظمة الحديثة التي عولجت بها هذه المشكلة ، وهي نظام الفاشية ونظام النازية ونظام الشيوعية ، وبعض النظم الديمقراطية .

ولكنه يعتقد بحق ان المشكلة لا تحل على أيدي الساسة وزعماء الاحزاب

---

(١) الرسالة ٢٥/١١/١٩٤٦

والحكومات ، وانه لا مناص من القوة الروحية في حل امثال هذه المشكلات، لان الحل الشامل لكل مشكلة إنسانية عامة يتناول الانسان كله ولا يهمل فيه الباعث الاكبر على الطمأنينة والحماسة للخير والصلاح ، وهو باعث العقيدة والايمان .

وقد عرّض للأديان الكبرى القائمة في الهند خاصة - والعالم عامة - من حيث علاقتها بهذه المشكلة وتدبير الحلول التي تزود العالم بنظام جديد افضل من نظامه المغضوب عليه ، فأتى بالادلة الكثيرة على انفراد الاسلام بينها بمزية الاصلاح وتعميمه بين جميع الاجناس والطبقات فيما مضى وفي هذا الزمن الحديث .

فالديانات الهندية تعلم الانسان ان تفاوت الطبقات قضاء من الازل لا نجاة منه لمخلوق ، لان الارواح تنتقل من جسد إلى جسد جزاء لها على ما جنت في حياتها السابقة من السيئات والذنوب،فهي تخرج الى الدنيا بنصيب محتوم لا يقبل التبديل ولا يحسن تبديله إذا استطيع - ولن يستطاع - لانه هو سبيل التكفير والارتفاع من حياة إلى حياة . وقد جاء في قوانين مانو : « ان الفرد من طبقة السودرا لا يجمع الثراء ولو قدر عليه ، لان ثراءه يؤلم نفوس البرهميين » . فإذا ادخر بعض المال لحاجاته التي تزيد على القوت والكساء حق للحكومة ان تجرده من ماله وتتركه للفاقة والكفاف ، وهكذا تقوم الفواصل بين الطبقات المختلفة ، وهي طبقات البرهمان والكشاتريا والفاشيا والسودرا وهم أخس الطبقات .

وتقضي القوانين البرهمية بسداد الديون بالعمل إذا كان الدائن والمدين من طبقة واحدة . فأما اذا كان المدين من طبقة اعلى من طبقة الدائن فلا سداد إلا بالنقد او العين متى تيسّر ، ولا إلزام بالسداد قبل التيسير .

وتجب التفرقة بين الإخوة في حقوق الميراث اذا اختلفت امهاتهم في الطبقة الاجتماعية . فيقسم الميراث كله الى عشر حصص متساوية ، ويعطى ابن البرهمانية اربعا وابن الكشاترية ثلاثا وابن الفاشية اثنتين وابن السودرا حصة واحدة على قدر ما يجوز له من الثراء .

ومن حق البرهمان ان يستولي على ملك خادمه من السودرا لانه وما ملك في طاعة مولاه .

فإذا كان الاصلاح العالمي محتاجاً الى حماسة العقيدة ، وكانت هذه عقيدة المؤمنين بالديانات الهندية فلا رجاء فيها لعلاج مشكلة الفقر وانصاف الطبقات المظلومة والتقريب بين الناس في حظوظ الحياة .

اما الاسرائيلية فهي بأحكامها المنصوص عليها في كتاب العهد القديم تخص اليهود ولا تعم الأمم جميعاً بالمساواة ،فحرام على اليهودي ان يقرض يهوديا بالربا ولا يحرم عليه ان يتقاضى الربا المضاعف من ابناء الامم الاخرى . ولا يجوز استرقاق اليهودي طول حياته ولا تزيد مدته في الرق على سبع سنوات ،ولكن استرقاق العبيد في الامم الاخرى جائز في كل حال ولا حرج عليه .وفي الاصحاح العشرين من سفر التثنية يقول العهد القديم لشعب اسرائيل : « حين تَقْرُبُ من مدينة لكي تحاربَها استَدْعِها إلى الصُّلحِ ، فان اجابَتْكَ إلى الصلح وفَتَحَتْ لك فكلُّ الشعبِ الموجودِ فيها يكونُ لك لِلتَّسْخِيرِ ويُسْتَعْبَدُ لك ، وان لم تُسَالِمْكَ بل عَمِلَتْ معكَ حَرْباً فحاصِرْها ، واذا دفعها الربُّ إلهُكَ إلى يدِكَ فاضْرِبْ جميعَ ذُكُورِها بحدِّ السيفِ ، واما النساءُ والاطفالُ والبهائمُ وكلُّ ما في المدينةِ كُلُّ غَنِيمَتِهَا فَتَغْنَمْهَا لنَفْسِكَ ... وأَمَّا مُدُنُ هذه الشعوبِ التي يُعْطِيكَ الربُّ إلهُكَ نَصِيباً فلا تَسْتَبقِ منها نسمةً مَا ... »

هذه هي حدود المعاملة بين المؤمنين بالعهد القديم وسائر بني الإنسان ، فإذا سادت هذه المبادىء فالأمم كلها عبيد مسخرة وأبناء إسرائيل وحدهم هم أصحاب السيادة والثراء .

والمسيحية كما هو معلوم لم تعرض لمسائل القانون ومسائل السياسة او الاجتماع ، ولهذا كانت دعوتها إلى السلام من الدعوات التي تصطدم بالواقع وتتمخض عن حروب لا تنقطع وحزازات بين الطبقات لا يهدأ لها أوار كما نرى في تاريخ أوربا الحديث والقديم .

لكن الإسلام يتناول مسائل الاجتماع ومسائل العلاقات بين المحاربين والمسالمين . فالمسلم يقاتل إذا ظُلم وأخرج من دياره ، ويأمره كتابه إذا ملك

الأرض ان يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ على نصرهِمْ لَقَدِيرٌ ، الذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، ولَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الذين إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عنِ المُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ » .

ولا يجيز الإسلام للنبي ان يكون له أسرى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ، واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ».

ثم هو يستحبّ للمسلم المن او الفداء : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنّاً بعدُ ، وإِمَّا فِدَاءً حتى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

ومن بقي في الأسر وطلب المكاتبة فقبول طلبه واجب على مولاه: «والذينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ، وآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الذِي آتَاكُمْ » .

ولا مطمع في معاملة بين الشعوب المتعادية اعدل من هذه المعاملة وأقرب منها إلى إزالة العداء والبغضاء . فأما المعاملة بين المسالمين فهي كفيلة بانصاف جميع الطبقات ، لأن الناس يتفاضلون بالأعمال الصالحة ولا يتفاضلون بالمظاهر والانساب ، وينكر الإسلام الجور في توزيع الثروة فلا يجيز لأحد أن يكنز الذهب والفضة قناطير مقنطرة ، ومن جمع مالا وجب عليه ان يؤدي زكاته للفقراء والمساكين ومصالح الجماعة بأسرها ، وعليه ان يعين من يطلب منه العون قرضاً حسناً لا مضاعفة فيه للربا ولا تجاوز فيه لمكاسب البيع والشراء ، فلا تطفيف للكيل ولا مغالاة بالربح ولا مماسلة ولا خداع ، وكل يُجزى بعمله وسعيه دون ايثار لأحد على احد في خيرات الأرض جميعاً : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً » فلا يزعمن إنسان أو جمع من الناس انه أحق بالأرض من سواه .

فالنظام العالمي لا يعتمد على عقيدة اصلح لتعميمه وحض النفوس عليه من العقيدة الإسلامية ، وقد أجاز الإسلام الوصية وندب لها المسلمين في بعض الحالات . فان قصرت موارد الزكاة فموارد الوصية لا تضيق بما يطلب منها ، لأنها تشمل جميع الأموال والعروض، وقد حث « الميرزا أحمد القادياني » اتباعه على التوصية بمقدار من ثرواتهم يتراوح بين عشرها وثلثها ، للإنفاق منها على الدعوة والإصلاح .

ولم يقصر المؤلف – او صاحب الخطاب – مقابلاته ومقارناته على العقائد الدينية التي اجملنا الإشارة اليها فيما اسلفناه ، ولكنه خصها بالعناية لأن العقيدة كما قال هي أمل الإصلاح الوحيد ، ونظر معها إلى النظم السياسية او الاجتماعية فاذا هي قاصرة عن بغيتها من الوجهة العملية والوجهة الروحية على السواء .

فالفاشية – ومثلها النازية – لا تؤسس نظاماً عالمياً مكفول الدوام لأنها تقوم على تفضيل الجنس والعصبية القومية ، فلا مكان فيها لأمم العالم غير الخضوع والتسليم للجنس الذي يزعمون له حق السيادة والرجحان .

والشيوعية تعطل البواعث الفردية ، وتسلب النفس حوافز الاجتهاد وتجعل الحياة مادة في مادة لا يتخللها قبس من عالم الروح ، وتأخذ للدولة كل ما زاد من ثمرات الأفراد ، ولم تفلح مع هذا في إنصاف العاملين ، لأن السادة في روسيا الشيوعية طبقات فوق طبقات في الترف والمتاع . وقد روى الصحفيون أن وليمة الدولة للمستروبلكي مدت فيها ستون صحفة من الوان الطعام ، فهل يجعلون هذه المائدة مثلا يقتدي به المقتدون ؟ أو هي بذخ مقصور على فريق من الضيوف دون فريق ؟

* * *

والترجمة الانجليزية التي اشتملت على تفصيل هذه الخلاصة تقع في مائة صفحة من القطع المتوسط وبعض صفحات ، ونحسبها صيحة لا تذهب في الهواء إذا انتشرت بين قراء الانجليزية الأوربيين والامريكيين، بل الهنديين والشرقيين، ولكننا نقرأ فيها ان مؤلفها يلقب بأمير المؤمنين وانه الخليفة الثاني للمسيح الموعود ، ومعنى ذلك انه من فريق القاديانية الذين يدينون برسالة « مسيحية

او مهدية للقادياني ولا يكتفون له بوصف الاجتهاد كما اكتفى المولى محمد علي وأصحابه من الهنود المسلمين . فنعجب لهذه الألقاب التي تحيط الدعوة بين المسلمين أنفسهم بأسباب الحبوط والانكار، ونسأل: ما هو موضع هذه المسيحية الجديدة او هذه الخلافة إذا كانت الحجج التي ساقها المؤلف كلها من المراجع الإسلامية الاولى ، ولا زيادة عليها من وحي جديد ؟

فخير للدعوة ان تقصي عنها هذه الالقاب التي لا تزيدها قوة وتأخذ منها كثيراً من قوتها بين المسلمين أنفسهم ، فضلا عن غير المسلمين .

عَقِيدَةُ الذاتِ الإلٰهِيَّةِ في الإسْلام[1]

ورد البحث في عقيدة الذات الإلهية عند أمم العالم خلال كتاب مطول ألفه الاستاذ نورثروب Northrop وجعل عنوانه ملتقى الشرق والغرب The meeting of East and West متحريا فيه تقريب وجهات النظر في المسائل الجوهرية المختلف عليها بين أمم الحضارة العصرية وأمم الحضارات الموروثة .

ويُرى من عنوان الكتاب انه مقصور على الملاقاة بين الشرق والغرب جملة واحدة من وجهة عامة ، ولكنه عند تفرع البحث يتحقق من صعوبة هذه الملاقاة قبل الملاقاة بين أمم المغرب على حدة ، وأمم المشرق على حدة في أمور كثيرة تمتزج بتلك المسائل الجوهرية . فلا بد قبل الملاقاة بين الشرق والغرب من التوفيق بين الحضارتين اللاتينية والسكسونية في القارة الاوربية ، ولا بد بعد ذلك من التوفيق بين قوى التفكير الديمقراطي وقواعد التفكير المطلق بين أمم تلك القارة ، ولا غنى في هذه الحالة عن التوفيق بين وجهات الاعتقاد والتفكير منذ القرون القديمة ، وبين هذه الوجهات منذ أوائل العصر الحديث ، مع التناقض بينهما من بعض جوانبها والتشابه بينهما من الجوانب الاخرى .

ولكن هذه الفوارق جميعاً تنتهي عند المؤلف إلى فارق أساسي واحد . وهو فارق الإيمان بالربوبية في ذات إلهية والإيمان بها في معنى بغير ذات ،

---

(١) الازهر أكتوبر ١٩٦٠

كالمعنى الذي يقول إنه متمثل في العقائد البرهمية الاولى .

ويحسب المؤلف أن الإيمان بالربوبية في ذات إلهية من شأنه ان يدفع الامم إلى طلب الغلبة على غيرها ، وان طلب الغلبة ليس بالشعور الأصيل عند المؤمنين بالربوبية في معنى ليست له ذات قائمة تريد وتنفرد بالسلطان المطلق في الوجود كله منذ القدم ، فان نزعت الأمم إلى طلب الغلبة لم يكن منزعها هذا من قبل العقيدة الدينية ، بل يعرض لها من قبل الدوافع الحيوية الأخرى أو البواعث السياسية .

والأمم التي تؤمن بالذات الإلهية هي عند المؤلف مجتمعة في اتباع الديانات الأربعة الكبرى ، وهي الموسوية والمسيحية والإسلام والشنتية Shintoism ديانة اليابان .

ويكاد المؤلف أن يجعل الإسلام قبل غيره مثالا للديانات التي تؤمن بالربوبية في ذات إلهية ، لأن إيمان المسلم لم تتم فيه الملاقاة بالروح العلمية التي تولدت مع الزمن من إخضاع الحقائق للتجارب الحسية كما حدث في معظم الأمم الغربية ، ولا بد من تعديل هذه النظرة ليؤمن المسلم بالله على ضوء الاصول العلمية ولا يحتفظ بايمانه كما كان في عهد النبي محمد صلوات الله عليه .

ويتساءل قائلا : هل من المعقول أن يُنتظر من ثمانين مليون مسلم في الهند على هذه العقيدة ان يلاقوا جيرانهم على وفاق يطول أمده ، لمجرد استقلال الهند عن سلطان الدولة البريطانية ؟..

نقول: ان ضلال التفكير عند هذا المؤلف على سعة اطلاعه وكثرة شواهده يتراءى من ملاحظة واحدة يخرج بها القارىء من كتابه ولا يحتاج إلى سند غير الاسانيد التي اعتمد عليها .

فلو ان المؤلف حجب النتيجة التي وصل إليها عن القارىء ولم يصرح بها في بحوثه المتتابعة مرة بعد مرة لجاز للقارىء أن يفهم أن صاحبنا ألف كتابه ليثبت أن العقيدة الإسلامية هي اصلح العقائد لإيمان الإنسان بالله في عصر التجارب الحسية والقوانين التي يسمونها أحياناً بالقوانين العلمية .

فلا نعرف ضلالا في التفكير يذهب بالإنسان من مقدماته إلى نقيضها المقابل

لها في الطرف الآخر ، كما ذهب هذا المؤلف من مقدماته الطويلة إلى نتيجته المعكوسة .

وأول ما يؤخذ عليه انه ظن أن الإيمان بالربوبية معنى بغير ذات فكرة مستطاعة في الضمائر الإنسانية أياً كان تغييرها عن تلك الفكرة بكلمات العبادة او مصطلحات الفلسفة . .

فربما قال الفلاسفة الأقدمون من البراهمة ان الإله فكرة مجردة بغير ذات تقوم بها ، ولكنهم لا يبدأون الكلام في الخلق إلا ظهر من كلامهم ان هذا الإله ذات تريد وتقدر وتتقبل الارواح المطيعة وترفض الأرواح العاصية ، وتتجلى تارة على مثال الرب الخالق وتارة على مثال الرب الحافظ ، وتارة على مثال الرب المهلك او المبيد ، وقد نقل عنهم أبو الريحان البيروني الذي اطلع على كتبهم بلغتها القديمة تفصيلات عقائدهم في الربوبية فأحسن نقلها كما ظهر بعد ذلك من ترجماتها إلى اللغات الأوربية الحديثة بأقلام الثقات من علماء تلك اللغات هنوداً وأوربيين ، ومما نقله عنهم أنهم يؤمنون بالإله برهمن ويعتقدون أنه المطلق الذي لا يوصف ولكنه يتجلى على أشكال من الآلهة والمخلوقات ، وان فيشن Vishun جعل نفسه أرضاً وجعل نفسه ماء وجعلها ناراً وجعلها قلوباً تنبض في صدور الاحياء .

فليس هناك من فارق بين أصحاب العبادات في تحقيق الذات للمعنى الإلهي إلا ان الإسلام واضح متفق العقائد وان القائلين بالمعنى الإلهي الذي لا تقوم به ذات مريدة يقررون بالرأي ما ينقضونه بالشرح والتفصيل .

فإذا انتهينا من الإيمان بالذات الإلهية إلى الاختلاف على صفاتها فالإسلام يعطينا الصفات التي توافق حاجة الضمير إلى الدين في جميع العصور ، واخصها عصر القوانين العلمية ، بل عصر القوانين العلمية كما انتهت إليه عند أحدث المحدثين .

ان الضمير الإنساني لا يطلب الإيمان ليتحول به مع كل تجربة علمية إلى معنى من المعاني الإلهية ملفق على قياسه ومنواله .

فليس من شيء يملأ العقل والضمير بالحيرة والاضطراب كما تملؤه تلك المقررات التي يلغي بعضها بعضاً او تتوقف صحة بعضها على صحة سواه ، فكلها من المعارف المضافة او المعارف النسبة التي لا يقوم عليها ركن ثابت من أركان

الإيمان والثقة بالوجود المطلق والحياة السرمدية .

ان الضمير لم يذهب في طريقه الطويل إلى الثقة بمعنى الوجود ليفسرها تارة بمذهب داروين وتارة بمذهب كوبرنيكس وحيناً بمذهب كارل ماركس وحيناً آخر بمذهب برجسون وسواهم ممن يتفلسفون او يستخلصون القوانين العلمية والنواميس الطبيعية .

وفي هذا العصر – على التخصيص قد ثبت للعلماء ان التجربة العلمية لا تستطيع أن تقرر قانونا ينبئنا عن تصرف الكهرب كيف يكون في اللحظة التالية . فهذا الجزء الصغير الذي تتألف منه المادة كلها وتترتب حركاتها جميعاً على حركته داخل الذرة وخارجها مجهول الحركة كل الجهل ولا يمكن الحكم عليه إلا على وجه التقريب قياساً على احصاء المصادفات ، وليس هناك من قانون علمي معروف غير المقابلة بين هذه المصادفات ، وأخذها بالظن غداً كما أخذوها بالظن أمس وقبل أمس إلى نهاية الرصد المعلوم .

والعلماء القائلون بذلك أمثال ايستر وهايزنبرج وشرووبجر وغيرهم وغيرهم يضربون الأمثال لهذه القوانين الاحصائية ببعض المشاهدات اليومية التي تصور لنا كيف تتفق المصادفة مع التحقيق .

يقولون مثلا : ان شركة التأمين تستطيع ان تبني حسابها وتنظم عملها وتجني أرباحها من تقدير نسبة البيوت التي ستتعرض للحريق بواحد في الألف من جملة البيوت ، ويصدق حسابها على وجه التقريب فيحترق أثناء السنة مائة بيت او نحو ذلك ، ولكن هذه الشركة لو سئلت عن بيت واحد معين بين هذه البيوت لم تستطع ان تدل عليه قبل احتراقه ، وهكذا يفعل العالم الطبيعي حين يقرر نسبة الكهارب التي ستتحول من جسم معلوم مع المؤثرات الطبيعية الخاضعة للرصد والإحصاء ، فان ذلك الجسم يحتوي ملايين الملايين من الكهارب التي ترصد حركاتها على ذلك المثال فتعرف بالنتيجة النسبية ولا تعرف على التعيين والتحقيق في كل واحد منها ، وتلك هي القوانين الطبيعية كما يفهمها أساطين العلوم الطبيعية في هذا العصر الذي يظن الاستاذ نورثروب انه جاء بالقوانين المصححة للدين .

مصادفات نسجلها بموافقات الإحصاء على حسب العادة ، وليس فيها حقيقة واحدة تقيم الإيمان على قرار مكين ، وأين من طبيعة الإيمان قضية تقوم على مصافادت شركات التأمين ؟

وندع القوانين الطبيعية وننظر إلى القوانين الاجتماعية التي يدعي لها أصحابها انها محور التقدم والجمود في حياة الشعوب .

منذ خمسين سنة كان الأكثرون بين أصحاب هذه القوانين ينعون على الإسلام انه دين جمود لأنـــه يعوق المعاملات الاقتصادية ولا يسمح بتنظيم المصارف والشركات لتحريمه قروض الربا وانـكاره لكل ربا الجاهلية على كل صورة من صوره البينة او الخفية .

فلم يمض جيل على هذه الصيحة حتى سمعنا أصحاب قوانين أخرى يصيحون بأن رأس المال كله نكبة على الإنسانية وعائق من عوائق الحرية الكريمـــة والعمل النافع .

فماذا ينفع الناس بين هذه القوانين من إله « نسبي » يتحول مع التجارب الحسية والفروض التي يسمونها بقوانين الطبيعة ؟

إذا كان للناس أن يحسوا بالحاجة الخاصة إلى الإيمان بالربوبية في ذات إلهية لها كمالها المطلق ومشيئتها الباقية فحاجتهم في هذا العصر إلى تلك العقيدة أمس وأقوى من حاجتهم إليها في عصر الدعوة المحمدية ، لأن تزعزع الأساس الذي يسند قوانين العلوم الطبيعية لم يثبت – علمياً – كما ثبت في عصرنا هذا الموسوم بسمة التحقيق والتقرير .

هنا يشعر الضمير الإنساني بالحاجة إلى الإيمان بالكمال المطلق والحكمة الخالدة بين اشتات من المعارف والفروض كلها مضاف إلى غيره وبعضها ينقض بعضا في مدى عمر الإنسان .

والإسلام يأذن للمسلم ان يبدل فروضه الحسية كيفما شاء وشاءت له تجارب الحس وضرورات الحياة الموقوتة ، ولكنه لا يأذن له ولا يضطره إلى تبديل إلهه كلما خرجت له تجربة جديدة من هذا المعمل او ذاك وكلما قال قائل باسم

العلم انه يثبت هذا وينكر ذاك ، وليس وراء كل ثابت ومنكر إلا قلق الضمير ثم اعتماده على الوجود المطلق بين هذه النسب والإضافات .

« قل هو الله أحد ، الله الصمد » .

ألا إنه بكل شيء محيط .

والله الذي يحيط بكل شيء ، وبكل زمن ، هو إله الايمان ، وطلبة الانسان .

العالم الإسلامي والجغرافيا الدينية[1]

تتفرع من العلوم العصرية مباحث مستقلة ، يطلق عليها بعضهم اسم العلوم لاستقلالها بموضوعاتها الخاصة ، ولكنها أحرى ان تسمى بالمباحث كما سميناها ، او تسمى بالدراسات العلمية ، لأنها أقرب إلى التطبيقات التي تبنى على العلوم المتفرقة منها إلى العلم المنفرد بقواعده وتجاربه وأصوله .

وعلى سبيل المثال نذكر في هذه الدراسات ما يسمونه بعلم السياسة الجغرافية وهو غير الجغرافية السياسية ، وقد شاع شيوعاً كبيراً بعد الحرب العالمية الأولى لأن هذه الحرب قد اظهرت بالأمثلة الجلية فعل الموقع الجغرافي في توجيه السياسة الدولية وتوحيد خططها وإن تبدلت حكوماتها بين امبراطورية وجمهورية او بين حكومة مطلقة وحكومة دستورية .

ولا يلتبس موضوع الجغرافية السياسية وموضوع السياسة الجغرافية Geopolitics فان الجغرافية السياسية مبحث قديم يعلم الناس موضوعه المفصل منذ زمن بعيد ، وينتظرون منه ما هو من بابه بغير التباس بين أبواب المباحث المتعددة ، وكل ما ينتظره الناس من مباحث الجغرافية السياسية أن تزودهم بالمعلومات عن بقاع الأرض من جانب أحوال الدولة ونظم الحكم وعلاقات البلد بما حوله وبسائر بلدان العالم المعمور .

أما السياسة الجغرافية فالذين يدرسونها يهتمون قبل كل شيء بموقع البلد وما

(١) الازهر سبتمبر ١٩٥٩

يفرض هذا الموقع على سكانه من خطط الدفاع والهجوم ومن أساليب الادارة والحكومة ، ويريدون أن يثبتوا بدراسة هذا الموقع الجغرافي انه هو الذي يملي على الدولة سياستها في جميع أطوارها . فلا تستطيع المانيا — مثلا — ان تغير قواعد سياستها ما دامت فيموقعها من أوربا الوسطى وما دامت محدودة فيالبر والبحر بحدودها المعروفة ، ولا تستطيع روسيا من عهد الخانات إلى عهد بطرس الاكبر إلى عهد الثورة الشيوعية ان تسلك في علاقاتها بالشرق والغرب مسلكاً يخالف مسلكها المرسوم في جوهره ، وان اختلفت الذرائع والأسماء .

وقياساً على هذا المبحث الذي نسوقه على سبيل المثال نشأ في العهد الاخير مبحث طريف خطير يسمونـــه بالجغرافية الدينية او بجغرافيـــة الدين Geography of Religion ويدل اسمه على موضوعه بغير حاجة إلى الاسهاب في شرحه . فإن هذا الاسم يوحي بالعلاقة بين الدين ومواقع البلاد ، ويدل على اعتقاد الباحثين في هذا الموضوع ان للموقع شأناً في انتشار دين من الأديان او في إعراض السكان عنه ، او حاجتهم إلى وسائل الاقناع او وسائل الاكراه في قبوله ، وان للموقع شأناً فيتقديم بعض هذه الوسائل على بعضها وتغليب الاقناع أحياناً على الاكراه او تغليب الاكراه أحياناً أخرى على الأقناع .

وقد تأخرظهور هذا المبحث إلى الفترة الاخيرة من القرن العشرين ولم يكن من المستطاع ان يتقدم بالظهور قبل ذلك ولو بزمن قصير ، إذ كان من اللازم قبل ظهوره ان تستوفى المعلومات الجغرافية عن بقاع الارض وعن سكانها وعن عقائدهم من قديم عصورهم إلى حديثها ، وكان من اللازم ان تنعقد المقارنات المفصلة على حسب الاحصاءات الدقيقة بين ادوار التاريخ واطوار العقائد ودرجات الزيادة والنقص في عدد المتدينين بالدين الواحد مع تقلب الادوار والاطوار .

ولم يكن علم ذلك كله ميسوراً قبل هذا القرن العشرين ، وان كان بعض هذا العلم قد عرف في العهود الماضية ، وقيل على أساسه ما قيل من ان أديان التوحيد تناسب البلادالتي يقل فيها اختلاط العناصر الطبيعية ، وان قوى الطبيعة إذا تعددت في بعض الاقاليم كان لها أثرها في اعتقاد أهلها ان القوى الإلهية

متعددة من ورائها .

بل على أساس البحث في الجغرافية الدينية جرى الحوار – بين السيد جمال الدين ، وارنست رينان – في أثر الإسلام واثر المسيحية بين الصحراء وبلاد الخصب والعمران .

إلا ان المعروف من هذا البحث قبل القرن العشرين لم يكن ليزيد على المعروف يومئذ من تفاصيل الجغرافية والتاريخ وإحصاءات الحوادث والسكان ، فلم يكن على اوسعه واعمه كافياً لاستقلال المبحث بموضوعه ذلك الاستقلال الذي سوغ لبعضهم أن يحسبه علماً بين سائر العلوم

ولا نرى ان المعارف والاحصاءات التي تعتمد عليها دراسات الجغرافية الدينية قد ختمت اليوم او آذنت بالختام ، ولكنها قد وصلت – ولا ريب – إلى الحد الذي يقنعنا بقيام موضوع البحث وارتقاب النتائج الصحيحة من تطبيقه ، ولو لم تثبت هذه النتائج حتى الآن كل الثبوت .

وقد توسع الباحثون في تطبيق هذه الدراسة على الديانات الكبرى وفي مقدمتها الديانة الاسلامية ، فكتب علماء الفرنسيين والالمان والاسبان والانجليز وغيرهم كتباً منوعة منها الاسلام والحياة المدنية ، وعن خصائص الاسلام وطبائع البلدان وعن الادارة الاسلامية في القارات المختلفة ، وعن أثر الاسلام في الثروة والحكومة ، وعن الاسلام والبيت والحاضرة ، وعن الاسلام وتثمير التربة والزراعة ، وعن علاقة المواقع الجغرافية بكثرة الحجاج وقلتهم واثر هذه الفريضة في الشعوب التي ينتسبون إليها ... إلى أشباه ذلك من مطارح البحث وزواياها المتشعبة ، ومن أسمائها في ذيل كل كتاب يلم بها نتبين أنها مكتبة ضافية ، لم يصل إلينا في لغتنا العربية غير القليل منها .

❋ ❋ ❋

وآخر ما أطلعنا عليه من هذه الدراسة كتاب ألفه الاستاذ إكسافييه بلانهول Xavier planhol بالفرنسية منذ سنتين وترجم إلى الانجليزية في هذه السنة فظهر فيها باسم عالم الاسلام The World of Islam ودار البحث فيه على موضوعين من أهم موضوعات هذه الدراسة الحديثة ، أحدهما عن التجمع وأحوال المعيشة

المستمدة من الدين في الاقطار الاسلامية ، والآخر عن العوامل الجغرافية التي ساعدت على انتشار الاسلام .

ونحن لا نكتب هذا المقال عن هذا الكتاب لنبسط القول في آرائـه وتقديراته فإنها — أولا — أكثر من ان يشملها مقال واحد مع ارتباطها بقواعد البحث في جغرافيـــة الدين كما وردت .في الكتب الأخرى ، وهي — ثانياً — لا تحسب من العلوم المقررة التي بلغت نضجها وسرت بين الباحثين سريان المبادىء المتفق عليها ، ومعظمها لا يزال في الواقع أقرب إلى التخمينات المحتملة التي قد يعدل عنها أصحابها ويعيدون تخمينها على وجه آخر في مناسبات أخرى .

وإنما نذكر الكتاب لنورد مثلا من آرائه او نظرياته ، ومثلا من أخطائه ومغالطاته ، ومثلا من عيوب هذه الدراسة الجديدة كيفما كان تطبيقها عـــلى الإسلام او على غيره من الأديان .

فمن أمثلة آرائه التي تستند إلى أصل صحيح في أحكام الإسلام: أن الإسلام يناسب الامصار ويطلبها ويبحث عنها لأنه يقيم فيها الأحكام ويتمم فيها فريضة الصلاة الجامعة ومراسم الدين التي يتولاها الائمة ، فهو ادنى إلى طبيعة المدن وان كان منبته في الصحراء .

ومن أمثلة آرائه عن الدين الإسلامي خاصة بين الأديان انه ينتشر حيث تتوازن العوامل السياسية والعوامل الطبيعية ولا يحتاج الأمر إلى مجهود صناعي لتغليب احداهما على الاخرى ، وقد ينتشر بالوسائل السلمية في الأقاليم التي تتصل فيها المدن والمزارع والغابات كما حدث في الجزر الاندونيسية .

ولنا أن نتقبل هذه الآراء على أنها ملاحظات تاريخية تصف الواقع فيا مضى ولا تتعرض للأسباب والتعليلات ، ولكن مؤلف هذا الكتاب ومن يجارونه من الباحثين في هذه الدراسة الجديدة يخطئون كثيراً كلما انتقلوا من وصف الواقع إلى تعليله وتفسيره ، ثم ينقادون للخطأ طواعية على الرغم من قدرتهم على كشفه وتصحيحه لو كلفوا أنفسهم بعض الجهد في المقارنة ، والمقابلة بين نظائر هذه الأحوال في ظل الديانات الاخرى .

يقولون مثلا : ان الإسلام قد احتل في عصر من العصور شواطىء البحر

الابيض حول البحر كله من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، ولكنه تراجع عن الشواطيء الاوربية لسبب يتعلق بطبيعة الدين الإسلامي ولا ينحصر في أسباب السياسة ولا في المقاومة من جانب الامم الاوربية .

وهذا السبب الذي يتعلق في رأيهم بطبيعة الدين الإسلامي هو ان الإسلام ينظر إلى الزراعة نظرة الترفع والاهمال وينكر حق الزارع في بعض مذاهبه إلى جانب حق المالك او حق الدولة ، وان النبي عليه السلام نشأ في بيئة تجارية بين علية قومه من التجار ورويت عنه أحاديث ينذر فيها بالذل من يشتغلون بالسكة والمحراث .

قالوا : وهذا هو سبب الفشل الذي مني به المسلمون في الشواطيء الاوربية لانها لا تستغني عن الزراعة ، ونجوا منه في الشواطيء الافريقية لان الزراعة فيها لا تحتاج إلى مجهود ولا تزال الصحراء من ورائها تعتمد على المطر والمرعى .

والعجيب في هذا الرأي ان يتفق عليه جملة من الباحثين في الجغرافية الدينية مع سهولة الاهتداء إلى وجه الصواب فيه لو انهم يشاءون ان يلتفتوا إليه .

فالاسلام قد بقي في وادي النيل وهو أرض زراعية يعمل فيها الفلاحون عملا مجهداً يشق على الفلاحين في غيرها . ولهذا عرف عن زراعها انهم أقوياء الجماجم ، لطول تعرضهم لاشعة الشمس التي لا يقوى غيرهم على إطالة المكث تحتها ، وروى هيرودوت فيما رواه انه زار ميدان المعركة بين الفرس والمصريين فوجد بقية الجماجم الفارسية تتفتت من اللمس اليسير ، ولا يتفتت شيء من الجماجم المصرية وان اشتد الضغط عليها .

وقد اختلت الزراعة في الشواطيء الاوربية بعد جلاء المسلمين عنها ، وكانت في عهدهم اصلح حالا مما صارت إليه بعد ذلك في عهد أمراء الاقطاع ، ثم انقضى هذا العهد كله لاختلال أمور الزراعة وقلة المحاصيل الزراعية في أيامه ، ثم صلحت شئون الفلاحين بعد ظهور الآلات الحديثة وتقدم الفنون الزراعية وانتظام الثروة على أسس الصناعة وتبادل الواردات والصادرات إلى البلاد الشرقية والغربية ، وقد زال أمراء الاقطاعية التي مولة الاقطاع كله بعد مقاومة من

أبناء وطنهم تهون جداً إلى جانب المقاومة التي لقيها المسلمون لاسبابها الدينية ، والوطنية ، والسياسية .

وشبيه بهذا الخطأ عن الاسلام والزراعة خطأ آخر من أخطاء هؤلاء الباحثين عن الاسلام والحضارة او الاسلام وتنظيم المدنية .

فعندهم ان المدنية الاسلامية في العصور الماضية ، قبل اتصال المسلمين بالحضارة الاوربية ، قد خلت من « الادارة البلدية » Municipal وكان خلوها هذا دليلا على الخلو من الشعور بالبنية الواحدة والتركيب الاجتماعي ، ولم تخل المدن الاوربية قط من المجالس البلدية وما يقوم بوظيفتها من الهيئات المعنية بأمر الحكومة او الهيئات المنتخبة ، وهم لا يعرفون لذلك علة غير قيام المدن الإسلامية برعاية الوالي دون غيره وقلة الشعور في نفوس السكان بالرابطة « المدنية » التي تربط أبناء المسكن الواحد كما يرتبط الأعضاء في « شخصية حية » مشتركة .

والعجب في هذا الخطأ أيضاً أنه من الأخطاء التي يسهل تصحيحها لولا اتجاه الرغبة إلى الاتهام وانصرافها عن الانصاف .

فالمدنية الأوربية وجدت فيها « الادارة البلدية » إلى جانب السلطة الدينية التي كانت تتولاها الكنيسة وتفرض بها مشيئتها على المجتمع في شئون الأعراس والمآتم والرقابة على المدارس والحفلات وشعائر « التطويب » عند عقد الزواج وعند الإذن بالدفن وعند الاعتراف وسماع المواعظ وإعطاء البركة وما إليها من مراسم السلطة الدينية التي لا وجود لها في الاسلام .

وفيما عدا هذا الاشراف من السلطة الدينية لم يخل البلد الاسلامي قط من التنظيم الذي يدل على الشعور بالرابطة المدنية في اضيق نطاق وأوسعه على السواء ، ومن العجب ان يتحدث الجغرافيون الدينيون عن زوال الرابطة المدنية في حواضر الاسلام وهم يذكرون من خصائص هذه الحواضر انها تقيم لكل صناعة حيا مستقلا تأوي إليه ، وان أحياء الحاضرة تتعدد على حسب الروابط الدينية والعنصرية كما تتعدد على حسب الصناعات والنقابات ، وما كان لقوم

يفقدون شعورهم بروابط المسكن ان يشعروا بروابط الحرفة او يشعروا بروابط « الحي » الواحد حيث يقيمون .

وقد حفلت كتب الأدب العربي بمفاخر المدن وعيوبها حتى بين الفلاسفة والحكماء فضلا عن الهجائين من الشعراء والادباء، وحتى بين أبناء المدن الاندلسية التي يحسبها الجغرافيون الدينيون حجة من حجج الفشل في حضارة الإسلام وزراعة الاسلام ، وقد تفاخر ابن رشد وابن زهر يوماً بمدينتيهما في حضرة المنصور بن عبد المؤمن من خلفاء الموحدين فقال ابن رشد لزميله الفيلسوف : « ما أدري ما تقول . غير أنه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع كتبه حملت إلى أشبيلية » .

ولا يقع هذا الفخر بالمدن بين فيلسوفين طبيعيين ثم يقال : ان الشعور « بالشخصية المحلية » مفقود في تلك المدن بين عامة الناس الذين تشغلهم هذه العصبيات .

بل نحن لا نحتاج إلى أكثر من نظرة سريعة في الاسماء المشهورة لنعلم ان النسبة إلى البلدة سابقة لكل نسبة محلية في ديارنا الإسلامية ، فلم يمض زمن بعيد على اقتران كل عَلَم من أعلام الناس بعلم من أعلام المدن ، ولا تزال بقية من تلك الاعلام تذكر ثم تذكر بعدها نسبتها إلى الاسكندرية أو طنطا أو المنصورة أو أسيوط أو جرجا أو قنا أو أسوان ، وغيرها وغيرها من القرى والبلدان ، ولم ينس الناس عندنا هذه النسبة إلا في العصر الذي اتصلوا فيه بالاوربيين والغربيين خلافاً لما يزعمه الجغرافيون الدينيون .

والخطأ الذي نختم به هذا المقال خطأ عام يتعرض له الباحثون في هذه الدراسة حيثما كان موضع البحث وكيفما كان تصويره للعلل العامة التي لا يختصون بها الاسلام والمسلمين .

وذلك الخطأ العام انهم يبالغون في الرجوع بالخصائص الروحية إلى أصول مزعومة من الخصائص الجغرافية وخصائص المدينة والبادية ، فكثيراً ما تكون الظاهرة الروحانية مناسبة للاقليمين النقيضين في جميع الاوضاع وفي الاوضاع

الجغرافية والسياسية على الخصوص .

ان اعتقاد « التوحيد » مثلا يناسب أبناء البادية لانهم يطمئنون إلى الاله الواحد الذي يعتصمون به في كل مكان رحلوا إليه ، ولا يلقون كل اعتمادهم على إله محدود في بقعة من البقاع ينقلونه معهم إذا استطاعوا ، وهم لا يستطيعون .

والدولة الأمبراطورية أبعد شيء عن بادية الصحراء ، لأنها مجموعة من مدن عامرة وأقطار متداخلة وشعوب متعددة ، ولكنها تنتهي آخر الأمر إلى الإيمان بإله واحد كما تدين بسلطان واحد يحيط بشعاب الحكم في جميع الشعوب .

وإذا تساوى الموقع ونقيضه في قبول العقيدة فليس المرجع كله إذن إلى الخصائص الجغرافية ولا إلى هذا المكان وذاك المكان ، وإنما المرجع وراء المراجع جميعاً إلى مكان مكنون لا تراه العيون .

المرجع إلى أعماق الصدور .

الفصل الخامس
مباحث في القرآن الكريم

قصص القرآن ، دروس وعبر (١)

أكثر القصص التي وردت في القرآن الكريم من قصص الأنبياء في جهادهم لتبليغ رسالتهم ونشر دعوتهم ومقاومة خصومهم من ذوي السلطان الذين انكروهم وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم ، وأكثر ما جاء فيه من أخبار الدول والملوك فإنما جاء في سياق أخبار الدعوة مع سائر أخبارها . إلا أن يكون الأنبياء ملوكا كما اتفق لداود وابنه سليمان عليهما السلام ، ففي هذه الحالة تروى أخبارهم لأسبابها المذكورة في قصصهم لأنهم كانوا في سلطانهم في غنى عن مقاومة خصوم الدعوة كما قاومها الأنبياء الذين توجهوا بدعوتهم إلى الأمم فحال بينهم وبينها ملوكها وأمراؤها .

وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة دقيقة تبين للناظر في مضامينها ان عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة ودعاة الاصلاح . إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية ان ينتدب من الأمة طائفة « يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وكان من الأقوال الواردة في الأثر أن العلماء ورثة الأنبياء ، فلا يخلو مكان الدعوة في الأمم بعد الأنبياء ، ولا يستغني هداتها عن الاسوة الماثلة أمامهم في جهاد الهداية والاصلاح .

ولقد كملت دروس الدعوة في قصص الانبياء حتى لا مزيد عليها ، فلا

---

(١) الهلال سبتمبر ١٩٥٦

نستخلص مــــن دروس الدعوة في التاريخ كله درساً واحداً ليس له نظير ، أو نظائر ، في قصص الانبياء التي جاء بها القرآن الكريم .

من تلك الدروس ان الجهلاء ينقادون للأمر والسطوة ولا ينقادون للحجة والدليل ، ويريدون من صاحب الدعوة كما جاء في قصة نوح أن يكون ملكاً أو تكون عنده خزائن الله ، ويقولون له : « قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ان كنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »

ومن تلك الدروس ان أصحاب السيادة في الأمة يكرهون التغيير ويتشبثون بالقديم ، ويأخذون على النبي ان يتبعه أناس من غير ذوي السيادة والجاه : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلا الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَـكُمْ عَلَيْنَا منْ فضْلٍ بَلْ نَظُنُّـكُمْ كَاذِبِينَ » .

او كما جاء في سورة سبأ : « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » .

ومن تلك الدروس ان الجمود على التقاليد الموروثة أكبر آفات العقل البشري لأنها تعطل تفكيره وتتركه في حكم الآلة التي تسير على نهج واحد في آثار الآباء والاجداد مع اختلاف الزمن وتبدل الأحوال .

ومنها ان العقائد تخالطها شَابُ الزمن فلا تزال بحاجة إلى التهذيب والتطهير كلما ابتعد العهد بينها وبين مصدرها الاولى .

ومنها ان الاصلاح تضحية وعناء وان الانبياء كانوا بــين فريقين : فريق يكذبه قومه وفريق يقتلونه ، ولا مناص من القدوة على ما فيهــــا من خطر ومحنة ، ولو لم يكن من دليل غير ذلك على ان الدعوة إلى الاصلاح رسالة الهية لكفى به دليلا يغني عن كل دليل ، فلا مشيئة لمصلح في عمله ، ولو شاء مصلح ان يعمل على ثقة من الامان والنجاح لما قام في الارض مصلحون .

وقــــد برزت بين قصص الانبياء قصتان مسهبتان في أجزاء الكتاب لانهما ترويان لنا نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية ، وهما أُمة وادي النهرين وأمة وادي النيل . وكانت قصة إبراهم وموسى عليهما السلام من أجل

ذلك أوفى القصص بين جميع قصص الانبياء ، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لاكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم ، وهي مما يتلخص في عبادة الملوك وعبادة الاجرام السماوية وعبادة عناصر الطبيعة وعبادة الاوثان وتضليل الابصار والبصائر بالسحر والكهانة .

هذا هو الشطر الاكبر من القصص القرآنية ، يراد به تعليم المصلحين وتربية الهداة ، ولا يراد به سرد أخبار التاريخ إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق .

وان في القرآن الكريم لقصصاً شتى من غير قصص الدعوة أو قصص الجهاد في تبليـغ الرسالة ، ولكنها تراد كذلك لعبرتها ولا تراد لأخبارها التاريخية ، ومنها قصة يوسف ، ويصح ان تحسب منها قصة اسماعيل عليهما السلام.

فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس من طفولته بآفات الطبائع البشرية ، من حسد الاخوة إلى غواية المرأة إلى ظلم السجن إلى تـكاليف الولاية وتدبير المصالح في ابان الشدة والمجاعة .

وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية من عهد الطفولة كذلك ، فيصيبه نظام الاسرة باختلاف مكانـــة الزوجة السيدة والزوجة المستعبدة ، وتصيبه الغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء ، وتكتب عليه ضريبـــة الفداء وهي في مفترق الطريق بـــين الهمجية التي كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية وبين الانسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان ، ثم يكتب لهذا الغلام الطريد الوحيد ان ينمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الايام .

ويشتمل القرآن على قصص غير قصص الانبياء في دعواتهم وغير قصص الانبياء في تجاربهم الإنسانية ومنها قصص الملكين والفتية من أهل الكهف وما جاء على السنة النمل والنحل والطير ، وما ختمت به قصص الرسالة في دعوة نبيّ الإسلام عليه السلام.

وكلها ينبغي ان تقرأ كما تقرأ عظات الهداية وأماثيل العبر ، وكلها مع ذلك مما يحتاج إلى الفهم والبديهة من المؤرخ الامين قبل التهجم عليـــه بمقياس

التاريخ الناقص الذي لا يصلح لقياس الحقائق الوجدانية وأولها حقائق الاديان .

ولمصلحة التاريخ ينبغي أن ينظر المؤرخ إلى القصص الدينية في أناة وروية وعلم باختلاف النسق بين العقائد والاخبار .

فالمؤرخون الذين تهجموا في هذا المقام على غير وعي، وبغير حذر ، لم يلبثوا أن عرفوا الخطأ منهم في حق التاريخ وفي حق العقيدة مجتمعين .

فقد انكروا الطوفان ثم ظهر أنه كان من اثبت الاحداث في انباء جميع الامم ، وانكروا غواشي الرجوم والزلازل فظهر أنها كانت في أماكنها وفي أزمنتها حيث وصفتها كتب الاديان .

ومن دواعي التفسير الوجداني للحوادث أننا نعلم من الدين وحدة الاصل بين أبناء إبراهيم قبل أن يعرف العلم الحديث شيئاً عــن وحدة اللغات السامية ووحدة اللغات الهندية الجرمانية ، فلو لم تكن هناك حقيقة وراء أسانيد الاديان يتهجم من ينكرها ، لما أمكننا أن نفهم كيف عرف الاقدمون ان العربية والعبرية والارامية والادوميــة من أصل واحد ، وان أبناء إسماعيل وأبناء اسحق ينتمون قبلهم إلى جذم كبير .

ويعجبنا قول بعض العلماء المحدثين في الغرب عن كتاب الوحي الديني انه « صوت حي » ولا يصح ان يقرأ على غير هذا الاعتبار .

والصوت الحي الذي تتجاوب به عصور الزمن وتتجاوب به حنايا النفس البشرية — اولى بالاصغاء إليه من قصص التاريخ او قصص الخيال .

القصص الديني بين العلم والتاريخ

تغير موقف العلماء كثيراً بين القرن الماضي والقرن الحاضر من القصص التي وردت في الكتب الدينية .

كان ورود قصة في كتاب من الكتب الدينية كافياً عند طائفة من العلماء لانـكارها او للشك فيها ، وكانوا ينكرون الاخبار او يشكون فيها لانهم لا يصدقون الاسباب التي تنسب إليها ، فكانوا يخالفون التحقيق العلمي في صميمه وهم يزعمون أنهم يستندون إلى العلم لتمحيص تلك الاخبار .

ولنضرب لذلك مثلا، إنسانا يقال انه مات لانه شرير أبغضه قومه واستغاثوا بساحر قدير ليقضي عليه فأهلكه الساحر بما سلطه عليه من الرقى والعزائم ، ونفرض أنك لا تصدق السحر ولا تؤمن بقدرة الساحر على اهلاك من يشاء ، فهذا لا يجيز لك — علمياً — ان تنكر موت الرجل ولا ان تنكر انه شرير ولا ان تنكر ان اهله قد استغاثوا بالساحر ليهلكه ، وكل ما يجوز لك ان تنفيه ان السحر لم يفعل في اهلاكه ذلك الفعل المنسوب إليه .

والعلماء الذين استندوا إلى العلم لنفي الاخبار والقصص التي وردت في الكتب الدينية كانوا يصنعون شيئاً من هذا القبيل ، لانهم كانوا ينكرون الطوفان او الزلازل او الفتن التي ذهبت بالامم الخالية ، لانهم — أي العلماء — غير متدينين بالكتب التي جاءت فيها الاخبار والقصص وذكرت ما ذكرت عن وعيد الانبياء والرسل وعصيان القبائل او الجبابره المتألهين !

ولم تنقض على هذا الموقف من بعض العلماء فترة وجيزة حتى ثبت لهم هذا الخطأ في العلم فضلا عن الخطأ في حق الدين ، فأصبحوا اليوم اقرب إلى الاناة والرصانة في تمحيص الحقائق وراحوا يعيدون النظر في كل ما قرروه آنفاً على ضوء حديث من اضواء الكشوف العلمية ، ومنها كشوف الاحافير وكشوف الارصاد الفلكية التي يسهل الرجوع إليها فيا حدث او لم يحدث من مقارنات الكواكب وعوارض الكسوف .

انكروا قصة الطوفان والسفينة ، فوجد العلماء الحفريون هذه القصة مكتوبة على حجارة قديمة من آثار وادي النهرين ، ووجدوها منقولة متواترة على الالسنة والآثار بين أقوام كثيرين من امم المشرق والمغرب .

وانكروا قصة سيل العرم وقصة ابرهة الحبشي وهلاك جيشه ، فلم يمض زمن حتى وجدوا آثار السد ووجدوا عليها اسم ابرهة ملقباً بالامير « التابع لملك الحبشة وسبأ وريدانوحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل» ووجدوا خبر الجدري الذي أهلك جيشه مكتوبا في تاريخ بروكوب مؤرخاً بالزمن الذي ابتدأ بعام الفيل .

وأنكروا قصة عاد وثمود وظنوا ان هذه القبائل لم يكن لها وجود تاريخي لأنها لم تذكر في أخبار العهد القديم ، فتبين لهم من مراجعة المؤرخين الاقدمين أنها مذكورة في تاريخ بطليموس وان عاد ارم هي عأدراميت اليونانية Adramitae وان أخبارها محفورة على آثار هيكل « مدين » التي عثر عليها المؤرخ التشيكي موزيل .

وهؤلاء العلماء العصريون المتشككون لم تسلم لهم دعوى الرأي الجديد ، فضلا عن دعوى العلوم التجريبية التي يقيمون عليهـــا هذه الشكوك . فانهم مسبوقون إلىعادة الانـكار الجزاف بمئات السنين، وقد جاء في رواية الأنصاري عن الفيلسوف ابن رشد « انه شاع في الشرق والأندلس على السنة المنجمة ان ريحا عاتية تهب في يوم كذا وكذا في تلك المدة تهلك الناس ، واستفاض ذلك حتى اشتد جزع الناس منه، واتخذوا الغيران والانفاق تحت الأرض توقياً لهذه الريح ، ولما انتشر الحديث بها وطبق البلاد استدعىوالي قرطبة إذ ذاك طلبتها،

وفاوضهم في ذلك وفيهم ابن رشد ، وهو القاضي بقرطبة يومئذ وابن بندود في شأن هذه الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات الكواكب ، وقال شيخنا أبو محمد عبد الكبير ، وكنت حاضراً فقلت في أثناء المفاوضة : ان صح أمر هذه الريح فهي ثانية الريح التي اهلك الله بها قوم عاد إذ لم تعلم ريح بعدها يعم هلاكها ، فانبرى إلي ابن رشد ولم يتمالك ان قال : والله وجود قوم عاد ما كان حقاً ، فكيف سبب هلاكهم ... »

وهذه الكلمة لم تثبت نسبتها إلى ابن رشد لأنه بقي بعدها قاضياً لم ينكب ولم يعزل ، حتى أصابه الغضب من الأمير ، فنكب وعزل ، ونسبت إليه أقوال المتفلسفة في زمانه ، ومنها الشك في التواريخ الدينية على هذا المثال ، فليس علماء القرن التاسع عشر أول من تجنى على العلم والدين بالانكار الجزاف والشك بغير دليل ، ولكن علماء القرن التاسع عشر كانوا أحق بالاناة والتريث ممن سبقوهم إلى العجلة بمئات السنين ، لأنهم ما كادوا يعلنون شكوكهم حتى بادرتهم الكشوف بالموعظة التي غفلوا عنها وكانوا في غنى عنها لو اصطنعوا الحكمة « العلمية » .

ونحسب ان علماء القرن التاسع عشر إذا كانوا قد سبقوا من تقدمهم إلى لون من ألوان هذه النقيصة الفكرية فقد سبقوهم إلى الرعونة في التعجل لأنهم أوشكوا ان يحصروا العلم كله في انكار كل شيء وفي القول بأن كل شيء مخالف للعقل والحقيقة ، فانكروا وجود إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وانكروا الحوادث التي رويت عن أزمانهم وأنكروا التقارب بين الشعوب السامية لأن هذا التقارب منسوب إلى إبراهيم .

ثم مضى جيل واحد ، فلا نقول ان الكشوف التاريخية اثبتت كل ما انكروه لأنها لاتزال في أول الطريق ولكننا نقول ان رواية الكتب الدينية لم تزل هي المرجع الوحيد في حوادث تلك الأزمنة ، وان بعض الأحافير التي انكشفت حتى الآن تحقق تلك الازمنة كلما أمكنت المقارنة بين المصنوعات الفخارية والأزياء المعروفة ، وان الكتب الدينية قد سبقت المحدثين إلى القول بالقرابة بين اللغات السامية قبل ان يدرس العصريون شيئاً من مقارنة اللغات والاجناس .

ولعل هذه الأخطاء التي وقع فيها علماء القرن التاسع عشر تشجع الآن طائفة من الباحثين العلميين على استخدام العلوم جميعاً في إثبات الروايات الكتابية ، ومن هؤلاء الباحثين من ألف الكتب المطولة في اثبات الخوارق وتعليل ما رواه هيرودوت عن كهان المصريين حين أنبأوه ان الشمس تحولت من مجراها القديم ، واستطرد المؤلف من ذلك إلى وقوف الشمس ليوشع ابن نون ، ثم قال ان الحوادث التي وردت في الكتب الدينية إنما تحدث علمياً إذا اصطدمت الارض بمذنب كبير ، فتسقط الحجارة من الجو ويصطبـغ الماء بلون كلون الدم ويموت كل ما فيه من حيوان ويتحول موقع القطبين إلى غير ذلك من العوارض « العلمية » في رأيه وهي في رأي المنكرين مناقضة للعلم والتفكير السليم .

وليس من اللازم ان يكون هؤلاء العلماء قد أصابوا التطبيق بين الخوارق والعوارض العلمية ، فأحسن ما يستفاد من محاولاتهم أن التعجل إلى الانكار شبيه بالتعجل إلى التصديق ، وكلاهما براء من دعوى العلم وأمانة العلماء .

وبعد قرن مضى في النفي والإنكار يثوب العلماء إلى موقف آخر من القصص الدينية ، فيقبلها فريق منهم على أنها عظات صادقة ، ويقبلها آخرون على أنها من الحقائق التى تفهم بالتأويل ، ويقبلها غير هؤلاء وهؤلاء على أنها تاريخ قديم ينبغي أن يرشد الباحثين إلى مواضع البحث وموضوعاته ، ولكن لا ينبغي بحال من الاحوال أن ترفض بجرة قلم أو يقال ان البحث فيها مفروغ منه لانها من « أساطير الاولين » .

موقف العلماء اليوم أمام القصص الديني يقترب من العلم ولا يقترب من الدين وحسب ، وأول علامات الاقتراب الا يتعجل المتعجلون إلى النفي أو الشك بغير دليل ، وأن نفهم الحقيقة العلمية على نحوها فلا نخلط بينها وبين حقائق الغيب وحقائق الضمير .

حول إعجاز القرآن وأوهام المستشرقين[1]

ذهب بعض الباحثين وفريق من المبشرين إلى ان من أسباب انتشار الإسلام في افريقيا انه لا يمنع تعدد الزوجات . وقالوا ان من أسباب انتشاره بين الهنود انه سوّى بين الطوائف المنبودة وطوائف الاشراف . ومن ثم اقبلوا عليه زرافات لانه يسوي بينهم وبين السادة ، كذلك قالوا انه دين بسيط في مبادئه، سهل في أصوله وقواعده .

وفي رأينا ان هذه كلها أسباب موقوفة او أنها أسباب محلية ، وهي تصلح ولا شك لتعليل انتشار الدين في بيئة بعينها او في زمن معين ، ولكنها أبداً لا تلازم انتشار هذا الدين في جميع البيئات والازمان .

فالإسلام كانت له الغلبة وكان بحق قوة غالبة بفضل العقيدة الإسلامية التي وصفت بالشمول لانها تشمل الإنسانية جمعاء .

فليس الإسلام دين أمة واحدة بعينها ، ولا هو دين طبقة خاصة بذاتها ، ولكنه دين الإنسانية كلها ودين بني البشر جميعاً من كل جنس .

والقرآن الكريم يقول :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً »

---

(١) الشباب المسلمون يناير ١٩٦٣

« قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَمِيعاً ، الذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذي يُؤْمِنُ باللهِ وكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، واسحق، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والذين هَادُوا والنَّصَارى والصَّابئينَ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ ربِّهم ولا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

وهذا الشمول الذي يؤكده القرآن الكريم يشمل النفس أيضاً فيجمع النفس والضمير ، ويخاطب الإنسان روحاً وجسداً وعقلا وضميراً .

والإسلام الحنيف يسوي بين الناس جميعاً ، فلا تمييز بينهم في حقوق الانصاف والمعاملة .

ولا فضل لأحد منهم على الآخر بغير عمله وخلقه ، يقول القرآن الكريم :

« يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إنَّ اللهَ عليمٌ خَبِيرٌ » .

فالقرآن الكريم هو الذي جعل من هذه العقيدة الإسلامية قوة غالبة وجعل من أمة الإسلام على مدار العصور واختلاف الأقوام والأزمان قوة صامدة . وقد أفرد ذلك الإسلام بمزيته التي لم تعهد في أي دين آخر من الأديان الكتابية .

عداوة مدسوسة

وهناك أوهام كثيرة أشاعها المستشرقون بسبب تفسيراتهم الخاطئة لكثير من أمور اللغة والدين ـ ومنها ما كتبه بعض المستشرقين تفسيراً لاسم أبي بكر رضي الله عنه من أنه « أبو العذراء » ! !

ومنها ما قالوه في تفسير لمعنى « القصيد » من أنه المقصود !

ومنها أيضاً ما تورط فيه ذلك المستشرق من خطأ معيب في تفسيره لقوله تعالى :

« وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ »

بقوله : « أي بدون أحذية » !!

ذلك انهم على غير علم دقيق باللغة العربية ، وليس هذا غريباً فهم لا يفهمون أدب أمتهم ولا يجيدون معرفة هذا الأدب في لغتهم . فمن باب أولى الا يحسنوا فهم الادب العربي ! وقد كانت لهم مكانة أكثر مما يستحقون حتى وقفنا أمامهم ووضعناهم في موضعهم !

وكما يخطئون في تفسير الكلمات والآيات يخطئون أيضاً في تفسير كثير من الروايات .

ومن ذلك ما كتبه الراهب المعروف « منير تزيو » عن « قصة زينب بنت جحش » وزواج النبي ﷺ منها بعد تطليقها من زوجها .

وقد قال في روايته او على الأصح اكذوبته : ان « زينب » هذه كانت من أجمل نساء الأرض في زمانها ، وأن محمداً عليه السلام قد سمع بجمالها الفاتن فشغف حباً بها .

وليس أسهل على كل باحث مدقق او إنسان منصف ان يسقط هذه الاكذوبة إذا عرف هذا المستشرق ان زوجة « زيد » كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي عليه السلام ، وان النبي هو الذي زوجها من ربيبه وعتيقه « زيد » ليرفع الرسول الكريم عن « زيد » ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين اكرم أهله .

هذه حقيقة يعرفها كل باحث في الإسلام وكان احرى ان يعرفها هذا المستشرق ولكنها العداوة المدسوسة ، فان فكرة التبشير لا تنزع من عقولهم .

بلاغة القرآن

وقد كتب بعض هؤلاء الباحثين عن الإسلام منصفين ، ومنهم المستشرق « روم لاندو » . فقد كتب عن بلاغة القرآن معللا حيرة الغربيين في فهم هذه البلاغة واستجلائها .

وكانت خلاصة رأيه وتعليله ان الغربيين يجهلون مناسبات النزول في القرآن

وترتيب الآيات على حسب مواقعها ، وقال ان ذلك من أسباب حيرة القاريء الغربي عند تلاوة القرآن الكريم .

وقال أيضاً : « ان السور المطولة تنزلت في اخريات أيام النبي ، وفيها بيان الاصول الشرعية وقواعد الحكم وتدبير الشئون العامة بما يتتبعه القاريء الغربي فلا ينشط لقراءته ، وإنما يدرك هذا القاريء بلاغة الكتاب في قصار السور التي تنزلت بمكة واحتوت من حماسة الروح ما هو جدير بالانتباه والتوقير .

اعجاز القرآن

والحق ان موضوع اعجاز القرآن من الأمور الهامة التي شغلت الأذهان .

وقد عني الباحثون بموضوع البلاغة في القرآن ، وتشعبت الآراء وتعددت الغايات في هذه الدراسة .

وبعضها يقول : ان اعجاز القرآن يرجع إلى المعاني التي تنطوي عليها الآيات .

وبعضها يقول : انه يرجع إلى الفصاحة في هذه الآيات والبلاغة التي تؤكدها هذه الآيات .

فهل هذه البلاغة منفصلة عن المعنى الذي أتت به الآية ؟ أم انها متصلة بالآية معناها ووقعها في ذهن القاريء ؟

ان المعنى لا يمكن ان نفصله عن اللفظ ، ولا سبيل إلى التفرقة بين حدود الكلمات لان حدود الكلمات متلبسة بالمعنى .

وقع الآيات

ومن هذه البلاغة ووقع الآيات في النفس ، ومن آياته من حيث هي لفظ ومعنى ، ومن حيث انه قرآن مجيد مستجاب في النفس ، يأتي التأثير .

وقد روي أن الوليد بن المغيرة قال ذات مرة لرسول الله: «اقرأ عليّ..» فلما قرأ النبي عليه آيات من القرآن الكريم قال له الوليد : « والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر !»

وقال أيضاً : « ان هذا كلام له جذور في الروح لا يجتث بسهولة »

خلود الرسالة

ان هذه البلاغه وما انتظمت عليه من القوة البيانية ليست هي التي تقطع لنا وحدها باعجاز القرآن الكريم.

فعندي ان وجه الاعجاز في كتاب رب العالمين يرجع إلى خلود الرسالة التي جاء بها هذا الكتاب ، وما فيه من هدى ونور وصلاح واصلاح للبشرية جمعاء في اسعاد الفرد والجماعة .

ووجه الاعجاز في هذا الكتاب الكريم يرجع أيضاً إلى ما أحدثه في حياة العرب من رقي ورفعة وإلى ما أحدثه أيضاً في حياة المسلمين من ثورة ، وانه لم يقف في سبيل العقل الإنساني بل حثه على النظر والفكر والتدبير واستجلاء الاسرار والعمل لما فيه الخير في الدنيا والآخرة . وهذا الاعجاز أيضاً يرجع إلى ما أوجده من ترق للامة العربية على عهد الرسول والامة الإسلامية في ابان نشأتها وظهورها ، وعلى مدار العصور والأزمان .

« وأنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتفرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بهِ لعلّكُمْ تَتَّقُونَ » .

« إنَّ هَذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمْ » .

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إليكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَومِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » ..

معنى كلمة الأميين

نقلت صحف القاهرة عن صحيفة بيروتية ان باحثاً سمته باسمه ، قد عثر على وثيقة تاريخية ثبت لديه انها مكتوبة بخط النبي ﷺ ، وتعجل المتعجلون فاستخلصوا من هذا الخبر الذي لا سند له من الواقع ولا من التاريخ انـــه – صلوات الله عليه – ليس بالأمي الذي يجهل القراءة والكتابـــة كما جاء في القرآن الكريم .

ونكاد نجزم باستحالة وجود هذه الوثيقة بالصفة التي وصفها بها الباحث الذي ذكرته الصحف ، ان صح ما نسبته إليه .

فإنما تثبت كتابة النبي – عليه الصلاة والسلام – لتلك الوثيقة باحدى طريقتين: احداهما ان يكون لدينا كتاب مخطوط كتبه – عليه الصلاة والسلام – وثبتت كتابته له فتثبت نسبة الوثيقة التي اكتشفت اخيراً بالمقابلة بين الخطين .

وظاهر من اللحظة الأولى ان اثبات ذلك مستحيل ، لان الخط الذي تحصل المعارضة عليه ليس له وجود ، وليس هناك كتاب منسوب إليه – صلوات الله عليه – ثابت النسبة إليه او غير ثابت ولو مع الخلاف .

والطريقة الاخرى لاثبات الوثيقة المزعومة ان يشهد الشهود العدول برؤيتهم النبي – عليه الصلاة والسلام – وهو يكتبها بيده الشريفة ، وذلك أيضاً مستحيل ، لان المجهولين من أولئك الشهود المفروضين لا سبيل إلى الثقة بهم

وتوكيد روايتهم على حال من الاحوال . فان كان أولئك الشهود معلومين لنا فكل من يعلم الخبر اليقين عنهم يقررون انه – صلوات الله عليه – لم يكتب قط كلاماً بيده ، وانه كان يملي الوحي والرسائل على كتّابه المعروفين .

الا ان المسألة هنا مسألة تحقيقٌ كلمة الاميين التي وردت في القرآن الكريم لانها كلمة من كلمات الكتاب يفرض علينا فهمها على صحتها ، ولانها من الجهة الاخرى قد تفتح الابواب لكثير من الشبهات وكثير من اللغط الباطل الذي يحسن بنا ان نغلق الابواب عليه .

فالكلمة بصيغة الجمع قد وردت في السور المدنية خطاباً لاهل الكتاب او رداً عليهم ، ومعظمهم من اليهود منكري الدعوة المحمدية من سكان المدينة التي تنزلت فيها تلك الآيات .

والمهم في تفسير معنى الكلمة ان نرجع إلى معناها عند أهل الكتاب ، ولا سيما اليهود .

فالمحقق الذي لا شك فيه ان أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين اجمعين كانوا إلى ما بعد ظهور الدعوة الإسلامية يقسمون العالم إلى قسمين : بني إسرائيل ، والأمم التي ليست منهم ، ويزعم اليهود – خاصة – ان بني إسرائيل وحدهم هم أهل النبوة والرسالة الذين اختصهم الله دون سواهم من العالمين بالكتب المنزلة والانبياء المرسلين ، وان من عداهم من الامم لا نبوة فيهم ولا كتاب لهم وليسوا من الموعودين بالهداية والرضوان .

وفي كتب العهدين القديم والجديد عشرات من المواضيع وردت فيها كلمة « الاميين » بهذا المعنى ، وفيها كذلك عبارات شتى تذكر « الاميين » في مقابلة اليهود عند التحدث عن الافراد من الرجال والنساء.

ومن امثلة ذلك ما ورد بالاصحاح السابع من انجيل مرقس ، وفيه :

« ان امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به فأتت وخرت عند قدميه ، وكانت المرأة امية وفي جنسها فينيقية سورية » .

وجاء في الاصحاح الثاني من رسالة بولس إلى اهل غلاطية :

« لكن لما رأيت انهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الانجيل قلت

لبطرس امام الجميع : ان كنت وانت يهودي تعيش امميا لا يهوديا فلماذا تلزم الامم ان يتهودوا . نحن بالطبيعة يهود ولسنا من الامم خطاة » .

فلا خلاف في ان كلمة الاميين عند اهل الكتاب كانت تعني غير اليهود في صفة الفرد او الجماعة، ولا خلاف في ان النسبة إلى الامم بالعربية تلحق بالاسم المفرد لا بالجمع، وفاقاً لقاعدة النسبة في اللغة العربية، فيقال « الامينون » بحسب هذه القاعدة ولا يقال الاميون .

ومن كلام اليهود الذي لزمتهم فيه حجة القرآن الكريم قولهم انهم ليس عليهم في الاميين سبيل .

وذلك حيث جاء في سورة آل عمران :

« وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّه إليْكَ وِمِنْهُمْ من إنْ تَأْمِنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلَّا مَا دُمْتَ عليهِ قَائِمًا ذلكَ بأنّهمْ قالُوا ليسَ علينا في الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » . « ويَقُولُونَ على اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلمون » .

وأصل ذلك ان اليهود يفرقون في المعاملة بالقروض والامانات وفوائد الربا بين بني إسرائيل وغير بني إسرائيل .

ومن ذاك ما جاء بالاصحاح الثالث والعشرين في سفر التثنية :

« لا تقرض أخاك بربا: ربا فضة او ربا طعام او ربا شيء ما مما يقرض بالربا، للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا ... »

فليست التفرقة في المعاملة بين اناس يعرفون القراءة والكتابة وبين اناس يجهلونها ... لأن اليهود — ولا سيما الفقراء المنهي عن سوء معاملتهم — يجهلون القراءة والكتابة ولا يعرفها من اليهود عامة غير الكهان والمتعلمين من أصحاب الأموال .

ولكن التفرقة في المعاملة هي بين بني إسرائيل وسائر الأمم الاجانب عنهم، او بين اليهود والاميين .

ذلك معنى واضح لا لبس فيه، فلا موضع للشك على الاطلاق في معنى الاميين عند أهل الكتاب، وعليهم يرد القرآن الكريم ويأخذهم بما يقولونه لا بما يقوله الآخرون ... فما يعنونه هم هو موضع الرد والحجاج وهو الذي تواتر في

كتبهم كما تواتر على ألسنتهم وهذا هو ما يعنونه بغير خلاف .

وعلى سبيل الاستعارة والتغليب ترد كلمة « الامي » بمعنى من يجهل الكتاب أولا ومن يجهل الكتابة تبعاً لذلك .

فإنما كانت المقابلة أصلا بين اليهود والاميين على اطلاقهم ، فلما صارت المقابلة إلى أهل الكتاب وغير أهل الكتاب سرت الاستعارة بين من يقرأون الكتاب وغير القارئين .

ويجب ان نتريث طويلا عند قوله تعالى :

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ » .

فاليهودية قد دخل فيها اناس من الأمم غير بني إسرائيل ، فهم بطبيعة الحال لا يقرأون العبرية ولا الآرامية ، ولا يزيد علمهم بصلوات الكتاب على التأمين عند انتهاء الـكاهن إليه « آمين آمين » .

أما التعليلات الكثيرة التي وردت في الأقوال الشائعة عن أصل كلمة «الامي» فمصدرها الجهل بما في كتب اليهود وما في عباداتهم من الشعائر والصلوات .

فقد قيل ان « الامي » منسوبة إلى أم القرى لأن النبي — عليـــه الصلاة والسلام — ولد فيها .

وهو قول يرادف القول « بالنبي المـكي » في صفته — عليه الصلاة والسلام — وليس لهذا التخصيص بمدينة واحدة من مرجح بالقرينة ولا بالفهم الصراح ، فضلا عن اطلاق صفة الاميين على ألوف لم يولدوا بمكة .

وقيل ان « الامي » منسوب إلى الأم لانه يبقى كما ولدته أمه بغير تعليم ... ولم يرد قط هذا الوصف بهذا المعنى في كلام عربي قبل البعثة المحمدية ، وإنما يفرق الناس هذه التفرقة بين من بقي جاهلا ومن تعلم بعد مولده ، إذا وجد الكثيرون من المتعلمين والكثيرون من غير المتعلمين ، وذلك ما لم يحدث في الجاهلية .

وقيل انه من الأمة من قولهم : فلان لا أمة له — أي لا ديانة له — واستشهد معجم « لين الإنجليزي الكبير » بكلام شاعر لم يذكر اسمه يقول :

« وَهَلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكَفُورُ ؟ .. »

وهو قول يجعل اليهود منكرين للدين عندهم معترفين به عند غيرهم ، ولا

يستقيم في الذهن على هذا الاعتبار .

وأغرب ما يقال : ان ينسب الامي إلى الامة او إلى السواد الجاهل الذي لم يتعلم ... وقد جاء في لسان العرب ان الامي « هو العيي الجلف الجافي القليل الكلام قال : ولا أعود بعدها كريا

أمارس الكهلة والصبيا

والعزب المنفه الاميا

ثم علله بمثل ما تقدم إذ قال : « قيل له أمي لانه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان » .

ومعاذ الله ان يكون هـــذا هو الاصل في وصف يطلق عـــلى أفصح العرب أجمعين .

فليس أصح في تفسير الـكلمة من انها وردت على الاستعارة والتغليب للمقابلة بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب .

وينبغي أن يتأنى المتعجلون فلا ينكروا ان أهل الكتاب كانوا يسمون العرب وغيرهم من الاجانب عنهم بالاميين ، فان ثبوت هذه الحقيقة امر وراء كل خلاف ، ومن الوزر ان يحمل الجاهل جهله على شيء يرد في القرآن الكريم .

فاليهود ، إذا قالوا كلمة « الاميين » فإنما يعنون بها غير بني إسرائيل ما في ذلك جدال ولا محال .

ولا يمنع ذلك ان تطلق كلمة « الامي » على من يجهل القراءة والكتابة حيث تستعار للمقابلة بين قراء الكتاب وغير قرائه ، وبخاصة حين نبحث عن مرجع المعنى فلا يستقيم لنا في نسبتها إلى الام او إلى السواد او إلى أم القرى .

ولنقل عن يقين ان كلمة الامي اطلقت على من يجهل القراءة والكتابة ، ولكن لا نخطيء فنجعل ذلك موقوفاً على انكار كلمة الاميين كما وردت في أقوال لا عداد لها قبل مولد النبي عليه الصلاة والسلام .

ان القرآن الكريم لا يترك دعوى اليهود الكبرى بغير تفنيد لهـــا وتوكيد ببطلانها ، ودعواهم الكبرى هي انهم مختصون بالنبوة دون سائر الامم ، فأين هو جواب هـــذه الدعوى في كتاب الإسلام ؟ ان لم يكن جوابهـــا في

تلك الآيات .

وعلينا ان نفهم ان النبي العربي والنبي الامي بمعنى واحد ، وانه – عليه الصلاة والسلام – لم يكن يتلو كتاباً قبل الكتاب المنزل عليه ولا كان يخطه بيمينه :

« وما كنتَ تَتْلُو من قبلِهِ مِنْ كِتاب ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذَنْ لارْتَابَ المُبْطِلُونَ » .
صدق الله العظيم ... وصدق سبحانه إذ قال :
« اتْلُ مَا أُوحِيَ إليكَ مِنَ الكِتَابِ » .

فليتدبر هذا الامر بالتلاوة من يتوهم ان التلاوة تنقض معنى « الامية » على وجه من الوجوه .

تفسير الأستاذ الإمام [1]

لكل مقام مقال ،

هي حكمة بليغة ، على هداها عرف الاقدمون البلاغة ووضعوا لها تعريفها الصحيح :

وهو مراعاة مقتضى الحال .

ومقتضى الحال هو مقتضى المقام .

وان الذين يشغلون عقولهم بامتحان صحة البلاغة ، او صحة فهم الكلام البليغ ، ليبحثون عن مسبار أفضل من هذا المسبار فيطول بهم البحث ولا ينتهون إلى خير من هذه الحقيقة .

وهي أننا نعرف ان القائل قد فهم معنى ما يدرسه او يفسره إذا عرفنا انه فهم مقام القول ، وفهم من ثم مراد القائل وأثر كلامه في السامع على حسب ذلك المقام .

فاذا كان قد فهم مقام القول حق فهمه فذلك هو الاساس الذي يقام عليه البناء ، أياً كان نصيب هذا البناء من المتانة والجمال ، ولا قيمة للبناء المتين الجميل إذا قام على أساس غير سليم .

---

(١) الازهر نوفمبر ١٩٦٣

نقدم هذه الكلمة تمهيدا للتعليق الذي دعانا إليه المقال النفيس الذى كتبه العالم الفاضل الدكتور عثمان أمين في عـــدد شهر جمادى الاولى مـــن « منبر الإسلام » .

وأدار موضوعه على طريقة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ، وهي فيما نرى احدث أساليب التفسير وأسدها من الوجهتين الدينية والبلاغية ، وخلاصتها في كلمات معدودات ، ان الاستاذ الإمام كان أقدر المفسرين المحدثين على فهم كل مقام من مقامات الوحي الشريف ، وذلك مقصد بعيد الامد فيما يرجع إلى فهم الوحي الإلهي على التخصيص ، وإنما يعينه عليه انه يدرك وحده الوحي في جملته ، كما يدرك مقاماته او مناسباته فهما منه لموقعه من السامع وللحكمة المقصودة بتوجيه الخطاب إليه .

يقول الدكتور عثمان أمين عما توخاه الاستاذ الإمام من تفسير الكتاب : « إنما الفهم الذي يريده هو ما يكون عن ذوق سليم وما يتبعه من لطف الوجدان ودقة الشعور اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدين ، ويقتضي ذلك النفاذ إلى روح القرآن والوقوف على معانيه ... ومن أجل ذلك نراه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة ... »

ثم يقول بعد توضيح لهذه الفكرة ان المفسر المصري « ينتهي إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول في آيات الاحكام ، فان معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وادراك حكمته وسره ... »

وفحوى ذلك ان معرفة المقام او المناسبة هي اساس الهداية إلى مقصد الخطاب وإلى أثر هذا الخطاب في وجدان السامع ، على حسب المقام » .

وان احق الناس ان ينحو في تفسير الكتاب هذا المنحى هم اولئك الذين يعملون في التعليم وتقضي عليهم صناعتهم ان ينهجوا فيها على أحدث مناهجه في افتتاح الدروس وتهيئة اذهان الطلاب لانتظارها وملاحقة الاستاذ المعلم عند مناسباتها .

وقد كان الكتاب الحكيم مثلا في منهج التعليم كيفما كان موضوع الخطاب وموضع المستمع إليه وعلى هذا المنهج يتعلم المفسر كيف يتعلم من القرآن

الكريم وكيف يعلّمه ويمضي على سننه في توجيه خطابه إلى مستمعيه، ولم يغفل احد عن هده السنن ممن حاولوا فهم الكتاب بعد عهد الاستاذ الإمام إلا كان تفسيره جهلا بالمقال وجهلا بالمقام في آن .

والمثل المحدود أجدى من الخوض في شروح النظريات واختلاف الأقوال في التعليقات عليها ، فمن أيام قليلة أتيح لنا أن نستمع إلى هذا المثل محدوداً محسوساً في آيات من الكتاب تصدى لتفسيرها بعض المنقطعين للتعليم ، فوقعوا في أخطاء كأخطاء أُولئك الأقدمين الذين فاتهم حظ العلم بصناعة التعليم على نهجها الأول وعلى نهجها الأخير ، ثم أضافوا إليها أخطاء من قبيلها تدل على ضيق الأفق الذي ينحصر فيه كل من يغفل عن حقيقة المقام وحقيقة المقال في تفسير الآيات القرآنية ، فانه ينحصر في نفسه وينقل شعوره هو إلى مستمع الخطاب لأنه خرج به عن مقامه بالنسبة إلى القائل — جل من قائل — وبالنسبة إلى المستمع للكلام الإلهي ، وقد يكون المستمع نبياً لا محل للشبه بينه وبين المتصدي للتفسير ، وهو لا يفقه من مقتضيات المقام غير شعوره هو يعكسه على كل إنسان وفي كل مناسبة ، وعلى غير مناسبة .

لقد أكثر بعض المفسرين من التعقيب على جواب موسى عليه السلام على سؤال الإله اياه عما بيمينه كما جاء في سورة طه ! « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسَى ، قالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عليها وأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فيها مَآرِبُ أُخْرَى .. »

ومدار تلك التعقيبات جميعاً ان الجواب قد عرض لأشياء لم يتطلبها السؤال، وهو أمر إذا صدر من نبي جليل وجب ان يفسره المفسر بما ينفي عنه الغرابة ومخالفة المنتظر في جواب نبي مرسل لخالقه الذي أسلم إليه الرسالة .

والخطأ كله إنما هو خطأ الغافلين عن مقام السؤال ومقام الجواب ، او عن مناسبة القول التي نفهم منها « ما يناسبه » وما يعتبر اختلافاً بين غرض السؤال وغرض الجواب .

ان موسى عليه السلام قد فهم السؤال على الوجه الوحيد الدي يتقبل فهمه ولا يتقبل غيره .

انه عليه السلام قد فهم قطعا ان الله جل وعلا لم يسأله عما في يمينه ليعلم

شيئاً مجهولاً ، حاش لله أن يقع ذلك منه ، او ان يقع في خلد عبد من عباده — فضلا عن نبي من أنبيائه — انه مما يجوز في حق الإله .

فلو ان موسى عليه السلام قال في الجواب: « انها عصا » لـكان هذا الجواب أبعد ما يكون عما ينبغي في هذا المقام .

ولكنه أجاب كما ينبغي أن يجيب من هو أهل لاستماع الرسالة الإلهية وابلاغها إلى عباده ، وعلم علم اليقين ان السؤال مقصود لتعليمه هو شيئاً يجهله ويزيد على ما يعلمه من حقيقة عصاه ، فوجب ان يقول كل ما يعلم من تلك الحقيقة في انتظار المزيد عليها مما يعلمه الله ويريد ان يعلّمه إياه .

وهذا المنهج الإلهي في التعليم هو بعينه ذلك المنهج الذي عاد المعلمون — على أحدث مثـــال — فقرروه « للتطبيق » في صناعتهم العصرية ، وهم احرى ممن لا يمارسون هذه الصناعة ان يلتفتوا إليها.

والطريف ان تشترك في هذه المساجلة سيدة معلمة فلا تعطي المقام حقه ولا تعلل الاطالة في جواب موسى بمقام التعليم الإلهي لنبيه في موضعه ، وإنما يخطر لها ما يدل على انحصار النفس في النفس ولا سيما النفس الانثوية ، فتقول إنما أطال موسى عليه السلام لأنه أراد أن يتذرع بالإطالة إلى طول الوقوف بـــين يدي الله !

وجائز أن يكون من أساليب المرأة الخفرة ان تتمحل الأسباب بجواب غير مطلوب للوقوف حيث تريد ان تطيل الوقوف ، ولكنه في « مقام » الاستعداد للنهوض بأعباء النذر وأخطار الوعيد ومآزق الصدام بـــين دعوة الحق ورهبة السلطان شيء لا يقع في الحسبان .

وغير هـــذا وأمثاله كان فهم الإمام الرازي لوجه السؤال ووجه الجواب حيث قال في تفسيره لهذه الآية :

ها هنا سؤالان : الأول قوله : « وما تلك بيمينك » سؤال .

والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال ، فما الفائدة فيه ؟

والجواب : فيه فوائد ، احداها ان من أراد ان يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً فانه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : هذا ما هو ؟ ، ثم انـــه

بعد إظهار صفته الفائقة يقول لهم : خذوا منه كذا وكذا ، فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآية الشريفة ، كانقلابها حية وكضربه البحر حتى انفلق . وفي الحجر حتى انفجر منه الماء ـ عرضه أولاً على موسى ، فكأنه قال : يا موسى ! هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك ؟ وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع ، ثم أنه قلبه ثعباناً عظيماً فيكون بهذه الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته . . . »

والفارق بين هذه النظرة من أمثال الإمام الرازي وبين نظرات الناظرين من قبيل من ذكرناهم هو في الواقع جملة الفوارق الكثيرة بين فهم البلاغة وفهم تراكيب الحروف والألفاظ ، ويجمعها هذا الفارق الجوهري الواحد وهو « مقام القول » .

فالمفسر الذي ينتبه إلى مقام القول يفقه مدلول السؤال كيفما كانت عبارته وتركيب الفاظه وحروفه ، ويفقه الجواب الذي يناسبه ويوحيه إلى مستمع القول على حسب إدراكه لمقامه .

والمفسر الذي يخطىء هذا المقام يغفل عن القول وعن غرض القائل والمستمع وينحصر في ذات نفسه ويقصر به الفهم والتخيل عما وراء شعوره ، أو يحسب السؤال والجواب بعدد الكلمات أيا كان المقام أو المناسبة .

وينقلب الفهم رأساً على عقب بين النظرتين فيصبح الجواب المستغرب هو الجواب الصحيح الذي لا غرابة فيه ، ويصبح الجواب المنتظر هو الجواب غير المنتظر في مقامه وهو الجواب الذي يحتاج إلى التعليل والبحث عن باطن غير الظاهر بين طواياه .

فلو أن موسى عليه السلام قال لما سأله ربه عما في يمينه : هي عصا أو هي عصاي ، لكان هذا هو موضع العجب : كيف خفي على النبيّ المرسل أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما بيمينه ولا يسأله عن شيء يجهله ويطلب المعرفة به من جوابه .

فإذا فهم كما ينبغي له أن يفهم أن المقام مقام تعليم ، لا استطلاع ، لم يكن له جواب غير جوابه الذي يتطلب المزيد من العلم بما عند الله مما يهديه إليه ، وكان

الجواب على قدر السؤال كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ، ولم يكن بالمفسر حاجة إلى أن يتصور أن في الجواب اطالة غير مطلوبة ، وإنما هي تمحل لإطالة الحديث في غير غرض من أغراض الرسالة الإلهية.

ولا بد من هذه النظرة الى مقام القول في تفسير كل بلاغة « على حسب مقتضاها » .

ولكن للقرآن الكريم حكماً غير سائر الأحكام ، لأنه يتطلب من المفسر ان يعرف له مقاماً واحداً في جملته يخالف بـــه كل مقام : وهو مقام الرسالة الإلهية التي يرتبط بعضها ببعض وتنتهي ظواهرها كلها إلى باطن واحد توافقـــه جميع الأجزاء من السور والآيات متفرقات ومتصلات .

ولا ينسى المفسر هذا المقام المجمل على اختلاف المناسبات واختلاف مقام القول في كل آية وفي كل حكم من أحكام يتواتر في تفصيل آياته .

وذلك هو الذي عناه الدكتور عثمان أمـــين حيث يقول عن منهج الأستاذ الإمام في تفسيره : « انه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة ، وينتهي الى التصريح بأننا اذا كنا بحاجة الى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام فان معرفـــة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه » .

وهذا في لبابه هو منهج كل مفسر يستمع اليه في هذا المقام الجليل ، ولا يجوز لمن لا يستطيعه ان يتصدى لتفسير القول البليغ كيفما كان ، وأجدر الا يتصدى لتفسير أحسن القول وأحراه بالتبصر والوعي والمعرفة بمقام كل مقال .

القرآن والنظريات العلمية (١)

« ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد، ان الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ، يقول في الطبعة الثانية من كتابه « اعجاز القرآن » في هامش ص ١٣٢ تعليقاً على الآية القرآنية :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » . فجاءت العبارة في الآية الكريمة كأنها سلالة من علم تتسع لمذهب القائلين بالنشوء ، ولمذهب القائلين بالخلق ، ولمذهب القائلين بانتقال الحياة الى هذه الأرض في سلالة من عالم آخر ... » فإن كانت نظرية دارون صحيحة فإني أريد أن أعرف رأيكم في الكيفية التي يقبل بها القرآن الكريم أن يكون الإنسان من سلالة القردة ، وأرجو ان اقرأ ردكم على صفحات الرسالة الغراء ، ولكم جزيل شكري والسلام » .

المخلص

* * *

والذي نلاحظه أولا ان رواية مذهب دارون على هذا الوجه غير صحيحة . فإن دارون لا يقول بتسلسل الإنسان من القرد ، ولا يلزم من مذهبه ان يكون كل انسان منحدراً من القردة في أصله القديم .

---

(١) الرسالة ٢٧ أكتوبر ١٩٤٧

وكل ما يلزم من مذهبه ان الإنسان والقردة العليا تلتقي في جذر واحد ، وأن بين الانسان والقردة العليا حلقة مفقودة لم توجد الى الآن .

أما الآية القرآنية فهي لا تثبت المذهب ولا تنفيه ، ومن الخطأ البين في اعتقادنا ان نجعل تفسير القرآن تابعاً للنظريات العلمية التي تنقض اليوم ما تثبته بالأمس ، والتي يجري عليها الجدل بين المدارس العلمية – او الفلسفية – على أسس شتى لم يتفق عليها العلماء .

ومن أمثلة ذلك ما ذهب اليه بعض المجتهدين المحدثين في التوفيق بين القرآن الكريم ومباديء مذهب النشوء والارتقاء . فالنشوئيون يقولون بتنازع البقاء ، وهو مطابق للآية القرآنية :

(وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بعضَهُمْ ببعضٍ لَفَسَدَتِ الأرضُ) .

ويقولون ببقاء الأصلح ، وهو مطابق للآية القرآنية : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وأمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ) . ومن المشاهدات التي سجلها النشوئيون ما هو صحيح لا ريب فيه ، ولكن المذهب يشتمل على نتائج وتخريجات كما يشتمل على مباديء ومشاهدات ، وكل ما جاء فيه من قبيل النتائج والتخريجات فهو في حكم الفروض التي تحتمل النقض والاثبات ، ولا يصح ان نفسر القرآن الكريم وفقاً لها ، وهي لا تزال في طور التدليل والترجيح .

والنظرية السديمية مثل آخر من هذه الامثلة في محاولات التوفيق بين القرآن الكريم والفروض العلمية . فمن علماء الطبيعة – والفلك خاصة – من يرى أن المنظومات الفلكية نشأت كلها من السديم الملتهب . وأن هذا السديم تختلف فيه الحرارة فيتشقق ، أو ينفصل بعضه عن بعض من أثر التمدد فيه ، فتدور الاجرام الصغيرة من حول الاجرام الكبيرة ، وتنشأ المنظومات الشمسية وما شابهها من هذا التشقق وهذا الدوران .

فإذا ببعض المجتهدين المعاصرين يعتبر هذا القول فصل الخطاب في نشأة الاجرام السماوية ، ويقول انه هو المقصود بالآية القرآنية : (أوَ لَمْ يَرَ الذينَ كَفرُوا أنَّ السَّمٰوَاتِ والارضَ كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ، وجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حَيٍ ، أفلا يُؤْمِنُونَ) .

ولكن النظرية السديمية لم تنته بعد بين علماء الطبيعة إلى قرار متفق عليه فهل كان الفضاء كله خلواً من الحرارة ، وكانت الحرارة الكونية كلها مركزة في السدُم وما إليها ؟

ومن أين جاءت الحرارة للسدم دون غيرها من موجودات هذا الفضاء ؟ ألا يجوز أن يظهر في المستقبل مذهب يرجع بالحرارة إلى الفضاء في حالة من حالاته ؟ أليس خلو الفضاء من الحرارة - أن صح هذا الخلو - عجباً يحتاج إلى تفسير؟ أليس انحصار الحرارة في السدم دون غيرها أحوج من ذلك إلى التفسير؟

فالقول المأمون في تفسير الآية القرآنية أن السموات والأرضين كانت رتقاً فانفتقت في زمن من الأزمان . أما أن يكون المرجع في ذلك إلى النظرية السديمية فهو المجازفة بالرأي في غير علم وفي غير حيطة ، وبغير دليل .

واظهر من هذا وذاك جدالهم القديم حول دوران الأرض وثبوتها ، أو حول استدارة الأرض وتسطيحها .

فقد تفلسف بعضهم في تفسير آي القرآن الكريم فجزم بكفر القائلين باستدارتها ودورانها ، وجعل القول بثبوتها وتسطيحها حكماً قاطعاً من أحكام الدين . فما قول هؤلاء الآن وقد أصبحت استدارة الأرض مشاهدة من مشاهدات العيان ؟ وما قولهم وقد أصبح دورانها مسألة من مسائل الحساب الذي يحصي كل حركة لها كما تحصى حركات كل قطار؟

وهكذا يخطئون في النفي كما يخطئون في الإثبات كلما علقوا آيات القرآن بهذه النظريات العلمية ، أو الفروض الفلسفية ، التي تختلف الأقوال فيها باختلاف الأزمنة أو أختلاف الأفكار.

وقد تكون محاولات التوفيق مأمونة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير الطير الأبابيل بجراثيم الأمراض التي تسمى بالميكروبات .

فالميكروبات موجودة لاشك فيها والإصابة بها محققة كذلك في مشاهدات مجربة لا تقبل الجدال . فإذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام إن هزيمة أصحاب

الفيل ربما كانت من فعل هذه الجراثيم فذلك قول مأمون على الجواز والترجيح، ولكنه غير مأمون على الجزم والتوكيد ، لأن الحفريات التاريخية قد تكشف لنا غداً عن حجارة من سجيل أصيب بها أصحاب الفيل فجعلتهم كعصف مأكول .

ومهما يكن من فروض العلماء في مختلف الأزمنة فإن القرآن الكريم لا يطلب منه أن يتابع هذه الفروض كلما ظهر فيها فرض جديد ، وكل ما يطلب منه أن يفتح باب البحث لمن يؤمنون به فلا يصدهم عن طلب الحقيقة حيثما سنحت لها بادرة مرجوة ، وقد توافر ذلك في آيات القرآن الكريم كما لم يتوافر قط في كتاب ديني تؤمن به الأمة ، فليس أكثر من الحث فيه على التفكير والاعتبار وطلب الحقائق في آيات خلق الله في الأرض والسماء : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولي الأَلْبَابِ الذين يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ، رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلا سبحانَكَ فَقِنا عذابَ النارِ) .

وحسب المسلم أن يعمل بما علمه كتابه في هذه الآية وما جرى مجراها ليعطي العلم حقه ، ويطلب الحقيقة من حيث يطلبها الفكر الإنساني في عجائب خلق الله بين الارض والسماء .

أما مدلول الآية كما أشار اليه الرافعي فهو يتسع – كما قال – لجميع المذاهب في خلق الإنسان وسواء قطعنا الصلة بين الإنسان وسائر الاحياء العليا والدنيا او ربطناها فذلك لا ينفي أنه في أصله من سلالة من طين . وقد جاء في القرآن الكريم : (وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كلَّ شيءٍ حَيٍّ) . ولم يقل أحد إن خلق الاحياء جميعاً من الماء يمنع تسلسل الإنسان من مادة الطين ، فإن الأصل لا ينعدم إذا خرجت منه الفروع على التسلسل والتدريج ، او خرجت منه دفعة واحدة بغير تسلسل ولا تدريج . وحذار أن نقف في هذه المسألة كما وقف المجادلون من قبل في مسألة الارض واستدارتها ودورانها ، فإنهم يدعون لانفسهم ما لا يجوز لاحد أن يدعيه باسم العلم او باسم الدين ، وفوق كل ذى علم عليم .

الطَّيرُ الأبابيلُ في تفسيرِ الأستاذِ الإمام[1]

قلنا في كلامنا الذي نشر بالرسالة[2] عن القرآن والنظريات العلمية إن محاولات التوفيق قد تكون مأمونة معقولة كقول الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير الطير الأبابيل بجراثيم الأمراض التي تسمى بالميكروبات ، فالميكروبات موجودة لا شك فيها ، والإصابة بها محققة كذلك في مشاهدات مجربة لا تقبل الجدال ، فاذا قال المفسر كما قال الاستاذ الإمام إن هزيمة أصحاب الفيل ربما كانت من فعل هذه الجراثيم فذلك قول مأمون على الجواز والترجيح .

وهذا الذي فعله الاستاذ الإمام حين أجاز أن تكون إصابة احجار الفيل من قبيل الإصابة بجراثيم الأمراض .

وقد كتب الأستاذ الفاضل الشيخ مصطفى أحمد الزرقا إلى الرسالة معقباً على مقالي فقال : « لعله اعتمد في قضية الطير الأبابيل على رواية أحد نسَب ذلك الرأي إلى الشيخ محمد عبده أخذاً مما اشيع عنه واشتهر » .

ولكن الواقع اننا لم نعتمد على الرواية بل اعتمدنا على كلام الإمام نفسه ، ولم ننسب اليه غير ما جاء في نص تفسيره حيث قال في الصفحة الـ « ١٥٨ » من

---

(١) الرسالة ١٩٤٧/١١/١٧

(٢) انظر المقال السابق .

تفسير جزء عم يتساءلون : « فيجوز لك ان تعتقد ان هذا الطير من جنس البعوض او الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد اهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فِرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال . فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل اليه مادة الجدري او الحصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة » .

إلى أن قال رحمه الله : « هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته ، ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يُدرك بالبصر » .

وفي هذا النص يرى الفاضل الأستاذ « الزرقا » اننا لم نعتمد على الرواية المنقولة ، ولم نتجاوز بالنص معناه حين قلنا إن الأستاذ الإمام اجاز تفسير الطير الأبابيل بجراثيم الأمراض التي تسمى بالميكروبات ، وهو تفسير مقبول ولا شك — كما قلنا — على سبيل الجواز والترجيح .

مسألة القضاء والقدر[1]

قد راعيت يا سيدي ان اقدم اليك مسألة واحدة حتى لا يشق على مجلة الرسالة ردك .. وهذه المسألة هي « القضاء والقدر » ، هل الإنسان مسير أم مخير ؟. وقد وجهت هذا السؤال من قبل لاستاذي فرد علي ردا لم أر فيـــه مقنعاً . فتضاربت الآراء بعقلي ، واني لاخشى على نفسي وعلى إيماني ..

محمد علي طالب

بمعمل قنا

مسألة « القضاء والقدر » هي مسألة الحرية الإنسانية فى جميع نواحيها ، فهي بهذه المثابة مسألة قضائية نفسية علمية ، وليست بالمسألة الدينية وكفى .

وليس من الميسور أن تحل هـــذه المسألة من جميـــع وجوهها حلا يدفع كل أعتراض ، ويوافق كل رأي ، ويكشف النقاب عن العلاقة بين حرية الإنسان وقوى الكون الذي يعيش فيه ، فان العلم بحدود حريته يتوقف على الإحاطة بهذه العلاقة من جميـــع أطرافها ، وليس ذلك بالمستطاع في عصرنا هذا . ولا نخاله يستطاع كل الاستطاعة في وقت من الأوقات .

لكن المستطاع الذي لا شك فيه أن مسألة القضاء والقدر هي نفسها حل معقول أسهل من جميـع الحلول التي تذهب اليها المقول .

---

(١) الرسالة ٣ مارس ١٩٤٧

فماذا يقول من ينكر القضاء والقدر كأنه شيء لا يوافق العقل ولا يساغ في منطق التفكير ؟

أيقول بأن المخلوقات يجب أن تختلف وأن تتساوى مع ذلك الأختلاف في كل قدر وقضاء ؟

ذلك حكم لا يسوغ في عقل عاقل ، لان اختلاف التقدير لازم مع اختلاف الأقدار .

فاذا اختلفت اقدار المخلوقات وأوصافها فلا يخطر على العقل ان تكون بعد ذلك سواء في الاعمال والتقديرات .

وإذا هي لم تختلف فكيف يريد المعترضون أن تكون ؟ وكيف يتوهمونها في الخيال فضلا عن تقديرها في عالم الفكر او عالم العيان ؟

أيريدونه عالماً لا فرق فيه بين حي وحي ، ولا بين شيء وشيء ، ولا بين موجود وموجود ؟

إذن هم يريدونه عالما لا أشياء فيه ولا أحياء فيه ولا موجودات فيه .

لان الشيء لا يسمى شيئاً إلا إذا كان مخالفاً لشيء آخر في جوهره او صفاته ، فاذا بطل الاختلاف بين الاشياء بطل قوام الاحياء والموجودات .

فهل يرى المعترضون انهم هربوا من مسألة القضاء والقدر إلى مسألة يقبلها العقل وترتضيها النفس ، ويتصورها الخيال ؟

وأي الصورتين بعد هذا أقرب إلى عقول المفكرين : عالم فيه اختلاف في التقدير واختلاف في الاقدار؟ او عالم لا توجد فيه الاشياء ولا توجد فيه الاحياء !

فمسألة القضاء والقدر على هذا أقرب إلى الفهم من كل مسألة تخطر على بال مفكر في هذا الموضوع .

وإذا كانت هي الوجه الذي يقبله العقل فالناحية المجهولة منه ينبغي ان تقاس على الناحية المعلومة ، فيطمئن الفكر إلى موافقتها له ومطابقتها لدواعي الإيمان .

أما هذه الناحية المجهولة فهي ناحية التوفيق بين العدل الإلهي واختلاف الجزاء على الاعمال .

فاذا وجب ان تختلف الاشياء ويختلف الاحياء ويختلف الجزاء ، فقد وجب ان يكون الجزاء غير مناقض للعدل في نهاية المطاف . ونهاية المطاف هذه هي التي يجهلها الإنسان ، ويقيسها على ما يعلم فتسري اليه الطمأنينة في هذا القياس الصحيح .

* * *

ويتحدث الاديب صاحب الخطاب عن صديق له يسخر من تبلبل خاطره في هذه المسألة فيقول : « انه أبرز لي آراء في هذه المسألة وقال إنها آراء أهل السنة واخرى قال إنها آراء المعتزلة » ... ولا يدري أيها أحق بالاتباع ؟

ولا فائدة من الإطالة في تفصيل هذه الآراء او تلك الآراء .

ولكن كاتب الخطاب خليق ان يوقن أن آراء المعتزلة تؤدي إلى تبلبل في الخواطر يعود على صاحبه بسخرية أمر أنكى ، لانهم يحلون المشكلة بمشكلات ويخرجون من تيه إلى أتياه ، ويقولون ان الانسان ينبغي ان يكون حراً لان الله يحاسبه ، وإن الله لا يحاسبه إلا لانه حر في عمله واختياره .

فهم لا يقررون أن الانسان حر في عمله واختياره بدليل من الواقع ، بل بفرض من الفروض . فمن أين لهم ان حساب الله لا يوافق حالة التقدير ، وانه لابد ان يناقض العدل إذا وجب الإيمان بالتقدير ؟ ولماذا يمنعون على الله حساباً يتقابل فيه العدل والرحمة وصدق الجزاء والعقاب ؟ وإذا وجب التسليم بأن الاختلاف في العالم المشهود هو الحالة التي يتحقق عليها الوجود ، فلماذا يجزمون بأن هذه الحالة الواجبة ستناقض ما يجب في مسألة العدل والتوفيق بين العمل والمصير ؟

لو كان المعتزلة ينكرون وجود الله لجاز ان يبطلوا الحكمة في الخلق كله ، وان يبطلوا العدل والرحمة فيما هو ظاهر لنا وما هو محجوب عنا ، ولكنهم يؤمنون بالله ويؤمنون بوجوب الاختلاف بين الاشياء والاحياء فلماذا تضيق قدرة الله عندهم عما يوافق الحكمة فيما يجهلون ؟

وقصارى القول ان الحل الوحيد المستطاع لعقدة القضاء والقدر هو المقابلة بينها وبين العقد التي تنتهي اليها إذا أنكرنا القضاء والقدر . وان العدل بمعنى

المساواة الشاملة هو العدم بعينه ، لان المساواة الشاملة تنفي قيام الاشياء والاحياء ، فلا بد من معنى للعدل الإلهي غير هذا المعنى ، ولا تناقض إذن بين العدل والاختلاف في تركيب الموجودات ، إذا وجب ان نفهمه فهما غير فهم المساواة في الاقدار والمساواة في التقدير .

ونحن نرى في حياتنا العملية ان الناس يرثون اخلاقهم من آبائهم وأمهاتهم ، وينشأون في عاداتهم على نشأة بيئتهم وبيئات اسلافهم، ولكننا مع هذا لا نبطل التكليف والجزاء ولا نرى انه عبث في غير جدوى ، او ان الغاء القوانين والعقوبات مساو لبقائها وسريانها. فهناك نصيب من الحرية يكفي لقيام التكليف في المسائل الدنيوية ، وهناك نصيب من الحرية يكفي للتوفيق بين العمل والجزاء في هذه الحياة القصيرة ، فكيف بالحياة الابدية التي تدبرها عناية الله ولا يحيط بها علم الإنسان ؟

إن مسألة القضاء والقدر عقدة ، ولكنها عقدة لا ينكرها المنكر إلا وقع فيما هو اعقد منها ، ولا سيما المنكر الذي يؤمن بوجود الخالق القديم .

اما الذين يبطلون وجوده فإنهم يعطلون العقل جملة في هذه المسألة وفي غيرها من المسائل ، لان تفسير العالم كله بالمصادفة العمياء لا يدع مجالاً للإشكال ولا للسؤال ، وكل شيء جائز او غير جائز ، فقد استوى الجائز وغير الجائز على كل حال .

شعر باشتداد وطأة المرض وتبريح الألم والاضطراب. وأقعده الوهن عن الحركة. ثم تعذر عليه النطق فلم يسمع منه غير ذكر اسم الله يستمد منه العزم والعزاء. وطفق يردد في صوت يشبه الهمس الخافت: الله أكبر .. الله أكبر .. وأدركته زوجته بما وسعها من العطف والرعاية وهي تصغي إليه فلا تستبين ما يقول: إلا ان تفهم من حركة الشفتين انه يوالي التسبيح بكلمتي التكبير: الله أكبر .. الله أكبر .. ولم يكد يستطيع قبل ان تفيض روحه إلى بارئها غير التكبير والابتسام وهو ينظر إليها .. وقد وقف القطار الذي يحمل جثمانه من الإسكندرية إلى القاهرة في غير مواضع الوقوف قضاء لواجب الحزن والتشييع ممن كانوا ينتظرونه في الطريق .. واجتنبت مظاهر التقليد في الصلاة عليه وفاء للراحل الذي قضى حياته في كفاح التقليد والعزوف عن باطل الثناء؛ ولكن المشيعين له من المسلمين وغير المسلمين كانت تغمرهم غاشية الحزن العميق، وشوهد بين الجمع رجل يغلبه النحيب. فأقبل عليه صديق يعزيه ويشاطره المصاب. فنظر إليه وهو يقول:

« إنه لا يبكي شجوه وحده، ولكنه يبكي لأولئك المحرومين الذين كان من عمله أن يطوف عليهم بالصدقات في كل شهر من مرتب الشيخ .. وقد كان عظيماً فقيراً في الحياة. وقضى نحبه وهو فقير عظيم ».

ولم يسلم كتاب السيدة رولات من الأخطاء والسهوات. ولكنها اخطاء وسهوات كأمثالها مما ورد في كتب هذه المجموعة، قد تحمل على نقص العلم بالواقع واختلاف النظر إليه. قبل أن تحمل على سوء النية.

فهرس

الإسلام دعوة عالمية

Maged

egypt

